القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مايو - يونيو 2004

ملف العدد

- باطن الأرض

- مجتمع المعرفة..وثقافة الحوار
- ربوع الحياة
في الربع الخالي

العدد 3
المجلد 53

القافلة مايو - يونيو 2004

معارض ومؤتمرات

مايو 2004

- ندوة تمويل مشاريع صناعة الغاز والزيت
  دبي: 1 - 5
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk
- ملتقى الشارقة الدولي للخط العربي
  الشارقة: 5 - 5 يونيو
- ندوة السلامة ومنع الخسائر
  دبي: 8 - 12
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk
- معرض الغذاء العربي
  جدة: 9 - 13
  ace@acexpos.com
  http://www.acexpos.com
- المعرض الدولي التاسع للنفط والغاز والبتروكيماويات
  طهران: 12 - 15
  office@iranfair.com
  http://www.iranfair.com
- منتدى الغاز السعودي الأول
  الدمام: 15 - 17
  saudigas@chamber.org.sa
  http://www.thecwcgroup.com
- المنتدى الاقتصادي العالمي
  عمّان: 15 - 17
  contact@weforum.org
  http://www.weforum.org
- المؤتمر العربي السادس للاتصالات والإنترنت
  الدوحة: 30 - 1 يونيو
  info@iktissad.com
  http://www.iktissad.com

يونيو 2004

- ندوة التعريف بمعالجة الغاز الطبيعي
  دبي: 5 - 9
  http://www.promis-group.com/bin/main.asp
- مؤتمر إدارة المشاريع
  الكويت: 5 - 9
  info@sigmaprotaining.com
  http://www.sigmaprotaining.com
- مؤتمر بتروكيماويات الخليج
  البحرين: 8 - 9
  meed conferences@emap.com
  http://www.meed.com
- معرض الاتصالات العربية "أرابكوم 2004"
  بيروت: 16 - 17
  info@arabcom.com
  http://www.arabcom.com
- معرض ومهرجان القراءة لكل الفصول
  عُمان: 23 - 13 يوليو
  info@chamberoman.com
  http://www.chamberoman.com
- معرض الكمبيوتر 2004
  القاهرة: 30 - 9 يوليو
  http://www.goief.gov.eg

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
رولان قطّان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

مايو - يونيو 2004
ربيع الأول - ربيع الآخر 1425

عالم الطاقة 10–17
أرامكو الثقافية: ملامح
التشكيل الاجتماعي الحديث 10
لُبُوس لكل زمان 16

قضايا 18–25
سر الحمراء وسحر الشرق.. 18
ندوة القافلة تناقش ثقافة الحوار..
من يعرف أكثر يحاور أفضل 20

علوم وبيئة 26–48
ربوع الحياة في الربع الخالي 26
زاد العلوم 36
الألعاب الإلكترونية..
قفزة في الهواء ما زالت تقفز 38
قصة ابتكار وقصة مبتكر 46
اطلب العلم 48

الحياة اليومية 55–67
حياتنا اليوم 55
زمن الهواية الجميلة 56
النوم.. سلامته وأمراضه 62
صورة شخصية 66

الثقافة 68–86
عمادة طه حسين للأدب العربي.. 68
ديوان الأمس / ديوان اليوم 76
قصة للكبار والصغار 80
سؤال عن الرواية التاريخية 84
قول آخر 86

الملف 87–102
باطن الأرض: رحلة بين العلم والأدب 87



الفاصل المصوّر 49–54

توزع مجاناً للمشتركين

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 5787 898 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس: 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 أكثر من مرة سأل الدكتور محمد جابر الأنصاري عن : "متى يصبح النفط مواطناً في دولة الأدب العربي؟". ونحن نظن أن هذا السؤال أجيب عنه بصور متعددة، لكننا في هذا العدد نجيب عنه بصورة أخرى من خلال رصد المنجز الثقافي للصناعة النفطية وتحليل أبعاد هذا المنجز.



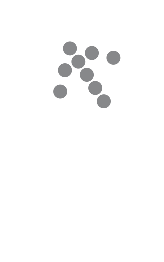
2 شكّل الاهتمام العام بمسألة الحوار الوطني مناسبة دفعتنا إلى التفكير في مفهوم الحوار بحد ذاته من دون أي إطار محدد، وبثقافة الحوار: ما هي؟ كيف تُبنى؟ وكيف تُصان؟ أسئلة حساسة وكبيرة طرحتها القافلة في ندوة خاصة استضافت فيها الأساتذة سلطان البازعي، حسن السبع، د. أمل الطعيمي، د. مبارك الخالدي، و د. ليلى زعزوع.. ونعرض أبرز ما جاء في الندوة في قضية هذا العدد.

3 في الشأن البيئي يلتقط العدد استطلاعاً حول صحراء الربع الخالي وربوع الحياة فيه، وقد سبق أن أعلنا عن فوزه في مسابقة القافلة الذهبية: جغرافية، تضاريس، رمال.. وأيضاً المها والريم والإدمي وغيرها الكثير من الحيوانات ومعالم الحياة في تلك النواحي مع توقف للاستجمام في محمية عروق بني معارض.



ومن الصحراء إلى الإلكترونيات وألعابها الحديثة التي تشغل الأولاد (وبالتالي ذويهم) منذ أكثر من ربع قرن، ولكن من دون الانتباه إلى عوامل تشكل جاذبية هذه الألعاب والآفاق المفتوحة أمام تطورها، وهو أمر يكشفه لنا تاريخ هذه الألعاب الذي نستعرضه في المناخ العلمي.

الملف المصور يأخذنا إلى الشرق الأقصى مع أعمال للمصور الياباني العالمي كيجورو ياهاجي.. مجموعة لقطات بالأسود والأبيض من معرض بعنوان "اليابان المختبئة" يجوب العالم مروراً ببعض البلدان العربية.



4 مناخ الحياة اليومية يتقاسمه موضوعان، الأول حول الهوايات الجميلة التي كانت تملأ أوقات الفراغ بما هو مفيد وممتع، وتبدو عليها اليوم علامات التقهقر لصالح أشكال أخرى من إزجاء وقت الفراغ. أما الموضوع الثاني فهو حول شأن صحي قلّما حظي بأهمية إعلامية تتناسب وأهميته الحيوية بالنسبة إلينا، ألا وهو النوم، وأشكاله السليمة وغير السليمة وما يمكن أن ينجم عنها أو يرافقها من أمراض.

5 والمناخ الثقافي يتضمن أيضاً قضيتين: الأولى هي عمادة طه حسين للأدب العربي وما إذا كانت موضع سؤال حتى الآن، وفي الأمر رأيان مختلفان تماماً لكل من الأستاذين سامح كُريّم وجهاد فاضل. والقضية الثانية هي الرواية التاريخية التي انتصرت في السنوات الأخيرة على غيرها من المواضيع في الرواية العربية.

ولمتذوقي القصة القصيرة، وهم كثر، يتضمن هذا العدد قصة قصيرة بقلم القاص السوري المعروف الأستاذ فاضل السباعي بعنوان "الدنانير الذهبية التي تتحول إلى فضة"، يقول إنها للكبار والصغار معاً، ونحن نقدمها على هذا الأساس.



6 وأخيراً، يأخذنا فريق التحرير في رحلة في باطن الأرض.. إلى تلك الأعماق المجهولة وما تحويه في ظلماتها من كنوز لا غنى للإنسان عنها، في ملف يجمع بين لمسات الأدب والخيال من جهة والحقائق العلمية من جهة أخرى.



المحرر

الرحلة معاً

عولمة مجتمع المعرفة

تقريباً لم يبقَ قلم عربي لم يتناول تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003م. وبينما ذهبت كثير من الأقلام إلى اعتباره تقريراً (متربصاً)، سياسياً في غالبية ما نقله، رأت أقلام أخرى أنه جدير بالتدقيق والتمحيص، وأنه لا بدّ من الاعتراف العلني ببعض أو جلّ ما ورد فيه.

والأهم بالنسبة للكثيرين أن هذا التقرير الذي عُني بوضوح بمجتمع المعرفة أوجد رغبة في إعادة تعريف "المعرفة" ذاتها. وإذا شئتم فقد أصبح هناك ما يكاد يكون نسفاً لمجتمع المعرفة بمفهومه التقليدي ليحل محله مفهوم جديد بالكلية، يخضع لمعايير ليس أقلها العولمة، التي أفرزت ما يجوز أن نسميه: مجتمع المعرفة المعولم.

وفي الطريق إلى التعرف إلى ملامح هذا المجتمع (القديم الجديد) لم يكن مستغرباً أن نجد من يعتبر العولمة مزية كبرى لبناء مجتمعات المعرفة والمعلومات الحديثة، ومن رأى أن عولمة مجتمع المعرفة حدث بشري خطير لأنه يفرض مساراً واحداً على جميع المجتمعات ونشاطاتها الاقتصادية، بل إنه أكثر من ذلك، سيفرض بطبيعة معطياته وتطبيقاته، على هذه المجتمعات أن تصل إلى النقطة نفسها على مسار التنمية والتطور الاقتصادي والثقافي.

ويدلل القارئون لما يسمونه مأزق مجتمع المعرفة المعولم على خطورة التسليم بهذا المبدأ بأخذ الدول الفقيرة مثالاً على الوقوع في مأزق المسار الواحد. فهذه الدول حين تحاول معالجة أسباب تأخرها تتبع نهج القفز من مستوى اقتصادي أو ثقافي إلى آخر، الأمر الذي قد ينجح في حالات قليلة جداً، بينما يشكل اختزالاً أو (فجوات) اجتماعية لن تعرف ملابساتها إلا بعد حين.

في المقابل يطالب أنصار مبدأ عولمة المعرفة بأن تُحني الدول الفقيرة رأسها لعاصفة المعرفة الحديثة، لأنه لم يعد بإمكان أحد أن يمارس في محيطه الخاص تلك المعرفة العفوية التي تنتج عن جهود وقتية متقطعة لا تؤدي إلى تلك النتائج الكبرى التي تؤدي إليها المعرفة الجماعية المنظمة والمستمرة، ذات التأثير المباشر على حياة الناس.

ولذلك فقد بدأ، منذ سنوات، التطلع إلى بناء مقومات جديدة لحيازة المعرفة لدى أي مجتمع، وبينما نجحت دول أخفقت أخرى، لأنها لم تقبل بهذه المقومات أو أنها اختارت أن تطبقها مجتزأة حذراً من جرأتها وتجنباً لما يمكن أن تحدثه من أثر غائر في أعماق المعرفة التقليدية.

لكن، مهما يكن من أمر القبول أو القبول الحذر، أو حتى القبول القسري لفروض مجتمع المعرفة الحديث، فإن الركيزة الأولى لمجتمع المعرفة الحديث هي الذهنية الجمعية العريضة المستندة إلى العقلانية في تناولها لشؤون حياة المجتمع ضمن وتيرة منظمة ومستمرة.

ثم إن هناك النظام السياسي الذي يرتب الأدوار والعلاقات ويوجه الموارد والطاقات، والنظام الإداري الذي لا يستقيم مسار تطبيقات مجتمع المعرفة الحديث من دونه. وبالدرجة نفسها من الأهمية لا بد أن يرتكز هذا المجتمع إلى درجة أكبر من تقبّل التغيير وأن يضع نظام التعليم موضع القلب من همومه. عندها فقط يمكن أن نناقش بقية مسائل مجتمع المعرفة المُعولم.

ويبقى لدي تعريف لمجتمع المعرفة أستله من طلال أبو غزالة، رئيس المجمع العربي للإدارة والمعرفة، يقول: "إن مجتمع المعرفة يعلم ويتعلم، ويتواصل، ويبتكر، ويحتكم، ويتاجر ويضع الأنظمة ويتقدم في كافة جوانب الحياة من خلال استعماله للتقنية الرقمية. إنه المجتمع ذو الجهاز العصبي الرقمي الذي يستخدم الإمكانيات غير المحدودة لإدارة المعرفة لتحقيق مزيد من التقدم".

أعتقد أننا بذلك عثرنا على تعريف كثير التفاصيل لمجتمع المعرفة الحديث، ربما نعود إليه فيما بعد لنجعل بعض ما ورد فيه أكثر اتساعاً وشمولاً.

رئيس التحرير



ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

موضوع الممرضات.. ناقص!

أود أن أشكركم على التطرق إلى موضوع "تحديات الممرضة السعودية" الذي نشرتموه في العدد الأخير من مجلتكم. وبقدر ما أسعدني تعرض الموضوع لكثير من قضايا هذا القطاع الحيوي إلا أنني أعتبر موضوعكم ناقصاً كثيراً.
أثناء قراءتي لهذا الموضوع لم أجد اهتماماً جاداً بمتاعب الممرضة السعودية التي تبذل الكثير من الجهد والوقت في خدمة مهنتها. ولو قمتم بعمل جولات ميدانية في المستشفيات والمراكز الصحية وسجلتم التحديات اليومية التي تواجهها الممرضة السعودية من واقعها الذي تعيشه لخرجتم بموضوع حقيقي.
ما ضايقني وبشدة هو الخجل الذي كنتم عليه في كتابة الموضوع، ولقد شبعنا. نحن الممرضات. من ذلك المديح والكلام عن التاريخ والمنجزات، وصرنا في حاجة إلى موضوعات تعالج مشاكل عمل الممرضة الوطنية بشكل أعمق. لقد أحسنتم في كتابة الموضوع ولكن إحسانكم ناقص..

أماني سعيد
ممرضة. صفوى

ديوانية مفتوحة

في العدد المنشور بعدد القافلة (مارس-أبريل 2004م) كتب جهاد فاضل موضوعا بعنوان (لغتنا على الهواء مباشرة) وصف فيه البرامج الفضائية بأنها (ديوانيات مفتوحة) تكريسا لمفهوم يتهم العربية بالتخلف و عدم مواكبتها للعلوم بينما العربية تصنف من بين 12 لغة حية في العالم ....
أما خصوصيتها على مستوى القاعدة والتصوير الدلالي فهي ذائقة اعتاد عليها الإنسان العربي وما تزال الفصحى تتوسع جمالاً في الفضائيات العربية ذات الإعلام الهادف الذي ينتهج رؤية واقعية للحياة لا لأن يبتز المشاهد العربي ببرامج ليس لها قيمة؛ ولهذا أرى إن الكاتب جهاد فاضل ركز على البرامج التي لا قيمة لها بتركه للبرامج ذات القيمة العالية .

سعد بوحسان
الأحساء

عدد.. عن النخيل

في زمن عزّ فيه الحرص على الاتصال، هنا في العراق الجريح، انفردت مجلة القافلة في استمرارها بالتواصل مع أبناء العمومة في بلاد الرافدين، وكنت واحداً من المحظوظين الذين تشرفوا بمصافحة هذه المجلة - الوثيقة الرائدة.
أتمنى من كل قلبي أن تعود المجلة إلى الصدور شهرياً بدلاً من شهرين، لأن إصدار ستة أعداد في السنة قليل جداً، ونحن نطمح إلى أن ننهل من ينبوع القافلة كل شهر كي نرتوي.
قرأت في ملف العدد الخامس عن النخلة / الشجرة الطيبة، وهو ملف جميل، وكنت أتمنى أن تصدر المجلة عدداً خاصاً عن النخيل، تستكتب فيه عدداً غفيراً من الكتّاب والباحثين لتغطية الموضوع. وللمناسبة، أشير إلى أنني كنت قد أنجزت بحثاً عن نخيل المملكة العربية السعودية، ولو كنت أعلم أن القافلة ستصدر هذا الملف، لأرسلته إليكم.

عبدالجبار محمود السامرائي
بغداد - العراق

من الهند عن "العربية"

نشكركم أولاً جزيل الشكر على قيامكم بالخدمات الجليلة في مجال نشر اللغة العربية الشريفة.. وقد انتفعنا بمجلتكم الغرّاء خلال هذه السنين لما احتوت عليه من مختلف الأمور في لغة ووتيرة جيدة.
إن كليتنا الإسلامية المسمّاة بالكلية العربية الرحمانية حظيت بوصول مجلتنا المحبوبة "القافلة" قبل سنوات كثيرة. ومن جرّاء قراءتها كثر عدد الضليعين في اللغة العربية الفصحى، حتى خرج من كليتنا قافلة عظيمة تضم مئات العلماء المتبحرين في اللغة إلى جانب العلوم العصرية التي غرفوها من "القافلة الفذة".
إن هذه الرسالة تنوب عن مئات القلوب المخلصة التائقة إلى إتقان العربية، إذ ما أن علم الطلاب بانقطاع وصول القافلة إلى الكلية هربوا مسرعين إلينا مؤكدين على كتابة هذه الرسالة التماساً لاستمرار إرسال القافلة إلينا لخدمة الدين.
جزاكم الله أوفر الجزاء وثبّت أقدامكم في هذا المجال.

اتحاد الطلبة
الكلية العربية الرحمانية
كيرلا - الهند

القافلة: تعتز القافلة بمساهمتها في نشر العربية، وتشكركم على رسالتكم الودية هذه. وقد أحلنا عنوانكم إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم أعداد المجلة بانتظام إن شاء الله.

الرياضة.. المزيد من الاهتمام

بعد قراءتي لبعض أعداد "القافلة" وما رأيته فيها من مواضيع لاحظت أنها لا تهتم بالمجال الرياضي.
لا أدري أهو من قلة ما قرأت من أعداد، أم أن ملاحظتي صحيحة. فإذا كان الأمر صحيحاً فأرجو الاهتمام قليلاً بالجانب الرياضي الذي يمثل اهتمام كل الشباب في العالم العربي.

سراجية عمر
المسلية - الجزائر

القافلة: لديك بلا شك وجهة نظر، لكن الأعداد السابقة تضمّنت أكثر من موضوع حول الشؤون الرياضية.

لماذا في الرياض؟!

أنا مطلع على المجلة من قديمها وحتى الآن تصلني بانتظام عبر البريد.. لم يكن قديمها سيئاً إلا أن التطوير والتحديث مطلب ملح في زماننا لأي إنسان مبدع وقد كان التطوير في القافلة خلاقاً ومبدعاً بالفعل، يشعرني بأن السر وراء هذا جهداً كبيراً وحرصاً دقيقاً على التميز.. أتمنى لكم التوفيق، وكنت قد عزمت على كتابة هذه الرسالة بمضمونها منذ العدد الأول ولكن أضيف الآن استفهاماً قد طرأ أثناء متابعتي للأحداث الثقافية المحلية، ومن ضمنه احتفال القافلة بتاريخها الطويل في الرياض مؤخراً والذي نشر بجريدة اليوم - الأربعاء 2004/4/21م - وحيث أن ذلك حدثاً جميلاً ومهماً في كل مكان في المملكة ولكن أليس للمنطقة الشرقية حق متميز في الاحتفال بهذه المناسبة أيضاً وقد ولدت القافلة فيها؟!!
تحياتي لك وللزملاء في تحرير القافلة مرة أخرى..

عبدالعزيز عبدالرحمن السماعيل
مدير الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون - فرع الدمام

القافلة: سررنا برسالتك وما ورد فيها من إطراء وعتب. أما إقامة حفل المجلة بالرياض فهو بمناسبة مرور عام على تجربة التطوير لتعريف المثقفين والكتاب من زملائنا هناك على هذه التجربة وأخذ رأيهم فيها. وقد كان للمجلة تواصل مع المثقفين بمختلف المناطق ومنها المنطقة الشرقية بطبيعة الحال..

حين اغتاب نجيب محفوظ الشعراء..!

في العدد الأول من المجلد 53 من القافلة كان الروائي العالمي نجيب محفوظ ضيفاً خاصاً عبر مقالة تحدث فيها عن (حال الرواية). وفي المقالة طمأن محفوظ نفسه: "لست أخشى على الرواية من التراجع لأنه مهما تغيّرت أحوال الدنيا ستظل الرواية أكثر الأشكال الأدبية تعبيراً عن الواقع، وأكثر ما يمكن أن يشبع الحاجات الإنسانية لدى الإنسان".

وفي هذه الطمأنينة اغتابَ نجيب محفوظ الشعراء في العتمة التي أمسكت حضورهم. فقد قال: "في السنوات الأخيرة استطاعت الرواية أن تسحب البساط من تحت أقدام الشعر لأنها تقدم للناس احتياجاتهم الإنسانية أكثر من الشعر لذلك تفاعلوا معها.. فالشعر يكتفي بالضغط على أوجاع الناس فيصرخون ألماً.. أما الرواية فإنها تتعامل مع الجرح بيد جرّاح ماهر فتغوص بداخله وتلقي الضوء على أبعاده المختلفة وتناقش تفاصيله المتعددة وهو ما يخلق حالة التقاء إنساني بين القارئ والرواية إلى حالة التوحد".

سيرة الرواية لم تستعد الكائن في جميع حالاته. مع الاعتراف بأنها حققت مشروعية بارزة على مستوى العالم، وأعطت شكلاً حميماً للتاريخ. وهذا يذكّر بالروائي السعودي عبده خال، الذي ردد لصحيفة الرياض، ما معناه: "الرواية كتبت التاريخ أفضل من المؤرخين وقدّمت الحدث التاريخي بعقلانية وحياد لا توريات به". ولست أطنطن للشعر، فحسبه فنّاً أنه أغرى الجمال بجنون اللحظة الهاربة، ولكن من غير المعقول تشويه ذاكرة مؤثرة في الخطاب العربي والعالمي. وهنا أراجع الشاعر والروائي غازي القصيبي في ما قاله بأن الشعر هو ملاذٌ روحي يخلّص الإنسان من التوتر والاضطرابات النفسية التي تنتج عن كآبة الحياة وضنك العيش الذي يستهلك إنسانيتنا في عصر المادة.

ثمة مبررات أنتزعها من نجيب محفوظ لأقول: إن تحول بعض الشعراء من النص الشعري إلى السرد أو السرد لا يعني ضمور فن في جيب فن آخر، إنها رحلة مغامرة تستوجب العصيان تارة والهدوء تارة أخرى، فالفن يفسر نفسه بنفسه حسب نيكولا دوستائيل.

وفي لقاء لمجلة (العربي) تحدث نجيب محفوظ موغلاً في "أن الرواية العربية تعاني من مشاكل داخلية تتمثل في ذوق الكاتب واختياره للموضوعات التي باتت بلا رائحة؛ حيث توكلت على الهامشية والوضاعة التي التمّ حولها مجموعة زائفة من النقّاد الصغار وباتوا يبجلون في الأعمال السردية بطريقة مخادعة". وهذا لا يعني التناقض، ولكن.. الذي يترصد سيرة الرواية في الوطن العربي فإنه يجدها أحياناً ثائرة ضد اللاشيء. فإذا آمنّا بأن الكتابة فعلٌ اجتماعي فهي ناتجة عن حدثٍ أو متأثرة بحدث أو معلقة على حدث أو ما إلى ذلك مما تؤدي بالضرورة إلى حدث آخر يتناوب الزمن، ولا يتجاوزه إلا بإضافة قناعة تخفف أعباء الماضي الذي أصبح تاريخاً.

الشعر أسهم في الأجناس الأدبية الأخرى، بل أثراها. وثمة قصص وروايات ومقالات "تشعرنت" في خطابها. وذات حوار أيضاً، في مجلة (الرفد) نُشر العام الماضي، قال الشاعر شوقي بزيغ: "شعرية العالم لا تنحسر، فالشعر يوزع ألقه على القصة والرواية وعلى المسرح واللوحة التشكيلية والموسيقى وسائر الفنون لأنه موجود في نسق كل هذه الفنون وسرعان ما يستعيد عافيته بعد فترات من النكوص.

محمد الفوز
الدمام

قافلة القرّاء

بطاقة حب إلى الجبيل

تَدَلَّلي.. تَدَلَّلي
فها أنا تركتُ ظِلَّ واحتي
هَجَرْتُ فَيْءَ منزلي
أتيتُ يا جُبَيْل
لأنثرَ الورودَ فوقَ وجنتيك
لأغزلَ الصور
لأُشْعِلَ الحروفَ في فَنارِ شاطِئَيْكِ
وأقرأ السُّوَرْ
أُعَوِّذُ الحسناءَ من عيونِ حاسديك
فلملمي العطورَ من دمي
فشوقُها إليك
ولملمي الجراحَ من رُفَاتِ مَبْسَمِي
فعينُها عليك
وَطَوِّقي رؤايَ مثلما تطوقُ البحارُ مِعْصَمَيْك
ومثلما يُغَرِّدُ المَحَارُ في يديك

أتيتُ يا حبيبتي نَعَمْ أتيت
والشوقُ ثوبيَ الذي ارتديت
والجمرُ مائِيَ الذي ارتويت
فهدِّئي عواطِفي فإنَّني اكتويت
وَرَوِّضي رياحي السموم في فمي
لعلها تنامُ كالصغارِ في يديك

شعر: د. خالد بن سعود الحليبي

عن المضادات الحيوية: نريد المزيد من المعلومات

في عدد مارس - أبريل 2004م اطلعت على موضوع "المضادات.. تواجه مصيرها" المنشور في الصفحة السادسة والأربعين من المجلة، وقد أسعدني أن تتناولوا هذا الموضوع الذي يشغلني ويشغل غيري من الناس، حيث إنه لا توجد لدينا معلومات كافية حيال طبيعة التعامل مع هذه المضادات، التي نستسهل العلاج بها، لا سيما علاج أطفالنا.

فأنا أذكر على سبيل المثال أنني لم آخذ أبنائي إلى الطبيب في موسم البرد أو تقلبات الجو إلا ونعود بكومة من المضادات الحيوية التي يقلقني أخذهم لها وأثرها في صحتهم في المستقبل.

ولذلك أقترح أن تقدموا المزيد من الموضوعات والدراسات حول هذا الموضوع وأن تتوسع المجلة أكثر في الحديث عن طرق العلاج الجديدة التي أشار إليها الموضوع المذكور في خاتمته. وأقترح أيضاً أن تستضيفوا عدداً من المتخصصين في حوارات عن هذه الطرق الجديدة توفر لنا المزيد من المعلومات حول بدائل المضادات الحيوية، وربما تفيدنا مثل هذه الحوارات في ثقافة التعامل مع هذه المضادات التي طالما أقلقتني أنا شخصياً.

عمر عبدالعزيز العمر
عنيزة

كتب القهوة والشاي

أرجو أولاً أن تدلوني على طريقة الاشتراك في المجلة.

إضافة إلى ذلك، فقد حوى العدد الصادر في شهر يوليو لعام 2003م بحثاً كاملاً عن الشاي والقهوة، فالرجاء إفادتنا من أين يمكن أن نحصل على الكتب المعلن عنها في آخر الملف.

محمد أحمد العمراني
بنك الجزيرة - الدمام

القافلة: الاشتراك في القافلة مجاني للمهتمين بها، فالرجاء إرسال عنوانك البريدي كاملاً إلينا. أما الكتب التي تسأل عنها، فإن أفضل السبل للحصول عليها هو في الاتصال بدور النشر التي أصدرتها، والتي ذكرناها في نهاية الحديث عن كل كتاب.

بعد عام على الصدور

انتظرت عاماً كاملاً بعد صدور القافلة في ثوبها ونهجها الجديدين حتى أستطيع أن أقول كلمتي بصراحة. فقد عزّ عليّ في البداية تغيير الخط والنهج، وأسفت لغياب بعض الأبواب الطريفة مثل "صفحة في اللغة".. أما الآن، وبعد توالي صدور الأعداد الجديدة، فقد تبين لي ثراء موضوعات المجلة وأهميتها، وإن لاحظت قلة الموضوعات الإسلامية وقضايا اللغة العربية مقارنة مع ما كان عليه خط المجلة في السابق. لهذا، آمل أن تتداركوا هذا الأمر في الأعداد المقبلة، ولكم وافر التحية والشكر.

إبراهيم نويري
بوخضرة - الجزائر

القافلة: المواضيع الإسلامية وقضايا اللغة العربية لم تغب عن القافلة. بل صارت تتخذ شكلاً جديداً على صعيدي اختيار الموضوعات ومعالجتها. وأعداد السنة الأولى من الحلّة الجديدة تؤكد ذلك.

رفيقتي منذ 20 عاماً

أذكر أنني عندما كنت في المرحلة المتوسطة، أعطاني والدي، يرحمه الله، مجلة القافلة. وما زلت أحتفظ بذلك العدد حتى الآن مع بعض الأعداد اللاحقة.

أعجبت كثيراً بهذه المجلة، وأصبح عندي اهتمام بأن أحصل عليها من أحد موظفي أرامكو السعودية كل

شهر - عندما كانت تصدر كل شهر. ولاحقاً، عندما أصبحت في المرحلة الجامعية، اغتنمت الفرصة السانحة لارتياد المكتبة الجامعية ومطالعة الأعداد القديمة، عندما كانت القافلة تصدر بالأبيض والأسود. وشيئاً فشيئاً صارت هذه المجلة رفيقتي الدائمة منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

من هنا أرفع شكري وتقديري لرئيس تحرير المجلة والجهاز الفني القائم على تحريرها إذ أنها بحق أكثر من رائعة. وأتمنى لهم جميعاً المزيد من الإبداع والتوفيق.

حسين بن محمد آل دعبل
القطيف

قصة "فردوس"

قرأت بتمعن قصة فردوس المنشورة في العدد الأخير من مجلة القافلة. وبعد التأمل فيها طويلاً قررت أن أكتب إليكم هذه الكلمة لأعلق على اختياركم لهذه القصة للفوز بجائزة المسابقة الذهبية.

فعلى الرغم من أنني لاحظت أن نهاية القصة المشبعة بالفانتازيا والخيال تختلف عن المتوقع بعد بدايات شديدة الواقعية، (وأسلّم بأن شخصية المؤلف قد تكون ميّالة إلى هذا النوع من الجمع بين الواقع والمتخيل)، فإنني وجدت نفسي أمام عمل أدبي رفيع المستوى يستحق أن تسلّط عليه الأضواء، وأن يلقى الرعاية التي يحتاجها للنمو والنضوج.

وقد أسعدني جداً أن يكون عمر مؤلفها محمد عبدالمنعم زهران نحو 32 عاماً، الأمر الذي يبشّر بموهبة مبكرة نرجو لها أن تستمر وتكبر بمرور الأيام.

جميل سمعان
صافيتا - سوريا

المشتركون الجدد

السادة: عارف بن محمد العبري، سلطنة عمان - خالد خليل الشامي، الزرقاء الأردن - صلاح عبدالستار محمد الشهاوي، طنطا مصر - الدكتور فكتور الكك، بيروت لبنان - الدكتور مصلح معيض مصلح، أبها - بدر جمعة العوفي، ينبع - فؤاد بن محمد البصري، الهفوف - عبدالله حمد سعد الجغثم، الهفوف - حسنا محمد نور، المحرق البحرين - محمد عيظة الزهراني، الباحة - حمدان بن مصلح العنزي، أملج - سلمان محمد الكرود، المبرز - عبدالرحمن الصييفي وعبدالرحمن البسيمي وفهد سليمان الزين ومساعد محمد وسليمان بن راشد العقيل، عنيزة - محمد أحمد السيد ومحمد عبدالله آل عائض وحسن أحمد سعيد، أبها - إبراهيم محمد الصائغ، الأحساء - حسان ركيبة، الفجيرة - سليمان بن محمد أبو زهرة، الطائف - خليل نعسان الجراش، حمص سوريا - سعد برغش الشهراني، خميس مشيط - بثينة بنت ناصر الثنيان، رياض الخبراء - عرفة حسن الشرقاوي، مكة المكرمة - عمار عبدالله بو صبيح، الهفوف - سالم عبيد با سعد، سيئون حضرموت - محمود بن علي عثمان، المدينة المنورة - محمد بن صالح البليهي، حائل - عبدالله بن عيضة القثامي، مكة المكرمة - اشبيلية بن قويسم، قسنطينة الجزائر - جميل عبدالله علي، البحرين - محمد بن حصيد العنزي وعوض بن مفلح الشراري، تبوك - سمير بن عثمان هاشم بنجر، مكة المكرمة - دكتور منير محمد سالم، جامعة الأزهر القاهرة - لولوة الكعبي، البحرين - راشد بن ناصر العتيبي، شقراء - علي ابن عبدالعزيز الدعيج، الرياض - دكتور سعود بن علي الحنان، الرياض - عطية بن سعد الزهراني، الدمام - عبدالرحمن بن عبدالله التويجري، المجمعة - عبدالرحمن محمد خضر، طنطا مصر.

القافلة: وصلتنا رسائلكم، وأحلنا عناوينكم إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم القافلة بانتظام إن شاء الله.

نعمل لغدنا

المتميزون

ما من شيء يبعث الراحة في أوصال المؤسسة، أية مؤسسة، مثل تميز موظفيها. ليس لأن التميز صيغة شكلية تتباهى بها أمام مثيلاتها من المؤسسات المنافسة، بل لأن هذه القيمة تجعلها مطمئنة إلى الصورة التي ستكون عليها في نهاية الطريق، طريق العمل والإنتاج والربح والمنافسة.

ولذلك تسعى المؤسسات والشركات بكل ما أوتيت من قوة الإدارة والأنظمة ووسائل الرقابة لبث قيمة التميّز في نفوس موظفيها عبر مناطق ومواقع أعمالها. وتنظم في خاتمة كل سنة حفلات كبرى لتكريم المتميزين، الذين هم الفاعلون والمنتجون والمربّحون - بكسر الباء وتشديدها.

وأكثر من ذلك لجأت بعض الشركات إلى وسائل تكريم وامتنان دورية: شهرية وفصلية. فأصبح هناك موظف الشهر (المتميز) وموظف الربع الأول من السنة..الخ. وكسبت الشركات من وراء هذا التكريم السريع و(الآني) الكثير على صعيد تطوير أعمالها واكتشاف أوجه قصور أدائها، فصار بمقدورها أن تتجنب التقصير من هذا الموظف أو ذاك في الوقت المناسب. بينما، وفي الوقت المناسب أيضاً، يأخذ المتميز حقة من الحضور في حياة المؤسسة ويومياتها ويكون بمقدوره، وهذا هو المطلوب بالضبط، أن يتباهى بمنجزه ومكاسبه الشخصية من وراء تفرده بالتميز، الأمر الذي يخلق حالة من التنافس الشريف حول الإنتاج الأفضل أو البيع أكثر أو التخطيط بفاعلية أكبر.

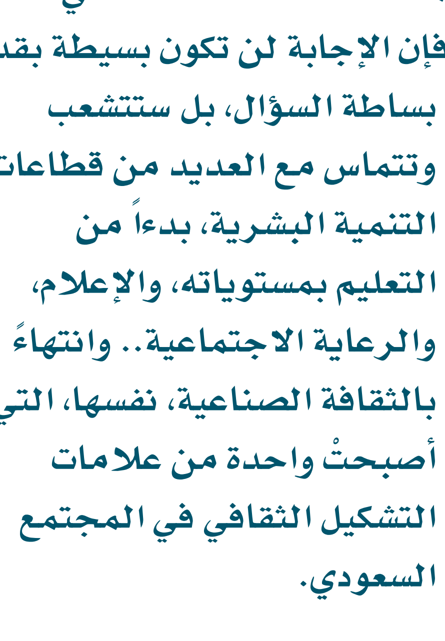
إن التميز بالمجمل حالة وظيفية لا يقدر عليها إلا الأكفاء من الناس، وهؤلاء هم الذين تتسابق إليهم الشركات والمؤسسات لتخطب ودهم وتستثمر كفاءاتهم.

تثقيف العمال الذي تحوّل إلى برنامج اجتماعي..

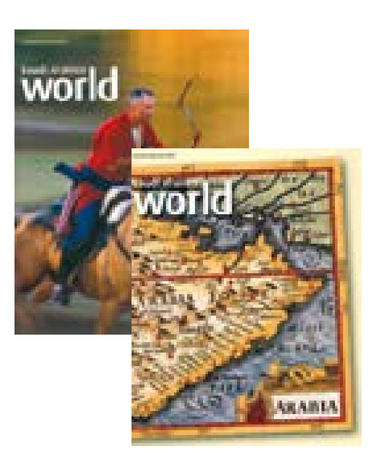
أرامكو الثقافية

ليس من السهل حصْرُ جوانب المردود الثقافي من صناعة النفط على أي مجتمع تدخلت هذه الصناعة في تنميته. وحين يبرز سؤالٌ بسيط عما قدمته صناعة النفط في المملكة للثقافة تحديداً؛ فإن الإجابة لن تكون بسيطة بقدر بساطة السؤال، بل ستتشعب وتتماس مع العديد من قطاعات التنمية البشرية، بدءاً من التعليم بمستوياته، والإعلام، والرعاية الاجتماعية.. وانتهاءً بالثقافة الصناعية، نفسها، التي أصبحتْ واحدة من علامات التشكيل الثقافي في المجتمع السعودي.

الزميل حبيب محمود، يستطلع بعض الملامح التي رسمتها صناعة النفط في ثقافة المجتمع المحيط بهذه الصناعة وما استحدثته من قيم وأنماط وأشكال جديدة من الحياة لم تكن معروفة قبل تدفق هذه الثروة..





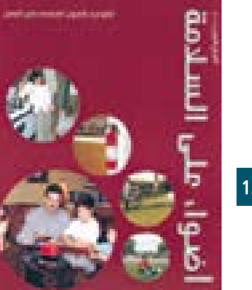


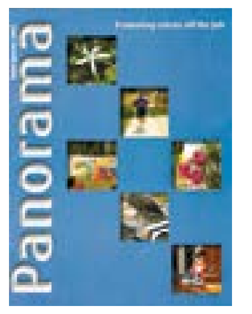
للتوّ بدأ «إبراهيم الحادي» قراءة كتاب «صلاح الدين الأيوبي» الذي استعاره وكتاباً آخر هو «أشهر المخترعين ومخترعاتهم» من مكتبة أرامكو السعودية المتنقلة. وخلال أسبوع، على إبراهيم، طالب الصف السادس الابتدائي، أن يقرأ الكتابين، قبل أن يعيدهما إلى المكتبة.

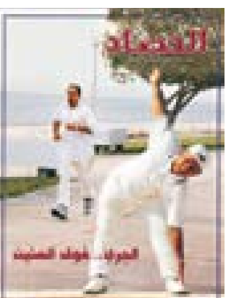
وهي ليست المرة الأولى التي يستعير فيها «إبراهيم» كتباً من هذه المكتبة، فقد تعرَّف إليها وهو في الصف الثالث. وقتها أدهشه مشهد حافلة غير مألوفة الشكل تدخل باحة مدرسته، وحين دخلها - برفقة زملاء آخرين - لم يجد فيها مقاعد كما هو حال الحافلات التي تسير في الطرقات، وإنما وجد كتباً كثيرة مرتبة. ومن ذاك الوقت وهو يحسب حساب هذه الحافلة الغنية بزاد الثقافة والمعرفة، ويستعير منها الكتب التي تُعجبه..

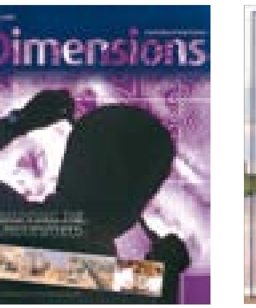
محتوى ثقافي

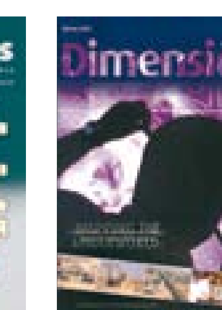
«إبراهيم الحادي» واحد من بين 30 ألف طالب مُستهدَف للاستفادة من برنامج المكتبة المتنقلة خلال العام الحالي، بعد أن نجح البرنامج في استهداف 26 ألف طالب العام المنصرم، ليكمل 22 عاماً من التجوال بين المدارس، والتعامل مع الطلاب بواسطة الكتاب..! واللافت، في برنامج المكتبة المتنقلة، هو ذلك المُحتوى الثقافي الذي تحمله الكتب إلى طلاب المدارس وطالباتها في المدن والقرى، بل وحتى الهجر النائية. فما يُتوقَّع من شركة يقوم نشاطها على صناعة النفط هو أن تعتني، أكثر ما تعتني، بنشر ثقافتها الصناعية بين الناشئة، والتسويق للمعارف المتصلة بالطاقة والنفط والغاز، أو الترويج للمنجزات الدولية العريضة، على الأقل اعتماداً على ما للطفولة من قابلية للتأثر بالمُدخلات الثقافية..!

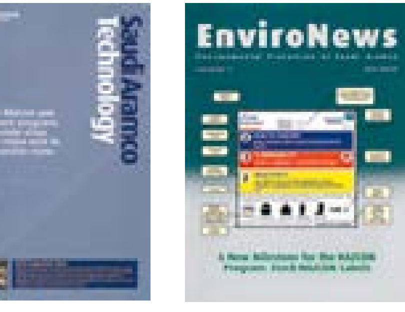












غير أن عناوين الكتب التي يتلقفّها الطلاب لا تُعطي – بالضرورة – أولوية لهذه الأهداف. وما تشي به هذه العناوين هو إحساس بتشجيع محض للطلاب على أن تتحول القراءة، لديهم، إلى حبٍّ في الاطلاع. ولهذا لن يتفاجأ أحد حين يجد أجزاءً من صحيح البخاري، أو سيرة ابن هشام، أو تاريخ المملكة من بين 200 عنوان تقريباً في كل حافلة. ولن تكون هناك أية غرابة حين تصطفّ قصص جحا الضاحكة على مقربة من سير جادة لنابليون بونابرت، أو هنيبعل، أو ياقوت الحموي، أو الفارابي.. فهذا التجاور والتقارب تعززهما كتب أخرى في الرياضة وكرة القدم، وأقاصيص التسلية التي تجاور كتب الطيران والاتصالات والحاسب الآلي، والمخترعات الحديثة..!

المُحتوى، في إجماله، خطابٌ ثقافي متنوّع، يضع الطلاب والطالبات أمام خيارات الميول والاهتمامات التي تعود إلى المهارات الفردية والطموحات الخاصة. وما يريده البرنامج هو أن يتيح كلَّ ما هو ممكن لتشجيع العلاقة بين الطالب والكتاب. وفي نظام الإعارة خطوة إضافية لدعم هذه العلاقة، وهي خطوة جادة وعملية، وقد «أعارت حافلات المكتبة المتنقلة، التي تنطلق من الظهران، فقط، 45 ألف كتاب للطلاب العام الماضي».

البداية تثقيف داخلي..!

الاهتمام بالثقافة لازم صناعة النفط منذ نشأتها الأولى. وبطبيعة كل بداية؛ فإن الثقافة التي اهتمت بها، في بداياتها، لم تكن تعني الثقافة بمفهومها العام قدر ما كانت تعني «التثقيف» الذي يخدم الأعمال والعاملين في صناعة النفط. ولهذا برزت برامج تثقيف السنوات الأولى في حلقات التوعية بالسلامة، والتثقيف الصحي، والاعتناء بالبيئة، ناهيك عن ثقافة العمل، نفسه، الذي يعني الزيت والغاز: إنتاجاً وتكريراً وشحناً وتسويقاً.. إلخ

برامج التثقيف هذه انحصرت في الموظفين أول الأمر، في سياق استراتيجية الشركة في رعاية موظفيها. فمثلما يتمتع الموظف بمزايا برامج العلاج الطبي وتملُّك البيوت وفرص التطوّر الوظيفي عبر الدورات التدريبية أو الابتعاث الخارجي فإنه أيضاً يخضع لبرامج تثقيف مكثّفة تساعده على العمل في بيئة مريحة وآمنة وصحية، فضلاً عن تحفيزه على التعرف على النشاط اليومي لصناعة النفط الذي تمارسه الشركة التي يعمل فيها هذا الموظف..!

وتعددت الوسائل التي تخاطب الموظفين، ومحيطهم الاجتماعي، ويوم السادس عشر من سبتمبر من عام 1957م كان مشهوداً بما تعني الكلمة من ريادة، ففيه انطلقت أول محطة تلفزيون في منطقة الخليج العربي، من الظهران، لتقدم برامجها، الإنجليزية والمعرّبة، جرعات متلاحقة من التثقيف والتوعية والترفيه والتسلية.

وقبلها بثلاث سنوات فقط، أي عام 1954م، كانت "أرامكو" قد بدأت في طرح واحدة من أهم الوسائل المهمة في تثقيف المجتمع وترقيته. تمثل ذلك في برنامج بناء المدارس الذي بدأ بمدرسة الدمام الابتدائية الثانية التي افتتحها الملك سعود، رحمه الله، ووقتها كان ولياً للعهد. وهو برنامج انطلق، أساساً، من أجل أبناء الموظفين، لكنه توسّع عاماً بعد عام ليخدم المجتمع، ويقترب عدد المدارس التي بنتها الشركة من 130 مدرسة يدرس فيها أكثر من 70 ألف طالب وطالبة.

هذه النوعية من المدارس يشهد لها قاص سعودي هو عبدالله الوصالي الذي يعتبر سنوات دراسته في مدرسة الفتح الابتدائية بالهفوف أكثر السنوات أهمية.. يقول: "كان زملاؤنا الآخرون في المدارس الأخرى يغبطوننا – بل يحسدوننا – لأننا في مدرسة أرامكو.. وهو حسدٌ مبرر، فما نعيشه هو ما نتعايش معه من جو تعليمي وتربوي ومحفزات ترفيهية وتجهيزات تساعد على حبّ اليوم المدرسي أكثر"..!

ثقافة العمل.. وثقافة الالتزام

من الواضح جداً أن السرد السابق تناول المسألة الثقافية الخاصة بصناعة النفط من خلال البرامج التي مورستْ في المرافق النفطية، أو عبر الأجهزة المرتبطة بها. وهي برامج جمعتْ الثقافة الصناعية إلى جوانب أخرى من الآداب والفنون والتثقيف الصحي والتربوي والاجتماعي، والبرامج الإعلامية. وفي مجملها؛ شكلتْ مصادر تعاطى معها المجتمع، وتفاعل مع كثيرٍ منها، وتسرّبت أغلب قيمها إليه على تفاوت وتباين واضحين.

وبين ما قبل النفط وما بعده فروق عميقة للغاية، ولا يتسع المجال لاستعراض تلك التغيّرات الهائلة التي عكستها صناعة النفط على الواقع الاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن السياسي. وبحصر هذا الانعكاس في المسألة الثقافية وفي حدود النطاق الجغرافي الواقع في نطاق أعمال النفط؛ فإن ملامح الصورة الثقافية تتداخل بالعديد من الملامح الاجتماعية، بل الديموغرافية على نحو شامل.

■ د. محمد الرميحي: النفط أعطى الثقافة العربية الوسائل الحديثة، وصنع الدولة وبرامج التنمية

■ محمد العلي: طرح «القافلة» في الأسواق سيضع المجلة في جدلية ثقافية تفيد الشارع الثقافي أكثر

■ د. عبدالعزيز المقالح: منذ أكثر من أربعين سنة وأنا على صلة بهذا المصدر الثقافي الأصيل

■ عبدالله الوصالي: سنوات "الفتح الابتدائية" أهم مراحلي المدرسية..!

■ محمد رضا نصر الله: كيف انصهر أبناء المناطق المتباعدة في التجربة الجديدة فكادت تذيب مواريث ثقافتهم الاجتماعية الضيقة..؟

عودتنا إلى التاريخ تكشف الكثير مما نرمي إليه. فحين بدأ النفط في التدفق؛ وجدت الشركة الناشئة، في الثلاثينيات الميلادية، نفسها في حاجة إلى المئات من الأيدي العاملة للنهوض بهذه الصناعة. فما كان منها إلا أن أرسلت فرقاً من موظفيها إلى الحواضر السكانية القريبة من مناطق الأعمال، للبحث عن الشباب السعودي القادر على العمل الشاق. وأمام المغريات والمميزات تراكض الآلاف من الشباب إلى العمل. بعضهم جاء من بيئة بحرية، وبعضهم من بيئة ريفية، وبعضهم من البادية. ولم يقتصر الأمر على أبناء المنطقة الشرقية في تلك المرحلة الزمنية، بل اجتذبت أعمال البترول وما تطلبته الأعمال من نهوض تجاري آلافاً مؤلفة من مناطق نائية من المملكة.

ولأن صناعة النفط كانت مستعدة لاستيعاب القوى البشرية في أعمالها وبرامجها برؤية استراتيجية طويلة الأمد؛ فإنها أوجدت المعايير الدقيقة لتأهيل القوى البشرية المتزايدة تأهيلاً متيناً، فتمثل ذلك في برامج التدريب والتثقيف والابتعاث، وبلورة قيم العمل وثقافته في سلوك الموظفين والعمال، جيلاً بعد جيل.



وهذا عين ما عناه الإعلامي المعروف محمد رضا نصر الله، قبل أسابيع، في حفل القافلة بمدينة الرياض.. حيث قال: "فعل برنامج تدريب السعوديين أفاعيله العجيبة قبل نصف قرن. حين ذاك أدهشتنا رطانة الحساوي والقطيفي.. كيف تمكنّا من إتقان اللغة الإنجليزية بلهجتها الأمريكية، بينما كان العهد بهما غارقين في لهجتهما المحلية التي لا تتعدى مفرداتها أدوات البحر والفلاحة.. كذلك الحال بالحائلي، والمكي، والقصيمي والمدني، العسيري والنجراني، هؤلاء جميعاً ضمتهم التجربة



مشاهد من معرض أرامكو السعودية على موقع الشركة في الإنترنت





الجديدة في أرامكو، فكادت تذيب مواريث ثقافتهم الاجتماعية الضيقة، في أتون ملحمة العمل والوعي بعالم متغير".

وعبر السنوات تحقق، لدى قطاع الموظفين، مستوى عالٍ من الالتفاف حول القيم العملية الإنتاجية، فضلاً عن الانصهار الثقافي لأخلاط متباعدة من المشارب الاجتماعية. وصارت قيم العمل التي يحرص عليها موظف قادمٌ من بيئة صحراوية تهمها التقاليد القبلية هي نفسها القيم التي يطبقها موظف آخر جاء من بيئة بحرية، أو من مدينة تجارية، أو من قرية ريفية محضة.

الموظفون، بدورهم، نشروا، في مجتمعهم، قيم الإنتاج بما تعنيه من أخلاقيات مهنية وسلوك يضع الالتزام في مقدمة أولوياته. ولا يزال منظر «الكولي» – وهي تسمية تقليدية لموظف أرامكو – ذا دلالة على شخصية ذلك الرجل الذي لا يستطيع إيقاف سيارته في موقف مخالف مرورياً، ولا يسمح بتمديد سلك كهربائي في منزله ما لم تكن قواعد السلامة مطبقة بحذافيرها..! ناهيك عن التقيد الحرفي الذي يعني أنه يدخل المكتب، أو المعمل، في وقت العمل المحدد، وينجز عمله المطلوب من دون أن يحتاج إلى من يذكّره أو يتابعه..!

■ العاملون في صناعة النفط نشروا قيم الإنتاج والالتزام في مجتمعهم

■ منذ 22 عاماً.. يعمل برنامج المكتبة المتنقلة على تشجيع العلاقة بين الطالب والكتاب

■ بدأت برامج التثقيف بالموظفين، لكنها تحوّلت مع الزمن إلى فعاليات تستفيد منها كافة شرائح المجتمع

ثقافة الثروة..!

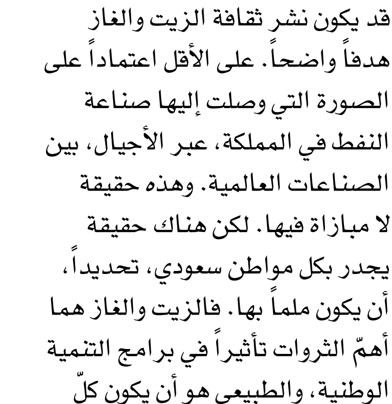
قد يكون نشر ثقافة الزيت والغاز هدفاً واضحاً. على الأقل اعتماداً على الصورة التي وصلت إليها صناعة النفط في المملكة، عبر الأجيال، بين الصناعات العالمية. وهذه حقيقة لا مبازاة فيها. لكن هناك حقيقة يجدر بكل مواطن سعودي، تحديداً، أن يكون ملماً بها. فالزيت والغاز هما أهمّ الثروات تأثيراً في برامج التنمية الوطنية، والطبيعي هو أن يكون كلّ مواطن مثقفاً بما يكفي لمعرفة ثروة بلاده، وواعياً لأهميتها العالمية، وأثرها الاستراتيجي في حاضره ومستقبله. في هذا الصدد يؤكد الدكتور محمد الرميحي لـ (القافلة) أن النفط صنع «للثقافة العربية الوسائل الحديثة، بل صنع الدولة وبرامج التنمية».

والمسؤولون عن صناعة النفط، في المملكة، ابتدعوا لتثقيف المجتمع بترولياً أنشطة متنوعة وفعاليات. والمعرض الذي عُرف لسنوات بـ "معرض الزيت" كان مفردة مهمة في بلورة هذه الثقافة. وقد تأسس أوائل الخمسينيات الميلادية في الظهران، ثم أخذ يتجوّل في العديد من مناطق المملكة ومدنها، بهدف التعريف بثروة الوطن الاستراتيجية التي غيّرت لاحقاً كل شيء وطورت كل ميدان..!

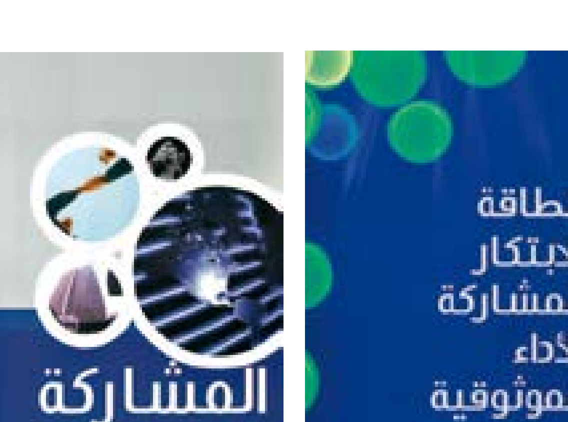
كان عرضُ صور آبار البترول، وأنابيب نقل الزيت، وموانيء الشحن شكلاً أولياً للتعريف الذي كانت التعليقات القصيرة توضحّه وتشرحه. ثم أضيفت نماذج ومجسمات لبعض المرافق الصناعية فيما بعد. وعاماً بعد عام تحوّل المعرض إلى متحف يعرّف بصناعة الطاقة بشكل علمي يجمع الدقة والسهولة، وفي عام 1987م أنشيء المبنى الحالي، في الظهران، محتضناً تقنيات العروض الحديثة، لتتلوه مراحل تحديث متلاحقة جعلت من التجوال فيه نزهة علمية مفيدة. وفضلاً عما تستعرضه أجنحة المعرض من وسائل حديثة في التعريف بصناعة النفط؛ فإنه، أيضاً، يأخذ في اعتباره الجذور العلمية التي تتصل بها الحضارة العربية والإسلامية، وهذا ما يعبّر عنه جناح التراث العلمي العربي والإسلامي في المعرض.

هذا التكامل التثقيفي أعطى المعرض قيماً علمية فريدة من نوعها، ولم يعد غريباً أن يُحصي المشرفون على المعرض قرابة 200 ألف زائر سنوياً، من طلاب المدارس والكليات والمعاهد والجامعات، والوفود الرسمية التي تزور البلاد، والمسؤولين الحكوميين والإعلاميين، فضلاً عن العائلات. وهذه الإحصائية لا تشمل الموظفين بالضرورة، الأمر الذي يعني أن نشاط المعرض موجّه، بشكل من أشكاله، إلى المجتمع عامة، ويستهدف نشر الثقافة البترولية بين المواطنين.









الثقافة النفطية المُعتنى بنشرها بين شرائح المجتمع، كانت حافزاً لصناعة دور ثقافي في مجتمعها المحيط بها. و«إبراهيم الحادي»، الذي استعار كتابين من المكتبة المتنقلة، قد يعود إلى منزله ليجد والده يتصفح العدد الأخير من مجلة (القافلة) التي تصدر منذ أكثر من خمسة عقود متواصلة. وقد يرافق والده، أيضاً، في حضور ندوة صحية بمدينة الدمام نظمها قسم الاتصال بالمجتمع.. ولـ «إبراهيم» شقيقتان اشتركتا في مسابقة رسوم الأطفال في سنوات كثيرة..! ولكل من هذه البرامج قصة قرأها الكثيرون من أبناء المجتمع السعودي، وتعاطى، عبرها، بجانب من جوانب الثقافة العامة التي لا يدخل النفط ولا الغاز ضمنها..!!

العمل في محيط المجتمع

ليس من شك في أن شغل صناعة النفط الشاغل هو المحافظة على إمداد البلاد بالموارد الكافية لتحقيق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي، فضلاً عن المحافظة على موقعها الدولي المتقدم. ومن المؤكد أن هناك حرصاً على تسيير نصف مليون برميل من النفط في أية لحظة من لحظات اليوم وهو يتجه، عبر البحار، إلى واحدة من بلدان العالم. والعقلية الإدارية، المشغولة بهذه الميكنة العريضة، تبقى في حال انتباه تام، وعلى مدار الساعة، لإنجاز كل الأعمال في جميع المرافق، من دون الوقوع في أي خطأ معيق. وهذا لا يمكن تحقيقه من دون تطبيق أعلى المعايير الدولية بلا أي تهاون.

هذا الشغل الشاغل لا يفصل الصناعة النفطية عن واقعها الاجتماعي الذي يمثله المواطنون بما لديهم من أنشطة وأنماط حياة وأدوار واحتياجات.

وأياً كانت الصيغة؛ فإن التنمية البشرية واحدة من الهواجس المستمرة. وحتى يتم تفعيل هذا الاهتمام؛ فإنه لا بدّ من تأسيس الجسور التي تربط المجتمع بالأنشطة الثقافية والتثقيفية. وقد خرجت هذه الأنشطة، تدريجاً، من دائرة تثقيف الموظفين إلى دائرة أوسع؛ هي دائرة تثقيف المجتمع. والصور الأولية ظهرت في نشاطات دائرة الخدمات الطبية، كما في إدارة منع الخسائر والسلامة وغيرها، من








خلال المحاضرات والنشرات والفعاليات المتنوعة. وبعد ترسيخ هذه الأنشطة، اتجه التنظيم نحو إنشاء قسم يتولى تنسيق كل هذه البرامج وتسخيرها للخدمة الاجتماعية، فكان ذلك في قسم الاتصال بالمجتمع الذي يقع تحت مظلة إدارة العلاقات العامة.

نشاط هذا القسم تثقيفي توعوي في المقام الأول، وهو يعمل على تصدير التجربة التثقيفية الداخلية التي كانت تمارسها الإدارات إلى خارج أرامكو. والمحاضرات والندوات وغيرها من الفعاليات التي كانت تنفذها الخدمات الطبية – مثلاً – على مجموعة من الموظفين في حرض، أو العضيلية، أو بقيق صارت تُنفذ في مواقع لخدمة المجتمع، خارج الشركة، في مدينة الدمام أو الخبر أو الهفوف.. وغيرها.

ولا يحتاج الأمر إلى أن يمرّ أسبوع المرور أو أسبوع الشجرة للتعايش مع المناسبة، فقد يُنفذ النشاط بناءً على تلمس الاحتياجات الاجتماعية المحضة. وكثير من فعاليات التوعية تُنفذ على مدار العام ومن دون تحديد نطاق جغرافي أغلب الوقت.

القافلة.. لجميع الثقافات..!

ولادة مجلة القافلة، قبل أكثر من خمسة عقود، كانت، أولَ أمرها، التفاتاً إلى حاجة العاملين العرب إلى التواصل المستمر عبر وسائل إعلام تتخاطب بلغة البلاد التي ينتمون إليها. فصدرت المجلة أوائل الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي لتبصّر الموظفين والعمال في الحقول وخطوط الأنابيب والموانيء ومكاتب الإدارة بقضايا السلامة والصحة والبيئة، وتخبرهم بأحداث صناعة البترول الرئيسة. ولكن سرعان ما تحوّلت (القافلة) من وسيلة إعلام مؤسسية إلى مجلة ثقافية عربية، تمزج بين غلافيها المعارف التقنية الحديثة بالآداب والفنون، والأبحاث التربوية والاجتماعية، وتتشكل منها، عبر تراكم السنين، موسوعة ثقافية هائلة، بأقلام أعلام الثقافة العربية. الأمر الذي منحها سمعة ثقافية دعت الدكتور محمد الرميحي إلى أن يقول: «تعلمتُ من القافلة.. وفي فترة من الفترات كانت مصدراً من مصادر المعلومات والثقافة، بما فيها الثقافة النفطية التي كانت تُقدم بشكل مفيد». في حين يصف الشاعر العربي الدكتور عبدالعزيز المقالح علاقته بها قائلاً: «عرفتها مجلة أصيلة منذ أكثر من أربعين عاماً حين كان شكيب الأموي رئيساً لتحريرها». وحين سأله المحرر عن وجهة نظره في العلاقة التي تربط مجلة ثقافية وشركة متخصصة في الصناعة النفطية؛ أطرى الدكتور المقالح المجلة فقال: «تميزت المجلة بدراساتها الأدبية



واللغوية المفيدة طيلة سنوات صدورها، وقد حرصتُ على اقتنائها سنواتٍ طويلة». وهذا ما يدلّل على ما لهذه المجلة من موقع لدى كثيرين من المثقفين العرب.

أمضت (القافلة) سنوات طويلة وهي تصرح، في الصفحة الثانية، بأنها تصدر «للموظفين»؛ لكن قائمة القراء «غير الموظفين» أخذت في التنامي حتى اقتربت من 14 ألف مشترك داخل المملكة وخارجها، تصلهم المجلة مجاناً إلى عناوينهم البريدية. وهناك دعواتٌ من مثقفين سعوديين مرموقين إلى تطوير علاقة المجلة بقرائها إلى مستوى «طرحها في الأسواق وبيعها ولو بأسعار رمزية لتكون في متناول الجميع كبقية المطبوعات الثقافية العربية»، وهذا ما دعا إليه الأستاذ محمد العلي الذي يقول: «حين تجد المجلة مكانها في السوق؛ فإن أول المكاسب الثقافية هو انعكاس تطلعات القرّاء على أسلوب الصدور من جهة، ومن جهة أخرى سيكون القارىء أكثر تساؤلاً في مصدر الإصدار: ماذا يعني؟ وماذا يريد..؟ أي أن جدلية حيوية ستنشأ بين القارىء والمجلة؛ هي ستفكر في الشارع الثقافي والشارع الثقافي سيفكر فيها، أكثر مما هي عليه الآن». والأستاذ العلي مُعجب بالفعل الثقافي الذي تمارسه صناعة النفط في البلاد، عبر «المشاركة في بناء المدارس، وتنفيذ البرامج الثقافية التي تتركز في قطاع الموظفين». ويطالب بأن تكون المجلة «أكثر انفتاحاً على الثقافات المتنوعة، وأقل تركيزاً على الثقافة العلمية المتخصصة، بتنشيط الإصدارات، واختيار طواقم العمل الأكثر اتصالاً بواقع المجتمع وقضاياه الثقافية».

و(القافلة)، في أهدافها وتنوعها الثقافي، تكاد تتوازى ومجلة أخرى هي (عالم أرامكو) التي يُطبع منها قرابة 160 ألف نسخة وتُوزع في العديد من بلدان العالم، مجاناً، للتعريف بالثقافة العربية والإسلامية.

الجوهر الثقافي

لقد بلورت صناعة النفط قيماً وثقافات إنتاجية، وبنت تراثاً من التقاليد المهنية تأثر به المجتمع المحيط بها عبر السنوات. وفي الوقت، ذاته، لم تكن هذه الصناعة غافلة عن الثقافات الجوهرية التي يحترمها المجتمع، أو يحتاجها. وهي ثقافة متصلة بالدين والتقاليد العربية بالدرجة الأولى، كما هي ثقافة ذات أثر وجداني واجتماعي جدير بالتواصل معه. وهذا ما حاولت الصناعة النفطية أن تترجمه إلى فعل ثقافي تحمله مجلة القافلة، كما حمله تلفزيون أرامكو، كما تحمله برامج الاتصال بالمجتمع، كما حمله الدعم المادي الموجه صوب المؤسسات الاجتماعية والشبابية في مدن المملكة.. وهو، عيناً، ما تحمله المكتبة المتنقلة إلى المدارس، فقصة الفارابي لا تقل أهمية عن قصة الطيران، وطالب السادس الابتدائي إبراهيم الحادي - وآلاف من الطلاب والطالبات - قد يقرأون القصتين، وكلتا القصتين معرفة.. والمعرفة ليست نفطاً وغازاً فحسب..!



صور الموضوع: أرامكو السعودية

لكل زمان لُبُوسَه الصّناعية.. الثقافية..!

نشأت أرامكو السعودية وهي تدرك وتؤمن بأن دورها يتجاوز ما نصت عليه اتفاقية الامتياز الأصلية من التنقيب عن النفط وإنتاجه وتسويقه، وأنها باتت جزءاً لا يتجزأ من حركة ونمو المجتمع المحيط بها. وأصبح إحساس أرامكو السعودية بأهمية دورها في تنمية المجتمع ودعم جميع الجهود الرامية إلى ذلك، قيمةً من القيم التي تؤمن بها وتسيّر بها أعمالها. وقد دفعها هذا الإحساس الأصيل إلى الإسهام في مجالات تنموية عديدة تختلف في قربها أو بعدها عن صناعة البترول، ولكنها تتفق في أنها كانت مجالاتٍ مهمةً لنمو المجتمع وتطوره.

وأول ما يلفت نظرنا في الحس الثقافي الذي تمتعت به أرامكو السعودية، عبر السنين، هو أنه كان حساً أصيلاً نابعاً من اهتمام الشركة بتنمية الوعي الثقافي بمعناه الواسع في المجتمع الذي تعمل فيه، ومبنياً على مبادراتٍ ذاتية من الشركة نفسها، إذ لم يطلب أحدٌ من الشركة أن تصدر مطبوعات، أو تنشئ محطة تلفزيون أو إذاعة، أو تنتج أفلاماً، أو تقيم معارض، ومع هذا فقد بادرت إلى كل هذا وأكثر، وحرصت على أن تكون جميع جهودها الثقافية نوافذ يطل من خلالها المجتمع على أحدث الطروحات العلمية والتقنية والفكرية والأدبية، دون المساس بثوابته الأصيلة. وفي إنكارٍ للذات، جعلت الشركة معظم نتاجها الثقافي غير ذي صلة بصناعة البترول أو بها كشركة، فأنت، أيها القارئ العزيز، تتصفح مجلة القافلة أو مجلة سعودي أرامكو وورلد فتجد فيها قطوفاً متنوعةً من بساتين الثقافة، ولكنك لا تجد فيها ما يوحي بأنها صادرةٌ عن شركةٍ بترولية، ويمكننا أن نقول هذا عمّا يكاد يكون كُل أو جُل النتاج الثقافي لأرامكو السعودية. بل إن الشركة تجاوزت مجرد السعي إلى رفع المستوى الثقافي للمجتمع إلى الدفاع، بأسلوبٍ إعلاميٍ احترافي، عن ثقافة هذا المجتمع وأصالته، وبناء جسورٍ إيجابية تربطه بالمجتمعات الأخرى، ومجلة سعودي أرامكو وورلد مثالٌ بارزٌ في هذا الميدان. كل هذا يؤكد أصالة الحس الثقافي لدى أرامكو السعودية وعمقه وانطلاقه من فكرٍ يهتم بالجوهر اهتمامه بالمظهر وأكثر، ويركز على الأهداف بعيدة المدى بقدر ما يهتم بتحقيق الأهداف الآنية.

وثاني ما يلفت الانتباه في الحس الثقافي لأرامكو السعودية هو أنه متكامل الجوانب، شامل النظرة، فقد نظرت أرامكو السعودية، عبر مسيرتها، إلى التنمية الثقافية، وتعاملت معها بكل أبعادها، ففي الجانب الأكاديمي، على سبيل المثال لا الحصر، بنت الشركة وجهزت، على أحدث الطرز الهندسية، قرابة مائةٍ وثلاثين مدرسةً يستفيد منها في كل عام حوالي ثمانين ألف طالبٍ وطالبة، وأسهمت في الستينيات الماضية في تأسيس كلية البترول والثروة المعدنية، التي أضحت اليوم جامعةً متكاملة. وفي الجانب الثقافي العام أصدرت المطبوعات الدورية وغير الدورية ونشرت الكتب وأقامت المعارض وأنتجت الأفلام ونظمت حملات التوعية عل اختلاف موضوعاتها. وفي جانب الجمهور المستهدف، خاطبت الشركة بنتاجاتها الثقافية موظفيها وأفراد عائلاتهم، وتوجهت بخطابها إلى الكبار والصغار، والرجال والنساء، والمسؤولين في الحكومة والقطاع الخاص، وعامة الناس وخاصتهم. وفي مجال موضوع وصياغة الرسالة الثقافية، قدمت أرامكو السعودية الرسالة العلمية الصرفة المتخصصة، والرسالة العلمية الميسرة للعامة، ومزجت التعليم بالترفيه والاستمتاع، وتناولت كل ما يمكن أن يخطر على البال من موضوعات العلم والفكر والدين والأدب، وخاطبت كل فئة من جمهورها بما يهمه ويجذب انتباهه.

وثالث ما يلفت النظر في الحس الثقافي لأرامكو السعودية هو الاستمرارية مع ثبات المبادئ، والتجدد المستمر مع مراعاة المتغيرات المحيطة، فها أنت، عزيزي القارئ تنظر في صفحات مجلةٍ صدرت قبل ما ينيف على نصف قرن، وربما زرت معرض الشركة في الظهران، الذي كانت انطلاقته الأولى في أوائل الخمسينيات الميلادية الماضية، أو ربما أتيحت لك الفرصة لمشاهدة فلم "الطاقة للعالم" الذي أنتج بأحدث تقنيات التصوير والعرض ثلاثي الأبعاد، والذي كان أحدث إنجاز في سلسلةٍ من الأفلام الوثائقية بدأت بإنتاج فلم "جزيرة العرب" في الأربعينيات الميلادية. وأنت في استعراضك لكل هذه النتاجات الثقافية تشعر بنفس الروح المفعمة بالعطاء والإبداع والعمق الفكري والثقافي، ولكنك في ذات الوقت تدرك أن أرامكو السعودية لبست لكل زمان لبوسه، وأنها، مع حرصها على أن يستمر عطاؤها الثقافي، حرصت على أن يتطور شكلاً وموضوعاً ليتواءم مع متغيرات العصر التقنية والعلمية والفكرية.

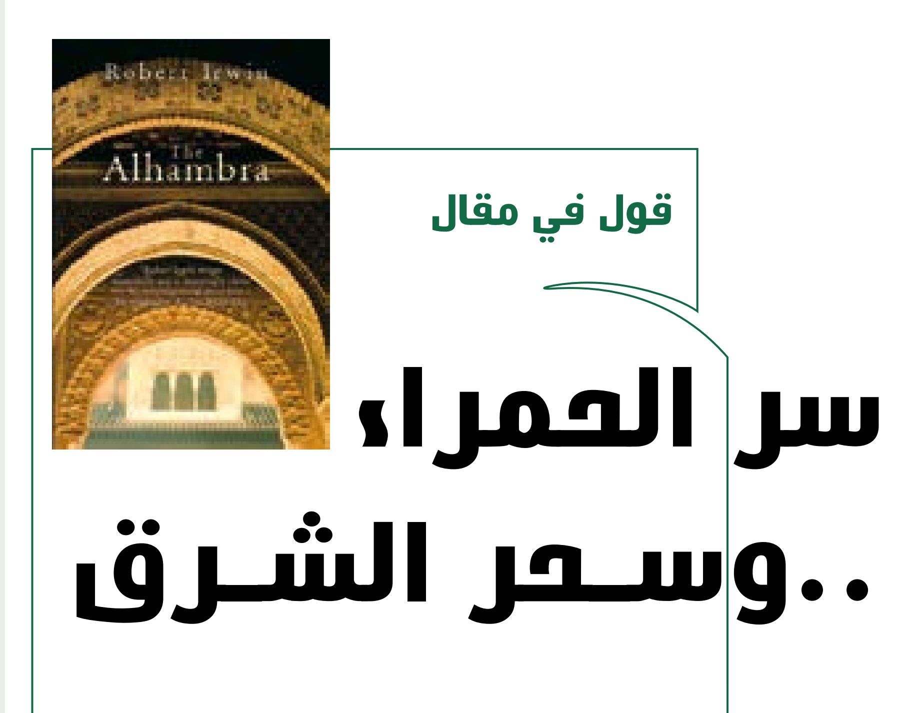
هكذا نرى أن برميل النفط، كما عرفناه في هذه البلد الأمين متمثلاً خير تمثيلٍ في أرامكو السعودية عبر سنواتها السبعين، كان له، في الواقع، حسٌّ ثقافيٌ مفعمٌ أصيل، ينظر إلى الثقافة نظرةً متكاملةً، يتسم بالاستمرارية مع التطور المستمر، يعكس عراقة الأصالة وروح التجديد في آنٍ معاً، ويسعى جاهداً لإحراز التميُّز والحفاظ عليه.

لقد كان بمقدور أرامكو السعودية أن تأخذ الطريق القصيرة اليسيرة فتقول: " إنما أنا هنا لأنقب عن النفط وأنتجه وأحقق للمملكة أفضل العائدات من استثمار ثروتها النفطية، فما لي أنا وللثقافة أو الزراعة أو الصحة أو غيرها" وما كان بيد أحد أن يلومها على أن رغبت في التركيز على مهمتها الأساس. ولكنها لو فعلت هذا لما كانت أرامكو السعودية التي عرفها آباؤنا، وعرفناها نحن من بعدهم، وسيعرفها أبناؤنا من بعدنا بإذن الله.

محمد عبدالحميد طحلاوي

قول في مقال

سر الحمراء وسحر الشرق..



قصر الحمراء ليس مجرد قصر بل قلعة مترامية الأطراف عالية الأسوار تضم عدداً كبيراً من المباني.. لكنك لا تشعر وأنت تغادره أنك زرت قصراً لسلطان أو أمير حرب.. بل مكان بناه صاحبه للتأمل والحلم. على غلاف الكتاب الجديد للمؤلف البريطاني روبرت أروين نقرأ: "إن قصر الحمراء في مبانيه الأساسية لم يصممه مهندسو عمارة وإنما فلاسفة وشعراء".

وأروين المستعرب، صاحب المؤلفات العديدة في التراث العربي والفن الإسلامي، يختم كتابه "الحمراء" بلائحة طويلة من المراجع تناولت هذا القصر، وتبدو حسب شروحاته كتباً أجاد أصحابها في تناول الموضوع تاريخاً وبناء وفناً.. فما الجدوى إذن من كتاب آخر حول الحمراء؟ وهل من تفسير لذلك سوى التحدي الذي لا ينفك قصر الحمراء يطرحه أمام عشاقه، مولداً فيهم شغفاً لا يهدأ وإلحاحاً لا يستكين لمعرفة سر جماله وسحره؟ ورغم استعانته بكل تلك المراجع والأبحاث فإن أروين لم يستطع أن يتوصل إلى دلائل قاطعة جديدة حول تاريخ القصر وبنائه. ويعترف في أكثر من مكان أنه في سعيه إلى رسم صورة واضحة لهذا التاريخ، لم يجد بين يديه كتلة شائكة من الحقائق يفندها ويعيد ترتيبها، بل كتلة شائكة من الافتراضات.

إن أهم ما في بحثه هو العثور في كتابات الفلاسفة والشعراء الأندلسيين، خاصة أولئك الذين كان لهم أثر ومكانة في تلك الحقبة مثل ابن الخطيب، على أقوال تشير إلى صلتهم المباشرة في رسم ملامح القصر. إضافة إلى عدم وجود أي أثر لخرائط معمارية استخدمت في بناء القصور، يمكن الاستدلال بها على ما كان يجول في خاطر المصممين.

إن قصر الحمراء هو القصر العربي الوحيد الباقي لنا، سواء أكان من الأندلس أم من أية حقبة سابقة. وهذه حقيقة معروفة لكنها لا تزال تثير حيرتنا. فأين قصور كل الحقب العربية الأخرى، التي لو بقي أي منها لكان فهم مزايا قصرنا الجميل اليتيم أسهل، علماً بأن المساجد البديعة بقيت تساعد على ذلك بسبب الملامح الرئيسة المشتركة في العمارة الإسلامية. وأقرب هذه المساجد إلى الحمراء بطبيعة الحال مسجد قرطبة ذاته والذي لا يقل فرادة ولا روعة عن القصر.

ويروي الكتاب أن شارل الخامس، أحد ملوك إسبانيا، والذي قاد حملة لمحو آثار الإسلام هناك، كان مولعاً بالعمارة الأندلسية. فحين شاهد كنيسة صغيرة أقحمها الرهبان داخل مسجد قرطبة خاطبهم قائلاً: "لقد بنيتم ما يمكن أن يبنيه أنتم أو سواكم في أي مكان، لكنكم أتلفتم ما هو فريد في العالم". ثم سكن الحمراء مدة مع عروسه لقضاء شهر العسل وقال يوماً وهو يجوب القصر متأملاً: "لو كان هو أنا أو كنت أنا هو (يقصد آخر سلاطين غرناطة) لجعلت من هذا مقبرتي".

من يشاهد قصر الحمراء ولو في الصور الفوتوغرافية يذهب بخياله إلى عصور الأندلس الذهبية، ويرى فيه ذلك الفردوس المفقود حين رغدت الحياة وازدهرت العلوم والفنون على أشكالها واستتب الأمن وعمّ الرخاء!. غير أن هذا القصر عندما بني، لم يكن قد بقي للعرب من الأندلس سوى مقاطعة غرناطة وحدها. وذلك بسبب ما عانته من تفكك وانهيار على أيدي ملوك الطوائف. وقد شيدت مباني القصر الرئيسة في عهدي يوسف الأول ومحمد الخامس من سلاطين الأسرة الناصرية في القرن الرابع عشر. وانتهى بناؤه حوالي عام 1392م، أي قبل مائة عام فقط من السقوط النهائي للأندلس.

وعلى الرغم من بعض الرخاء الذي تمتعت به غرناطة حينها فإنها كانت تعيش حقبة شديدة الاضطراب، مليئة بالانقسامات والمؤامرات. ومحمد الخامس نفسه هرب إلى المغرب لسنين ثم عاد إلى الحكم مرة أخرى. وفي تلك الفترة بالذات كثرت الطرق الدينية وانتشرت تيارات الصوفية وهي التي يرى مؤلف الكتاب أنه كان لها بعض الأثر في صياغة فن العمارة الذي طُبع على الحمراء.

كان أول من التفت إلى قصر الحمراء الروائي الأمريكي، الإنساني الميول، وشنطن اريفنج، الذي عشق الأندلس وكتب عنها، وكان كتابه قصر الحمراء باكورة لعشرات المؤلفات التي تلته. كتب اريفنج عن قصر الحمراء في بداية القرن التاسع عشر، وكان القصر قد تعرض قبلها لضروب من الإهمال والهدم والترميم الاعتباطي، ما جعل معرفة الشكل الأصلي لغالبية أبنيته شبه متعذرة. سلمت من كل هذا بعض قاعاته وباحاته، ومن أهمها قاعة الأسود التي اعتبرت الأكثر تمثيلاً لفن العمارة الأندلسية في الحمراء، خاصة وأنها بنيت دفعة واحدة وبقيت على حالها إلى حد بعيد.

يخلص روبرت أروين في كتابه إلى أن قاعة الأسود هي بإجماع العارفين أجمل بناء في العالم. ويستعرض مجموعة من الأقوال تصل بعضها إلى ذرى مدهشة في تلمسها لخصائص وسمات هذا الجمال. وربما يكون الفاصل الحضاري بين أصحاب تلك الأقوال وجلهم من الغربيين وبين هذا الصرح الشرقي الساحر ما جعلهم يشحذون أحاسيسهم ويستحضرون أمتن أدوات علمهم ليستعينوا بها على اجتياز هذا الفاصل الثقافي والنجاح في سبر أغوار سحر الحمراء!

تنقسم أبلغ هذه الأقوال إلى قسمين، أولها يتوجه إلى تناغم عناصر العمارة في القصر، سواء أكان ذلك بين الأعمدة والقباب والنقوش والممرات والفتحات والبرك والنوافير أو الوحدات الزخرفية أو عناصر النور والظلام والردهات. وثانيها يتجه إلى دراسة النسب الحسابية بين عناصر البناء. فقالوا في الحمراء مثلاً:

- القباب المقرنصة بنيت كي تلتقط الضوء وتعكس نور الشمس والقمر في انتقاله، ذلك النور الذي يصلها من النوافذ السفلية، وهي بذلك تماثل حركة النجوم ودوران السماء. فبناة الحمراء عملوا بالضوء والظل تماماً كما عملوا بالحجر والخشب.
- يستخدم الحمراء تلاعب النور والظلمة من خلال المداخل المقوّسة ومساحات لضوء الشمس في الداخل الظليل وممرات قائمة تطل فجأة على باحات يملؤها نور الشمس، أو ضوء ينعكس في برك ساكنة.
- النقوش الحجرية التي تكاد تبدو عديمة الوزن تتراجع إلى الظلال لتحدث تردداً بصرياً بديعاً. ورغم وفرة النقوش المتداخلة، يبقى لقاعة الأسود إحساساً تقشفياً ما ويشبهها مايكل جاكوبز بحديقة زن اليابانية. وهي حديقة يعتقد أنها تعكس النسب الخالدة في الكون.
- صمم الحمراء أصحاب فكر ونزعة تأملية. إنه جهاز للتفكير. تقوم تصاميم العمارة على نسب هندسية مجردة معقَّدة لدرجة تُذهب العقل.
- تبين النظرة الصحيحة أن الحمراء مثله مثل العديد من الصروح الإسلامية هو تحفة حسابية وفنية في آن معاً.
- على كل مستوى من المستويات بني الحمراء بتعقيد تصعب قراءته. وليس على المرء أن يتملك هذا التعقيد وتفاصيله المتشابكة، بل أن يغرق فيه. وتماماً مثل علماء الرياضيات المعاصرة، فإن عرب القرون الوسطى شغلوا أنفسهم باستكشاف اللانهاية.
- كثيراً ما يوحي تداخل الزخارف النباتية بالأشكال الهندسية والكتابات الخطية بعمق سرابي على الجدران المزخرفة.
- وكما أن الفن يختبئ في كل مكان من الزخرفة، كذلك فإن العلم يجد الكثير من معادلاته في زخم العمل الزخرفي. إن نتائج نظرية الخارطة map theory ونظرية اللعبة game theory ونظرية الفوضى جميعها تكمن في الزخرفة التي تنتظر أن ترفع إلى مستوى العلم!
- تبدو جدران القاعة كأنها تهبط من السماء، وليست واقفة على الأرض التي بنيت عليها.
- تُعنى غالبية أعمال الهندسة المعمارية بحياة النهار.. أما الحمراء فقد بني كي يشاهد في الليل.. بعض أجزائه التي لا تعني شيئاً في النهار كما تبرز في الليل بكامل بهائها. ففي الليل يعود الرخام مشعاً ببياضه الأصلي وتشرق الأعمدة مع أشعة القمر، وتمتلئ القاعات بضياء رقيق، حتى يتحول البناء بأسره إلى قصر ساحر في إحدى روايات ألف ليلة وليلة.

أقوال تنم ليس فقط عن فهم خصوصية جمال الحمراء أو عن ولع وتعلق بالفن المعماري الذي أنتجه، بل أيضاً بروح الحضارة التي كان هذا القصر إحدى ثمارها. وقد وصل هذا بالبعض إلى درجة دفعت الرسام الفرنسي هنري رينيو ليهتف قائلاً: "مقارنة بالفنان الذي صنع هذا (يقصد الحمراء) فنحن برابرة أوباش متوحشون". وهذه شهادة تستوقفنا وتجعلنا نتساءل أيضاً: هل قال أحد في قصر فرساي الفرنسي أو شونرن النمساوي أو حتى فيلا بورجيزي الإيطالية ما قيل في الحمراء وقاعة الأسود؟

من ناحية أخرى لا يجوز أن يغرينا الاعتزاز ونتوقف عند اعتبار ما جاء من أوصاف بليغة لسمات الفن المعمارية في قصر الحمراء سمات للفن العربي والإسلامي وحسب، فهي كخصائص فنية مجردة لا بد أن تؤخذ كمعايير لكل فن معماري بل لكل فن أياً كان على الإطلاق. وحينها فقط يكون لما قيل في القصر والفن الأندلسي قيمة حقيقية، ويكون لتصريح الفنان الفرنسي وغيره مدلولاً علينا "إعادة تدويره" كي نصل إلى فهم أعمق لتراثنا الفني والمعماري ولماهية الفن في أسمى تعبيراته، وألا ننساها ونحن ننظر إلى فنون اليوم، سواء أكان في العمارة أو في غيرها من الفنون الجميلة.

لقد تنبه هؤلاء الذين تناولوا قصر الحمراء إلى أن ما شاهدوه إنما ينبع من النفوس التي تتوق إلى خالقها وترى الجمال في تناغم العناصر التي يغتني بها الخلق وتعترف بشيء من الصدق الرقيق بأن كل شيء سواه إلى زوال. فكل العناصر المعمارية مسخَّره لتعزف لحناً واحداً بانسجام وتناغم تام، يحولها إلى عالم متماسك شديد الوقع رغم رهافته، ويلقي بظلاله على كل زائر.

والقولُ بإن الذين بنوا الحمراء استخدموا النور والظلمة بقدر ما استخدموا الأحجار والأخشاب وإن القصر له جمال في الليل غير جماله في النهار، وإن القباب مصممة انسجاماً مع شروق نور الشمس ونور القمر.. جميعها إشارات إلى عناصر راسخة في مخيلة الشرق حيث لليل مكانة قائمة بذاتها ومستقلة عن النهار. وما لا يمكن إغفاله في قصر الحمراء هو الروح الشفافة التي صنعت هذا الصرح البديع. صرح تبدو فيه الأحجار المنقوشة "بلا وزن" تتراجع إلى الظلال لتخلق تردداً بصرياً بديعاً، وحيث تبدو الجدران وكأنها تنزل من السماء ولا تقوم على الأرض التي بنيت عليها وحيث كثافة النقوش والزخارف تعطيك إحساساً "بعمق سرابي" تستطيع نفسك أن تغرق فيه. وحيث انعكاس الماء ورقَّة الزخارف توحي لك بأن ما تراه من وجود لا يدوم.

إن من يملأ حجارة المقرنصات بالنقوش ويجعلها خافتة الوقع خفيفة الوزن، ومن يملأ الجدران بالزخارف المتداخلة فتتحول إلى أسطح ذات أعماق تستقبل النظرة المتأملة. ومن يجعل الاثنين رغم زخرفتها الطاغية يحافظان على طابع تقشفي للمكان، إنما يعكس خصوصية عميقة في الحضارة العربية وفنونها. خصوصية تبدأ أساساً بالمظهر الخارجي المتقشف لقصر الحمراء، تكفي وحدها لشرح اختلاف هذا الفن عن فنون القارة التي أقيم فيها، وربما يعطينا هذا تفسيراً آخر للسحر الذي يلقيه قصرنا في الحمراء بظلاله على تلك الربوع.

كميل حوا

ندوة القافلة تُناقش ثقافة الحوار..

من يعرف أكثر يُحاور أفضل

كيف تُبنى ثقافة الحوار؟ من يبنيها ومن يتعهدها بالسقاية والرعاية حتى تؤتي أكلها على صعيد المجتمع والوطن ككل؟ ما هي منطلقات الحوار الذي نبتغيه وإلى أين سنصل معه. وكيف نضمن، من خلال الحوار، أن نلتقي على المصلحة العامة التي ينتفع بمعطياتها ونتائجها الجميع؟ القافلة اختارت "ثقافة الحوار" عنواناً لندوتها الثانية ضمن خطها التحريري الجديد، واستضافت لهذا الغرض عدداً من قادة الرأي الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع، الكبير الأهمية والكثير الحساسية، من خلال الأسئلة والأجوبة التالية..

المشاركون في الندوة

- د. أمل الطعيمي: أستاذ مساعد بكليات البنات بالدمام ومديرة تحرير جريدة اليوم.
- الأستاذ حسن السبع: كاتب وشاعر.
- الأستاذ سلطان البازعي: مستشار إعلامي، رئيس تحرير صحيفة اليوم سابقاً.
- د. ليلى زعزوع: كاتبة وأستاذ مشارك بجامعة الملك عبدالعزيز.
- د. مبارك الخالدي: أستاذ مساعد بجامعة الملك فيصل، مشرف القسم الثقافي بصحيفة اليوم.
- من القافلة: محمد العصيمي، عبّود عطية، حبيب محمود

■ **القافلة: نود، في مستهل هذه الندوة الصحفية، أن نشكر الجميع على مشاركتهم في النقاش عن ثقافة الحوار، ونشكر، بشكل خاص، أولئك الذين تجشموا عناء السفر من الرياض وجدة ليسهموا بآرائهم في هذا الموضوع. إن الأمر الذي يتبادر إلى الذهن هو وضع تعريف للحوار، أو تحديد مفهوم له. الحوار كحوار وكممارسة إنسانية، كيف نفهمه أو كيف نتداوله؟ لنبدأ من عند الأستاذ سلطان البازعي..**

■ **سلطان البازعي:** شكراً أولاً، بالإنابة عن الجميع، على هذا الترحيب الحار بنا، وثانياً أرى أن الحوار هو البديل المنطقي الحضاري للصدام بين طرفين، ومفهومه الأساس هو القبول بأحقية الآخر في الاختلاف، وأحقيته في أن يكون له رأيه المستقل الذي لا يُفرض عليه من طرف آخر. وكمجتمع؛ يبدو لي أننا لم نخرج، بعدُ، من مجتمع السلطة الأبوية المفروضة على المجتمع: سلطة الأب في المنزل، سلطة المدرسة. وكل صاحب سلطة يفرضها على آخرين من دون أن يتيح لهم فرصة إبداء وجهة نظرهم. وقليل منا من يتيح لنفسه فرصة الإصغاء إلى صوت أبنائه وآرائهم حتى في قضايا المنزل المشتركة. وما يحدث هو أن الأب يفرض سلطته ذات الاتجاه الرأسي.

هذا، في نظري، يدعونا إلى الاعتراف بوجود نقص في إمكاناتنا الحوارية، وهذا النقص قد يقودنا إلى حالة من الاحتقان. والتوجه الذي ننشده جميعاً هو ذلك التوجه الذي بدأت ملامحه في إرساء مبدأ الحوار الوطني. وكون هذا التوجه صادراً من قبل أعلى سلطة في البلاد فإنه يكشف عن حرص القيادة على أن النسيج المتكامل للوطن هو نتاج اختلاف وتحاور بنّاء. وهو ما يفرض - بدوره - علينا أن نؤسس لهذه الثقافة في دواخلنا جميعاً، منطلقين من البيوت والمدارس، وعلاقاتنا بجيراننا ورؤسائنا ومرؤوسينا.. بل يجب أن تُبنى شبكة علاقاتنا الاجتماعية على فهم أن العلاقة الإنسانية هي طريق ذو اتجاهين يتقابلان: الرأي والرأي المقابل. ومجتمعنا يمر بمرحلة تحوّل كبير، ومسؤوليتنا هي أن نساند هذا التوجه، حتى يعبر هذا المخاض بسلام وبأقل قدر ممكن من الخسائر.

■ **د. مبارك الخالدي:** في هذا المحور، محور المفهوم العام للحوار أرى أن مبدأ الاعتراف بالآخر يتصل به مبدأ لا يقل أهمية، هو مبدأ حق الآخر في امتلاك جزء من الحقيقة. بمعنى أن الحقيقة هي أشبه ما تكون بفيل أفلاطون. فيل أفلاطون يعيش في غرفة مظلمة، وحول هذا الفيل مجموعة من الناس، هذا يمسك بخرطومه، وذاك يمسك بقدمه، وآخر بجزء آخر من جسد الفيل، والمعنى هو أن الجميع يتشاركون في الإمساك بأجزاء من هذه الحقيقة/ الفيل، ويعرّفها من مفهومه ووعيه في مناخ لا تنقصه الحرية.

■ **حسن السبع:** سأبدأ إجابتي من المنطلق الذي بدأ منه الأستاذ البازعي، وسأروي قصة صادفتني. فذات يوم لمحتُ في ظهر سيارة تقف أمامي ملصقاً طُبعت عليه عبارة بالإنجليزية مؤداها: "أنا أحب الرز!!". وبطبيعة الأمر فإن هذا النوع من التعبير يصنع ابتسامة، أو استظرافاً، لأن الموضوع - ببساطة - لا يعبر عن أكثر من رغبة. ولكن الأمر يختلف، تماماً، لو كان مُعبّراً عن فكرة. وما يعرفه البشر عن تاريخ أفكارهم هو أنه تاريخ ملطّخ بالعنف وبالدماء، منذ سُقراط حتى تاريخنا الحديث. ومرجع هذا التصارع هو الاختلاف في فهم الحقيقة. ولا توجد حقيقة مطلقة. البشر مجموعة من الحقائق الخاصة، فأنت لك حقيقتك وأنا لي حقيقتي. وقربنا - أو بُعدنا - من الحقيقة يعتمد على تجاربنا، ثقافتنا، وبيئتنا.. إلخ.

والمشكلة الأزلية، إذا أذنتم لي بالاستطراد، هي في وجود لغتين في كل حوار غير موضوعي: لغة لك، ولغة لي. أنا لا أسمع إلا لغتي، وأنت لا تسمع إلا لغتك..! ومشكلة الحوار، أيضاً، أننا لا نقدم أفكارنا كما يقدّم الطبيب "الكبسولة" الحلوة المحشوّة بالدواء المرّ..! وقلة المعرفة مشكلة من مشاكل الحوار. "من يعرفْ كثيراً يغفرْ كثيراً".. هذه الحكمة ليست محصورة في معرفة اللغة، كما أراد قائلها الأخفش، بل هي حكمة شاملة. وحين نتتبع تاريخ الأفكار والمفكرين فإننا سنعثر على ما يتسم به العباقرة الذين يعرفون كثيراً ويغفرون كثيراً ويستوعبون الآخرين ويحتضنون العالم كله، لأنهم عرفوا أن سرّ جمال هذا العالم يكمن في تعدده وتنوّعه. ولو أراد اللّه، سبحانه، أن يخلق العالم كله على شاكلة واحدة لفعل، ولكنه، سبحانه، خلقه بهذا التنوع وبهذا الجمال.

يدي في يد الآخر

■ **القافلة: الدكتورة أمل الطعيمي، هل لديك إضافة في هذا المحور المبدئي في ظل متابعتك كصحفية لتجربة الحوار الدائر في بلدنا؟**

■ **د. أمل الطعيمي:** من المهم الإشادة بالتجربة التي بدأ مجتمعنا يشهد انطلاقتها. وجلسات الحوار الوطني التي تمت كانت تأسيساً، ونحن، كمجتمع ينقصنا الكثير حتى ندخل من بوّابة الحوار الذي نتوخى منه نتائج كثيرة. وكما أشار الأستاذ البازعي، فإن انعدام

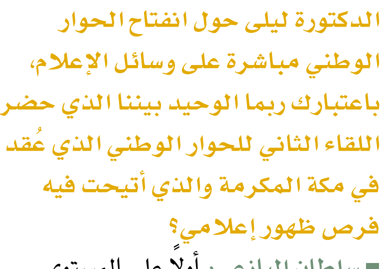
سلطان البازعي:
قليل منّا من يُصغي إلى صوت أبنائه
أنا شاهد على ما سجله الحوار الوطني من صراحة ومسؤولية عالية
نحن بهذه المساحة الجغرافية العريضة نملك قوة إضافية هي التنوع والتعدد

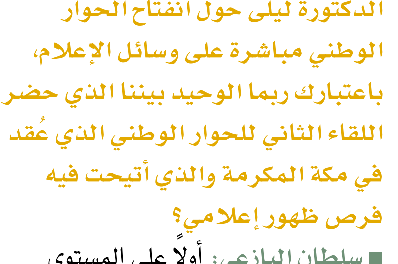
الحوار الجدي والموضوعي يهيئ لحالات من الاحتقان، وهذا ما أدركته السلطة العليا في البلاد، فأمّنت إمكانيات التحاور بين فئات المجتمع وشرائحه على مستوى رموز من كل فئة وشريحة. ولكي يؤتي الحوار الوطني ثماره، على مستوى الممارسة اليومية، فلا بدّ من تأهيلنا جميعاً لهذا المشروع المستقبلي، فمعظمنا يفتقر لأسس الحوار، وأياً كانت الاختلافات فإنه يفترض أن أضع يدي في يد الآخر ونبحث معاً عن الحقيقة.

■ الدكتورة ليلى زعزوع: أعتقد بأن وجود فعاليات الحوار الراهنة يُملي علينا، أيضاً، واجب التفاعل مع مسؤوليتنا الذاتية، فننطلق من طبيعتنا البشرية القائمة، أصلاً، على الاختلاف. وجلسات الحوار الوطني تساعدنا في تأسيس العديد من المفاهيم التي يترتب عليها الكثير من الخطوات المستقبلية البنّاءة، وكنتُ أتمنى لو أن الفرصة أتيحت لوسائل الإعلام لعرض جلسات الحوار على الهواء مباشرة ليكون المجتمع متفاعلاً معها. وبما أننا نعيش مرحلة تحوّل فإنه لا بدّ من تسخير طاقاتنا لجعل المستقبل أفضل، خاصة وأن هناك العديد من القنوات التي تساعد في بلورة التفاعل الإيجابي بين أفراد المجتمع، كالإنترنت والصحافة والفضائيات، فضلاً عن الفعاليات العلمية والمؤتمرات وغير ذلك.

تهيئة المجتمع أولاً

■ القافلة: ما رأيك أستاذ سلطان بما طرحته الدكتورة ليلى حول انفتاح الحوار الوطني مباشرة على وسائل الإعلام، باعتبارك ربما الوحيد بيننا الذي حضر اللقاء الثاني للحوار الوطني الذي عُقد في مكة المكرمة والذي أتيحت فيه فرص ظهور إعلامي؟





■ سلطان البازعي: أولاً على المستوى الشخصي سعدتُ كثيراً باقترابي من تجربة الحوار الوطني في الجلسة الثانية التي عُقدت في مكة المكرمة. وأعتبر نفسي شاهداً على ما سجله الحوار من صراحة ومسؤولية عالية اتسم بها المتحاورون. وأعتقد بأن عقد جلسات الحوار بعيداً عن وسائل الإعلام، في هذه المرحلة، أمر مهم وضروري. ومن المهم أن يُعدّ المجتمع لتلقي مثل هذه الحوارات بالتدريج. وهذا ما يُلاحظ على فعاليات الحوار الوطني، فقد أُنجزت الجلسات الأولى في مدينة الرياض، من دون حضور إعلامي مؤثر قياساً بالحضور الذي حققه في الجلسات الثانية، التي عُقدت في مكة المكرمة. ففي الجلسات الأخيرة كان الإعلام حاضراً، وبقوة، في المؤتمرات الصحافية اليومية التي بُثت على الهواء مباشرة، وطرح المشاركون في الجلسات عروضاً لأوراقهم بدرجة عالية من الشفافية والوضوح، وهي سابقة في تاريخ الإعلام السعودي، ونجاح يُسجل للحوار الوطني.

أثر موروثاتنا في عملية الحوار

■ القافلة: إذا انتقلنا إلى محور آخر من محاور هذه الندوة، وهو تأثير موروثنا الديني والاجتماعي في عملية الحوار، كيف يمكن لنا النظر إلى هذا الموروث المليء بالحقائق والشواهد التي أتت لصالح الحوار. لنبدأ في التعليق على هذا المحور من الدكتورة ليلى زعزوع؟

■ د. ليلى زعزوع: في هذا المجال أستطيع أن أقول باختصار، إن القرآن الكريم والسنة النبوية يسجّلان الكثير الكثير من مستويات الحوار، فهناك الحوار مع الذات، وهناك حوار المسلم مع المسلم، وحوار المسلم مع أهل الديانات السماوية الأخرى، وهناك الحوار مع المشركين. ولا ننسى حوار الخالق، عزّ وجلّ، مع أنبيائه، عليهم السلام. وفي كل هذه المستويات، من الحوار، نقف على مبادىء أساسية للتشريع الإسلامي بكل أبعاده.

■ القافلة: هل لدى الدكتورة أمل الطعيمي تعليق في هذا الجانب؟

■ الدكتورة أمل الطعيمي: نعم. أستطيع أن أقول إننا نعيش تراجعاً كبيراً عن الأسس التي أرسى قواعدها ديننا نفسه. وهي قواعد تشكلت في الممارسة العملية التي عبّر عنها الرسول (صلّى الله عليه وسلم) في حواره ودعوته إلى الدين، بدءاً من المرحلة السرية للدعوة، وانتهاءً بالإجراءات الرسمية، إذا صحّ التعبير، التي اتخذتها الدولة الإسلامية بعد نضوجها في الدعوة والتحاور مع الآخرين. القرآن الكريم رصد العديد من الإشارات والقواعد في ممارسة الحوار، ويمكننا الاستشهاد ببعضها: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** آل عمران: 64، **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** الحجرات: 13، **﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** النحل: 125

د. أمل الطعيمي:
لا بد أن نتأهل للحوار الوطني كمشروع مستقبلي
هل كل متعلم مثقف وهل كل مثقف واعٍ؟

حتى في أشد حالات الرفض، كما حدث مع فرعون، يؤكد القرآن الكريم قيمة الموضوعية واحترام الآخر والرقي في الحوار معه: **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾** طه: 43 - 44

وحين نحاول ربط هذه الأسس القرآنية بما يحدث في مجتمعنا؛ فإننا نكتشف ما يمكن أن يكون حالة قطيعة بين الأسس والتطبيق. الموروث الاجتماعي يقوم على أساس ممارسة السلطة، واستخدام فعل الأمر: الزوج مع زوجته، والأب مع أبنائه، والرئيس مع مرؤوسه من دون أن يكون هناك هامش حقيقي للحوار. في حين يقدم لنا عهد النبوة العديد من قيم الحوار، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) كان على تحاور مستمر مع أصحابه في أمور لا يمكننا حصرها هنا، ناهيك عن تحاوره مع زوجاته وأهل بيته.



حوار، جدال، مماحكة..!

■ القافلة: لكن في ظل هذا الموروث الديني وحتى الاجتماعي الذي يصبّ في صالح عملية الحوار، كيف يمكن النظر إلى شروط الحوار أو كيف نضع صفة أو مجموعة صفات للمتحاور لنصل إلى توفير شروط الحوار الفعّال والمنتج؟

■ حسن السبع: المحاور المنصف يدخل الحوار مقتنعاً بالقاعدة القائلة: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب". هذا مبدأ من مبادىء البحث عن الحقيقة، يتعارض معه مبدأ الدخول في الحوار من أجل الجدل، أو المماحكة. وللإمام علي (كرم الله وجهه) كلمة رائعة في هذه الجزئية، يقول فيها: "ما جادلتُ عالماً إلا وغلبته، ولا جاهلاً إلا وغلبني"، والهزيمة، هنا، ليست نتيجة ضعف في الحجة، ولكن لليأس من قابلية الآخر في التعاطي مع طرحك إلا من خلال إصراره على المجادلة والمماحكة وتصور امتلاك الحقيقة المطلقة. فالمحاور المنصف يمتلك قدرة على الإصغاء، والصبر، والهدوء، بدلاً من اتباعه وسائل المقاطعة، أو التشويش على الآخر. الإصغاء من أجل الحقيقة، وليس من أجل إعداد النقض وإثبات احتكار الحقيقة.

■ سلطان البازعي: في هذا الجانب أرى أن الأسلوب الموضوعي هو أن أدخل الحوار بانفتاح ورغبة في الوصول إلى الحقيقة، وليس الرغبة في تحويل الطرف الآخر إلى حقيقتي أنا.

■ الدكتورة ليلى زعزوع: الحوار طبيعة بشرية، ولا يمكن لبشر أن يعيشوا في مجتمع واحد من دون أن تدور بينهم العلاقة اللغوية التي من بينها الحوار والنقاش. ومن هنا ينشأ الاختلاف. وحين يتصل الاختلاف بالقيم والأفكار والسلوك؛ فإن عيوب الحوار تظهر في مفردات كثيرة مرّ ببعضها الأخوة المتحاورون هنا. ومن وجهة نظري هناك مشكلة جدية أيضاً، هي التركيز على السلبيات، والتقليل من كل المزايا والإيجابيات. وعلى سبيل المثال هناك قضايا المرأة التي يضج الحوار فيها حول السلبي على حساب الإيجابي. وهناك مشكلة التسطيح الذي تحمل بعض فضائياتنا لواءه في البث اليومي، لنشاهد - على الهواء - محاورات لا يمكن احترامها أو الوثوق بها.

الفرد بلسان الجميع..!

■ القافلة: دكتور مبارك، هل ترى أن هناك إشكالية في توفير الشروط الأمثل للحوار، أي حوار؟!

■ د. مبارك الخالدي: قد يكون من إشكاليات الحوار تحدُّث الفرد بصيغة الجمع، كأن يتحدث زيد عن شريحة اجتماعية قد لا تكون متفقة تماماً مع الطرح الذي يقدمه، وهذا ما يجعل من الانتقائية وسيلة لاختيار المتحاورين.

■ سلطان البازعي: لدي تعليق على هذه النقطة، من وجهة نظري، أرى أن أمام مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني مهمة رئيسة هي التأسيس للحوار الوطني، من خلال استقطاب الشرائح الاجتماعية المختلفة للتحاور الأولي حول قضايا رئيسة مُختلف فيها. ولكل فئة مجموعة تمثلها، إذ لا يمكن فتح باب الحوار في حشد بشري مفتوح على طريقة جمهور كرة القدم. والمقارنة بين اللقاءين، لقاء الرياض ولقاء مكة المكرمة، تفيد بأن وجوه المشاركين قد



حسن السبع:

البشر مجموعة من الحقائق الخاصة، فأنت لك حقيقتك وأنا لي حقيقتي

مادة "التربية الوطنية" اعتنت بثقافة الحوار

تغيرت، وهذا التغيُّر استهدف العمل على مشاركة أكثر الشخصيات تمثيلاً لفئاتها، وفي الوقت نفسه، التأسيس للفكرة في المجتمع، ثم التوسع التدريجي الذي يكرّس مبادىء الحوار ويُنضج تجربته.

المرأة.. موضوع للحوار

■ **القافلة: المرأة كموضوع من موضوعات الحوار أينما كان.. هل تشكّل تحدياً أمام المتحاورين في رأيكم؟**

■ د. ليلى زعزوع: المرأة السعودية موجودة وفاعلة في مجتمعها منذ عقود طويلة، ولها أثر في برامج التنمية البشرية، حيث شغلت العديد من الوظائف الحيوية في الطب والتعليم، ناهيك عن الأنشطة التجارية المتنوعة. ومن وجهة نظري أرى أن هناك مشكلة تعانيها المرأة في محافل الحوار. هذه المشكلة هي تكرار الوجوه. ونلاحظ ذلك بوضوح في العديد من الفعاليات التي يتم التركيز فيها على عدد معروف من الشخصيات النسائية ليمثلن بقية نساء المملكة. وهذا ما لا أتمناه لفعاليات الحوار الوطني في لقائه الثالث.

■ سلطان البازعي: من المؤكد أن موضوع المرأة يشكل واحداً من تحديات الحوار الوطني، خاصة أن اللقاء الثالث سوف يدور حول محور المرأة. وأمامنا كمجتمع مصدران للتعاطي مع هذا الموضوع: أحدهما ديني، والآخر اجتماعي. ومن الواضح أن ديننا الإسلامي فيه الكثير من الضوابط فيما يتعلق بحق المرأة، وبالمقابل لا ننكر أن هناك تحفظات اجتماعية. لكن ذلك لا ينفي أن يتحاور المجتمع في موضوع المرأة على النحو الذي يؤسس حلولاً سليمة للعديد من الإشكاليات. فضلاً عن ذلك سيكون حضور المرأة، في اللقاء الثالث، أكثر كثافة من حضورها في اللقاءين السابقين، وبالتالي سيكون الأمر أكثر وضوحاً وشفافية وإعلاناً عن الاحتياجات الجدية المتصلة بهذه القضية، خاصة من قبل شريحة النساء اللواتي يشكلن وزناً واضحاً في القوى البشرية.

■ د. أمل الطعيمي: لا أرى أن مردّ مشكلة "النخبوية" وتكرار الوجوه هو الجهة التي تختار أو المؤسسة التي ترشّح، بل في الكثيرات اللاتي يفتقرن إلى الثقة في أنفسهن. ولديّ من تجاربي الشخصية ما يؤكد وجهة نظري هذه. ففي العديد من الفعاليات الخاصة بكليات البنات- مثلاً- أرى "أمل الطعيمي" حاضرة بوضوح، في حين هناك المئات اللائي يمتلكن إمكانيات



وقدرات علمية وثقافية تفوق إمكانيات وقدرات "أمل الطعيمي"، ولكن هناك ما يقف حائلاً دون خروجهن عن إطار العمل الأكاديمي المحدد.

قواسم مشتركة

■ **القافلة: في محور مهم آخر، كيف، في رأيكم، يُفترض أن نتعامل مع القواسم المشتركة التي تجمعنا على حساب ما قد يثير خلافاتنا أو اختلافاتنا إذا صحّ هذا التعبير؟**

■ سلطان البازعي: أعتقد أن من المهمّ أن يعرف الآخرون أننا- كأي مجتمع إنساني- لدينا نقاط قوة، ونقاط ضعف، لدينا آراؤنا المتعددة المختلفة، ولسنا نسيجاً واحداً بالمفهوم الذي أخطأ إعلامنا في تكريسه، فصوّر تجانسنا الوطني على أننا بلا أخطاء وبلا اختلافات. لا شك في أننا نجتمع على قواسم الدين واللغة والمواطنة. غير أننا يجب أن نعي أننا نعيش في إقليم سياسي واحد. ويعود الفضل إلى تكوّن هذا الإقليم إلى دور المؤسس جلالة الملك عبدالعزيز، رحمه الله، الذي جمع شتات مجموعة من الأقاليم تحت علم واحد. نحن بهذه المساحة الجغرافية العريضة، وبهذا العدد المهم من السكان؛ نمتلك قوة إضافية هي قوة التنوع والتعدد. المواطنون السعوديون ليسوا متشابهين في كل شيء، بل لديهم تعدد ثقافي ومذهبي وفكري، يصنع منهم قوة وطنية واحدة.

■ د. مبارك الخالدي: أنا أؤكد على أن لدينا مجموعة من القواسم المشتركة، وفي مقدمتها الدين والوطن، وهي – بلا شك – تتفرع إلى قواسم ومنطلقات واحدة، في الوقت الذي لا يمكن إلغاء هذه القواسم بسبب وجود اختلافات في البيئة الثقافية أو الفكرية أو الاجتماعية.

■ حسن السبع: دعوني أستشهد مرة أخرى بكلمة شهيرة للإمام علي (كرم الله وجهه) حيث يقول: "الناس إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق". هذا يعني أن القواسم المشتركة بين البشر

د. مبارك الخالدي:

الحقيقة أشبه ما تكون بفيل أفلاطون.. كل يمسك بجزء منه

لدينا مجموعة من القواسم المشتركة، في مقدمتها الدين والوطن

د. ليلى زعزوع:

طبيعتنا البشرية قائمة أصلاً على الاختلاف

يضج الحوار في قضايا المرأة حول السلبي على حساب الإيجابي

قائمة على "أخوة الدين" أو "التناظر الخلقي"، فإذا أضيفت المواطنة واللغة إلى القواسم فمن الأولى، إذن، أن يكون التحاور أكثر حرصاً على التقارب.

■ د. ليلى زعزوع: التنوع الجغرافي للوحدات الإقليمية أعطى ثراءً للحوار الوطني، حيث ظهرت شخصية كل منطقة بتكويناتها الثقافية والاجتماعية، لتكوّن، عبر اختلافاتها، وحدة سياسية واحدة، مهما اختلفت المشارب.

■ د. أمل الطعيمي: في هذا المجال سأستشهد بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة: 48. إننا نُختبر في وسيلة اتصالنا بعضنا ببعض، وتحاورنا، واعترافنا بأن الاختلاف سيظل موجوداً، وقبولنا الآخرين على اختلافنا معهم، وهذه ركيزة من ركائز الحوار.

تطوير إمكانياتنا الحوارية

■ **القافلة: لعلنا من خلال ما سبق من حديث في هذه الندوة نصل قبل نهاية هذا الحوار إلى سؤال مهم هو: كيف يمكن لنا، كمجتمع بكل مؤسساته وجماعاته وأفراده، أن نطوّر إمكاناتنا في الحوار لنكسب من هذا الحوار ما فيه صالحنا وصالح مستقبلنا؟**

■ حسن السبع: أنا سأستشهد هنا بمادة "التربية الوطنية" التي اعتنت بثقافة الحوار.. هناك عناوين مهمة حول الحوار ومبادئه وأخلاقياته في مناهج التربية الوطنية. وهذا يعني أن المؤسسات التربوية لدينا منتبهة إلى هذه الممارسة الحضارية. ولكن هناك العديد من التساؤلات الخاصة بواقع الحوار في حياتنا اليومية، ودور المنزل، وعلاقة المنزل بالمدرسة والمجتمع. وعلاقة كل ذلك بالتطبيق والممارسة من قبل الأب والأم والأخ الأكبر، والمعلم، ومدير المدرسة.. فهل يتم التحاور والنقاش بين هذه الأطراف عبر المبادىء والأخلاقيات التي يُقرّها المنهج الدراسي..؟

■ سلطان البازعي: يتبادر إلى ذهني بعض مفردات التغيير التي يُمكن أن تُفيد من الفعل الحواري بين أفراد المجتمع، مثل: الفكرة التي بدأتها وزارة التربية والتعليم عبر إنشاء مجالس المدارس، ومن شأن هذه الفكرة أن تؤسس لثقافة الحوار في المؤسسات التربوية، فضلاً عن كونها نقلة جديرة بالملاحظة لفكرة عريف الفصل الذي يمثل السلطة المطلقة. فالطالب الذي يستطيع اختيار عريف فصله عن قناعة، سيكون صالحاً في المجتمع. يُضاف إلى ذلك عودة نظام الانتخابات في الجامعات، نشوء مؤسسات المجتمع المدني، هيئة الصحافيين. من هنا نؤسس ونطور أدواتنا.

دور النخبة الثقافية

■ **القافلة: ربما أثقلنا عليكم بأسئلتنا، لكن هذا هو سؤالنا الأخير. ماذا تتوقعون من النخب الثقافية التي يتم الالتفات إليها والبحث عنها كلّما دارت مسألة من مسائل الحوار وثقافته والوعي به؟**

■ حسن السبع: قبل انتشار إمكانيات الاتصال كنا نقرأ الكُتّاب والأدباء والمثقفين، ونطالعهم بنظرات مثالية، فلما جاءت الفضائيات والإنترنت انكشف المغطّى، وصرنا نراهم بكل ألوان الطيف، وصارت مواقفهم من قضايانا تصدمنا. ولكن هذا لا يعفينا من التنبيه إلى ما على المثقف من دور في هذا السياق. وحتى يكون دور المثقف المحلي مؤثراً؛ فإنه يعتمد على الوعي السياسي والاجتماعي، وهو وعي يعني، في حقيقته، تلك الحكمة القائلة: "أعطني أذُناً أعطكَ صوتاً". ودور المثقف الذي يسعى إلى التغيير الإيجابي هو أن يرسل صوته إلى أصحاب القرار بمسؤولية.

■ د. مبارك الخالدي: في كل أزمة يُشار بالبنان إلى المثقف ويقفز السؤال: "أين دوره؟"، في حين أن الحقيقة تؤكد أن المثقف ليس صاحب القرار. وحتى يكون للمثقف دور يجب أن يكون للأفراد في المجتمع دورهم أيضاً.

■ د. أمل الطعيمي: لدينا مثقفون، ولدينا متعلمون. ولكن هل كل متعلم مثقف؟ وهل كل مثقف واع..؟ في هذه المسألة أشعر بأننا بحاجة إلى ميزان حسّاس جداً والكثير من الحكمة والتروّي.

■ سلطان البازعي: المشكلة هي في تعريف المثقف، ولكنني أصادق على توصيف الأستاذ حسن السبع، للمُحاور الإيجابي، وهو ذلك العالم الأكثر تسامحاً والأكثر قرباً من هموم المجتمع. نحن نشاهد أحياناً مثقفين يدّعون الوصاية على المجتمع ويعتبرون أنفسهم ذوي أفكار يجب أن تفرض على أفراده. وهذه الفئة لا يمكن أن تؤثر في الناس على نحو إيجابي.



ربوع الحياة في الربع الخالي

الربع الخالي الغالي.. موضوع استطلاع فاز بالجائزة الأولى في مسابقة القافلة الذهبية، حيث استبطن فيه كاتبه **أحمد إبراهيم البوق**، الباحث في المركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية، أعماق هذه المنطقة التي ظلت حبيسة أساطيرها، ثم كشفت عن نفسها شيئاً فشيئاً.

غياب الحياة يستدعي الحياة أكثر، يجعلها أكثر إلحاحاً، فحين تسير في بحر الرمال هذا - بأية وسيلة تختارها حتى وإن كانت طائرة صغيرة - فقد يخطر في ذهنك أمام هذا الفضاء السرمدي أن لا شيء وراء هذه الرمال سوى المزيد من الرمال.. يتدرج لونها كلما اتجهت من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من الأرجواني إلى الأصفر فالأبيض، وباستثناء بقع خضراء صغيرة متناثرة بين الشقائق والرمال لنباتات قاومت شحّ الحياة لتعلن عن وجودها، فإن السماء صافية الزرقة لدرجة قد تجهش فيها بالبكاء، لا لأن الدموع تستدعي المطر في صحراء قاحلة هي أحوج ما تكون إليها، ولكن لأن شواهد الحياة التي أعلنت عن نفسها في هذا التيه تستحق الحياة أكثر، فحيث تندر فرص الحياة تتشبث الحياة بجذورها لتحيا أعمق، ألم يقل الروائي البرازيلي الشهير باولو كويلهو: "إن الشعور بالموت يدفعنا للعيش أكثر".

سلوك الاستظلال للمها العربي تحت احدى السمرات وتلاحظ اجهزة المتابعة عن بعد

فما هو الربع الخالي؟

الربع الخالي أكبر صحراء رملية في العالم، يقع بالكامل في شبه الجزيرة العربية وتزيد مساحته على مساحة فرنسا إذ يمتد على مساحة تزيد على 600 ألف كم^2، بطول يقارب 1200 كم وعرض يقارب 640 كم، وهو يغطي المساحة ما بين الإمارات العربية المتحدة وسفوح جبال اليمن، ومن هضبة حضرموت جنوباً حتى رمال الجافورة ورمال الدهناء شمالاً. ويقع معظمه في المملكة العربية السعودية.

واسم الربع الخالي قديم ورد في كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن ماجد في عام 895هـ، وحدد ابن ماجد الربع الخالي بأنه على مشارف مأرب والجوف، على عكس الاعتقاد الشائع بأنه ترجمة عن كتابات الأوروبيين الذين سموه The empty Quarter لأنه يشغل ربع مساحة شبه الجزيرة العربية تقريباً. ومن أسماء أجزائه القديمة: رمال يبرين (جبرين) في الشرق والأحقاف في الجنوب ووبَار في الغرب، أما أسماء أجزائه الحديثة فكثيرة ومنها عروق بني معارض في الشمال الغربي منه. وينقسم الربع الخالي من حيث الكثبان الرملية إلى ثلاث مناطق رئيسة:

1- شمال شرق (العروق المعترضة) وتتميز بالكثبان الهلالية الشكل.
2- الحواف الشرقية والجنوبية وتتميز بالكثبان نجمية الشكل.
3- أما النصف الغربي فيتكون من كثبان طولية تظهر بوضوح كعروق من الرمل حتى التقائها بجبال طويق (العارض).

وتمتد هذه العروق الرملية في الربع الخالي لمئات الكيلومترات طولاً وهي الأضخم، إذ يصل متوسط عرضها إلى حوالي خمسة كيلومترات والمسافة ما بين كل عرق من الرمل وآخر حوالي ثلاثة كيلومترات. وتأخذ العروق غرب الربع الخالي أسماء محلية تنسب عادة لاسم من يقطنها من القبائل أو إلى شكل العرق وبيئته. وفي جزء من هذه العروق تقع محمية عروق بني معارض شرق جبال طويق (العارض) كما أن للشقائق بين العروق أسماء محددة تتميز بها محمية عروق بني معارض ويسبق التسمية لفظة (شِقّة). ورغم أن بحر الرمال في الربع الخالي تحده من ثلاث جوانب –تقريباً– مناطق تضاريسية أكثر ارتفاعاً، إلا أنه يقع على سهل طمي منخفض ينحدر في اتجاه الشمال الشرقي والشرق بمعدل متر في الكيلومتر إلى أن يصل إلى سواحل الخليج العربي. وتعد هذه الرمال في المملكة العربية السعودية وامتدادها في الدول الأخرى السمة الجغرافية الطبيعة البارزة التي حدثت نتيجة لفترات الجفاف والرطوبة في العصور الجيولوجية القديمة.

من أين جاء بحر الرمال وكيف تكوّن؟

يمتد نطاق الأراضي الجافة بدرجاتها المختلفة في المناطق المدارية بين درجتي عرض 30 درجة شمالاً وجنوباً وتقدر بـ 37.3% من سطح الأرض. وهناك 18 دولة تقع أراضيها جميعاً في حيز الأراضي الجافة منها المملكة العربية السعودية ومصر وموريتانيا و49 دولة يقع جزء منها في الأراضي الجافة. وتظهر صور الأقمار الصناعية للعالم العربي الذي يشغل لمساحة تقارب 14 مليون كم^2 أن 46% من أراضيه صحارى وأراضٍ جافة. والتحول عموماً في مناخ الأرض من فترات مطيرة إلى جافة يرجع لظواهر وتغيرات كونية تنعكس تغيرات مناخية لا مجال للدخول في تفاصيلها. ولكن هذه التغيرات تتصف بالبطء والمدى الزمني الواسع. والجفاف صفة جغرافية لمناطق من العالم تكون فيها موارد الماء من التساقط أقل من كمية الماء التي يمكن أن تذهب بها قوى التبخر. وتتسم النطاقات الجافة بتهابط كتل الهواء، أي تحركها من الارتفاعات العليا إلى الأسفل، وهي ظاهرة تسبب ارتفاع الحرارة وتقلل سقوط المطر، وتوجد هذه النطاقات في القارات جميعاً.

ولا يكفي المناخ الجاف وحده لتكوين بحار الرمال، فالشروط الرئيسة لتراكم الرمال المنقولة بالرياح تتمثل في أنظمة رياح قوية ومصدر للرواسب وتضاريس متنوعة تؤدي للإرساب. وقد دلت دراسات الكربون المشع التي أجريت سنة 1976م إلى وجود جيلين من البحيرات العذبة في الجزءين الأوسط والغربي من حوض الربع الخالي. نشأ الجيل الأول قبل 17 - 21 ألف سنة ثم الجيل الثاني قبل 6 - 9 آلاف سنة. ثم تسارعت وتيرة الجفاف. وللرمال في الربع الخالي عموماً مصدران: قارية وبحرية. الأولى مصدر للرمال في الاجزاء الغربية منه، وتأتي من الدرع العربي عن طريق وادي الدواسر ووادي حُبُونا ووادي نجران، وكذلك من جبال طويق والطمي القادم من الجبال العالية لجنوب اليمن ومن جبال عُمان إضافة إلى حوض الربع الخالي نفسه المليء بالصخور الفتاتية ضعيفة التماسك وتتميز بلونها الأحمر المتأثر بأكسيد الحديد، وهي رمال منبته، ولذا فهي أكثر ثباتاً من النوع الثاني. والرمال البحرية مصدر للرمال في الجزء الشرقي للربع الخالي وهي رمال بيضاء خشنة ملحية مصدرها البحر. إذ تقدم مستوى البحر وتراجع خلال العصور الجليدية المتكررة، وخلال آخر عصر جليدي تحول الخليج العربي إلى أرض منخفضة يابسة يجرى فيها نهر شط العرب لمسافة 800 كم حتى ينتهي عند حافة خليج عمان التي تقع اليوم على عمق 110 أمتار.

وصل البحر إلى مستواه الحالي قبل حوالي ألف عام بعد انحسارات متتالية، دفعت الرياح خلال تلك الفترات الجيولوجية رمال البحر إلى حوض الربع الخالي. ومعظم هذه الرمال غير منبتة وحركتها أسرع من الرمال القارية، ومكوناتها مفككة يسهل انسيابها. وتمتد في أراضي المملكة العربية السعودية أربعة بحار رملية رئيسة هي الربع الخالي والنفود والدهناء والجافورة، وتشكِّل ثلث مساحة المملكة التي تقارب الميلوني كيلومتر مربع.

كيف تمت استعادة الحياة في الصحراء؟

شكّل بحر الرمال في الربع الخالي سوراً منيعاً في وجه الغزاة الذين خارت قواهم على أطرافه، وتحدياً للمستكشفين. فحتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين لم يتمكن أحد من الرحالة الأوروبيين من اجتيازه، حتى قام الرحالة البريطاني (برترام توماس) في عام 1930م بعبور الربع الخالي من الجنوب إلى الشمال. ولأن معاصره الرحاله الشهير (جون فيلبي) كان يخطط لعبور الصحراء نفسها، فقد قام بعد بضعة أشهر برحلة مماثلة ولكن بالاتجاه المعاكس من الشمال إلى الجنوب. وسجل برترام وقائع رحلته في كتابه (بلاد العرب السعيدة) وكذلك فعل فيلبي صاحب القائمة الطويلة من المراجع الجغرافية للجزيرة العربية. وبعد هاتين الرحلتين بخمسة عشر عاماً جاء الرحالة البريطاني (ويلفرد ثيسجر) ليعبر الربع الخالي بين عامي 1945 – 1950م مرتين من الجنوب إلى الشمال وبالعكس، وخلال رحلة (مبارك ابن لندن) – وهذا اللقب الذي اشتهر به الرحالة ثيسجر – سجل شواهد الحياة البرية كغيره من الرحالة ونشرها فيما بعد في كتابه (الرمال العربية). وقد اصطاد ثيسجر ومرافقوه خلال رحلاتهم في الربع الخالي المها العربي وغزلان الريم والأرانب البرية والثعالب الرملية والحمر الوحشية، وفي الجبال المحيطة بالربع الخالي اصطادوا الوعول والطهر العربي. وقد شاهد ثيسجر في جنوب غرب الربع الخالي قطيعاً من 18 مهاة عربية والكثير من الغزلان، وأشار إلى أن أحد مرافقيه صاد في أوقات متفرقة أكثر من أربعين مهاة. وثيسجر الذي تنبأ بانقراض المها العربي والغزلان من الربع الخالي لضغط الصيد بالوسائل الحديثة كالسيارات والبنادق والتي بدأت بالانتشار في ذلك الوقت لم يكن بعيداً عن الصواب. فبعد حوالي العقدين، في 1972م اصطيدت آخر مهاة عربية في جَدة الحراسيس بعُمان على الأطراف الجنوبية للربع الخالي. والمصير ذاته كان قد واجه الحمر الوحشية قبل ذلك، وطيور النعام التي فقدت سجلاتها الأحيائية إلى الأبد كما يفقد مخطوط وحيد من كتاب قيّم من مكتبة قبل أن يقرأه أحد. ألم يقل الشاعر (راينر ريلكة): إنها الخسارة الأسوأ: ضياع شيء مجهول لا يمكن تخمينه.

ومع إدراك العالم لحجم الخسارة الناجمة عن انقراض الكائنات الحية، وانخفاض رصيده من التنوع الحيوي، ازداد الاهتمام بالحياة البرية وحمايتها وتكثير المهدد بالانقراض منها وإعادة توطينها. فتأسست في عام 1986م الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية



زوج من النسر الوردي على شجرة طلح داخل المحمية

اوليفيه كوبيه

محمية عروق بني معارض

تقدر مساحة هذه المحمية بـ 12 ألف كم^2 وهي تعادل 0.56 من مساحة المملكة و2% من مساحة الربع الخالي، وتقع المحمية عند التقاء الحافة الغربية للربع الخالي مع شرق الجزء الجنوبي لنهاية سلسلة جبال طويق. وقد قسمت الخطة التشغيلية المحمية إلى ثلاث مناطق: المركزية وحظرت فيها كافة الأنشطة البشرية، والثانية وسمح فيها برعي منظم مع حظر الصيد والاحتطاب، والثالثة سمح فيها بالرعي مع حظر الصيد والاحتطاب. وتتميز هذه المحمية بتنوع بيئاتها من جبال ووديان وكثبان رملية ويتراوح ارتفاع المحمية ما بين 640 و 1031 متر عن سطح البحر فيما يرتفع جبل طويق ما بين 200 و 300 متر عن سطح الأرض. وتسمى سلاسل جبال طويق العمود الفقري لتضاريس وسط نجد لامتدادها لأكثر من ألف كم. وترتفع بالمتوسط إلى 1000 متر عن سطح البحر. ونظراً إلى تكوّن طويق من حجر جيري مقاوم للتعرية فإن الحافة الجبلية بارزة ومحافظة على شكلها وهي تطوق أو تعترض بحر الرمال في الربع الخالي من الناحية الشمالية والغربية ولذلك تسمى بطويق والعارض. وتقل معدلات الأمطار في محمية عروق بني معارض عن 50 ملم في العام وربما مرت سنوات من دون هطول الأمطار. وتصل درجات الحرارة القصوى صيفاً إلى أكثر من 50 درجة مئوية. ورغم هذه الظروف المناخية القاسية فإن السكان المحليين أكدوا لفرق المسح الميداني وجود المها العربي وغزلان الريم والادمي في العروق إلى عقود قريبة. ولذلك وضعت الهيئة برنامجاً لإعادة توطينها هناك.

وإنمائها في المملكة العربية السعودية والتي استكملت إصدار منظومة المناطق المحمية عام 1990م وهو المرجع الوطني لأهم المواطن الطبيعية التي ينبغي حمايتها. وتضمنت المنظومة 108 مناطق مقترحة، منها 56 منطقة برية، و 62 بحرية منها 38 في البحر الأحمر و 24 في الخليج العربي. وقدرت مساحة هذه المنظومة بحوالي 8% من مساحة المملكة، تغطي كافة البيئات المتنوعة ومن ضمنها كانت محمية عروق بني معارض والتي أعلنت حمايتها رسمياً عام 1993م.

ماذا عن المها العربي؟

في النصف الأول من القرن العشرين عندما كان الرحالة مبارك بن لندن (ثيسجر) يعبر الربع الخالي، شاهد ومرافقوه قطيعاً من المها العربي، وعندما كان الرحالة يقترب منها بحذر مصوباً نحوها بندقيته ليصطاد أحدها، صاح أحد مرافقيه وهو يركض نحوه، فهربت المها، وظن الرحالة أن مرافقه شاهد عرباً ولا يريده أن يطلق النار، ولكن البدوي قال بهدوء: "إن المها لا تكترث لأصوات البشر". وهو اعتقاد لا يمكن تفسيره، أثار حفيظة الرحالة ويتمسك به بعض البدو، وهذا يفسر كما يقول الرحالة: لماذا ينجح قليلون جداً في اصطياد المها. هل صاح مرافق الرحالة عنوة كي تنجو المها، وهل أن البدو الذين يعتقدون بأن المها لا يكترث لأصوات البشر يتحدرون من سلالة الشعراء الجاهليين.. النابغة الذبياني ولبيد بن ربيعة وسويد بن كاهل اليشكري وامرئ القيس؟!. أولئك الذين انتصروا للمها في معظم أشعارهم واعتبروه رمزاً للحياة في الصحراء، لا تستقيم الحياة فيها بدونه. وهل هذا يفسر كيف استطاع المها العربي وغيره من شواهد الحياة البرية أن يعبر التاريخ لآلاف السنين في الصحراء بكل دورات جفافها وقحطها حتى الثلث الأخير من القرن العشرين حين قضت عليه جاهلية هذا الأخير؟. وهل يعطي هذا دلالة أعمق لما قاله أبو عبدالله الصغير - آخر ملوك الأندلس- في مخطوطه القرمزي الذي أخرجه الروائي الإسباني أنطونيو غالا: بأن حب الحياة هو الذي يولّد الحياة؟. المها العربي الذي شغل – ذات يوم – معظم المناطق الصحراوية الرملية ومحيطها في الجزيرة العربية، بدأ بالانحسار من كثير من مناطقه الطبيعية، إذ انقطع الاتصال في الثلاثينيات من القرن الماضي (1930م) بين المجموعات الشمالية من المها في الجزيرة العربية والمجموعات الجنوبية نتيجة لضغوط الصيد وتدهور البيئات، ولم يحل عقد الخمسينيات من القرن نفسه (1950م) حتى انقرضت المجموعات الشمالية من المها العربي وكذلك من شرق الربع الخالي، وانحسر وجوده في الجنوب ما بين اليمن وعُمان. وسجل آخر مها عربي تم اصطياده في جدة الحراسيس غرب عمان ما بين بحر العرب وجنوب الربع الخالي عام 1972م، في حين أن أحد الطيارين السعوديين على طائرات عمودية ذكر أنه شاهد مجموعة من المها العربي في منطقة العروق داخل حدود المحمية الحالية سنة 1978 و1979م، وهذا ما عزز الاحتمال بأنه كان يعيش إلى وقت أقرب كثيراً من تسجيلات انقراضه التام في البرية. وقد نفذت المنظمة الدولية لصون الطبيعة عملية لإنقاذ المها العربي قبل الوصول إلى هذه النهاية المأساوية عام 1962م، حين جمعت تسعة رؤوس من المها من البرية ومن المجموعات الخاصة لدى ملوك وأمراء الخليج وتم تكثيرها ورعايتها في حديقة حيوان فيونكس بولاية أريزونا لتقارب البيئة هناك مع بيئاتها المحلية.

اوليفيه كوبيه

الورل اكبر السحالي في محمية العروق



اوليفيه كوبيه

اثنان من المها العربي البالغة مع جؤذر داخل المحمية

وصل عددها عام 1977م إلى حوالي 100 رأس، ثم بدأت منذ 1978م بالعودة إلى محميات طبيعية في الجزيرة العربية في الأردن وفلسطين وعُمان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة. وبين عامي 1982 – 1992م استقبلت المملكة من هذا القطيع 29 رأساً للثمامة – مركز الملك خالد لأبحاث الحياة الفطرية- قرب العاصمة الرياض، و26 رأساً لمحمية محازة الصيد (160 كم شرق الطائف) ورغم أن أول إعادة لإطلاق المها العربي في بيئته الطبيعية على مشارف الربع الخالي تمت في عُمان عام 1982م في جدة الحراسيس ووصلت أعدادها المتكاثرة طبيعياً إلى 400 رأس، إلا أن هذا المشروع انهار عام 1998م بسبب عودة الصيد الجائر، واستجمع ما تبقى من المها في مسيجات لحمايته من بنادق الصيادين.

أما في المملكة العربية السعودية فقد انطلق مشروع تكثير المها العربي وإعادة توطينه مع إنشاء الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها عام 1986م. ونقلت حينها مجموعات منه من الثمامة إلى المركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية بالطائف، وخضع لرعاية بيطرية مكثفة وإدارة وراثية للقطيع.

وتهدف الإدارة الوراثية للقطيع إلى تجنب تزاوج الأقارب مما يفضي إلى ما يسمى بعنق الزجاجة أو الانغلاق الوراثي الذي يؤدي إلى تناقص معدل الخصوبة والحياة وخفض المقاومة ضد الأمراض مما يعجِّل بالانقراض، ولذلك فالإدارة الوراثية تهدف إلى المحافظة على ما لا يقل عن 90% من التنوع الوراثي للقطيع الأساسي من المها العربي لفترة تضمن استمرار هذا التنوع بعد التوطين لأكثر من قرنين من الزمان وإنتاج حيوانات قادرة على العيش في البريّة مما يتطلب رفع أعداد المها العربي في المحمية إلى أكثر من 250 رأساً.

وقد نوّع القطيع في مركز الأبحاث في الطائف من مصادر مختلفة من البحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة والأردن والولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى المجموعات الخاصة الموجودة في المملكة وهو بذلك يعتبر أفضل قطيع منوّع وراثياً من المها العربي في العالم. ويتم اختيار الجيل الثالث من المها العربي المتكاثر في الأسر لبرنامج إعادة التوطين وذلك لضمان خلوه من الأمراض المعدية وإعداده جيداً لهذا البرنامج. وقد أعاد المركز توطين 90% من أفراد الجيل الثالث في المحميات الطبيعية داخل المملكة. وقبل إعادة التوطين يتم عزل المها الذي سينقل إلى البرية لمدة شهرين داخل مركز التكثير بالطائف، يفحص خلالها بيطرياً ويطعّم ضد الأمراض الشائعة ويفحص وراثياً للتأكد من خلوه من العيوب الوراثية، ثم يتم تدريبه- على الأقل – لثلاثة أسابيع قبل النقل، على عمليات دخول الصناديق التي سينقل فيها، ولأن عمليات النقل من مركز التكثير بالطائف لمحمية عروق بني معارض في الربع الخالي تستغرق ما بين 6.5 و 9.5 ساعة بين نقل بري وجوي فإن المها المنقول يحقن بمخدر طويل المفعول قبل ثلاثة أيام لتهدئته وتجنب آثار الإجهاد أثناء النقل. والتي قد يتسبب في نفوقها.

وقد بدأت الهيئة برنامج إعادة توطين المها العربي لبيئاته الطبيعية في المملكة في محمية محازة الصيد التي تقدر مساحتها بـ 2244 كم^2. وهي المحمية الوحيدة المسيجة بالكامل في المملكة وثاني أكبر محمية مسيجة في العالم. وقد أعيد توطين 72 مهاة ما بين 1990 و 1993م، منها 34 من المكاثرة في مركز الأبحاث بالطائف و38 جلبت من الولايات المتحدة الأمريكية والأردن ثم تكاثرت طبيعياً حتى بلغت أكثر من 500 رأس في مطلع 2003م داخل محمية محازة الصيد. ثم بدأت المرحلة الثانية بإعادة توطين المها العربي في محمية عروق بني معارض في الربع الخالي. وقد بدأ مشروع إعادة توطين المها العربي في الربع الخالي عام 1995م بنقله على دفعات بواسطة طائرات النقل العسكرية من مطار الطائف إلى مطار وادي الدواسر، ثم بالسيارات إلى محمية عروق بني معارض في الربع الخالي (كل دفعة تتراوح ما بين 9 و 10 رؤوس). وحتى 2002م نقلت 15 دفعة من المها العربي من مركز التكثير بالطائف ومن محمية محازة الصيد بلغت أعدادها 149 مهاة تكاثرت طبيعياً حتى زادت على 200 رأس من المها في مطلع 2002م وعادت تنطلق حرّه في بيئة كانت ذات يوم تبث الحياة بأطرافها.

والمها الذي يتدرج في إطلاقه داخل المحمية من مسيج صغير ويبقى فيه لبضعة أيام تحت المراقبة البيطرية، إلى مسيج أكبر يصل إلى كيلومترين مربعين يتعود على بيئة المنطقة خلال شهر ثم يطلق لفضاء الرمال. وجميع المها العربي المعاد توطينه مجهز بأطواق المتابعة عن بعد. إذ يقوم بعد الإطلاق جوالو الهيئة المكلفون بحمايته وحماية المنطقة المحمية من التعديات – وأغلبهم من السكان المحليين – بمتابعة تحركاته. ويقوم الباحثون الحقليون بدراسته بيئياً وسلوكياً. والمتابعة التي تصبح في عمق جبال الرمال في الربع الخالي شبه مستحيلة تتم بالطائرات الصغيرة إضافة إلى المتابعة الأرضية. وقد كشفت الدراسات الحقلية عن جزء من أسرار هذا الكائن العجيب الذي يعتبر رمزاً للحياة في الصحراء. إذ أن لديه القدرة على أن يمضي أشهر فيها من دون ماء ويحصل على 86% من احتياجاته المائية من النباتات الصحراوية التي يتغذى عليها في أوقات تكون معدل الرطوبة فيها أعلى خلال الفجر وفي المساء، بينما يحصل على 14% من احتياجاته المائية من تكيف فسيولوجي عبر الماء الناتج من عمليات الأيض الحيوية الداخلية. فسفينة الصحراء (الجمل) بما عرف عنه من صبر على الماء مجرد تلميذ في الصفوف الأولى في مدرسة المعلم الكبير: المها العربي.



صراع لاختبار القوة واستعراض السيادة بين ذكرين من غزلان الريم

ما العلاقة بين الريم والرمال؟

بين الريم والرمال علاقة أبعد من القرب الصوتي لاسميهما، فلغزلان الريم تكيفات مظهرية وسلوكية وفسيولوجية للعيش في البيئات الصحراوية والرملية تحديداً. وقد كانت ذات يوم واسعة الانتشار في الجزيرة العربية حتى انحصر وجودها في مجموعتين في شمال المملكة في مناطق أعلنت محميات فيما بعد هما حرّة الحرّة والخنفة. وبعض التسجيلات على الطرف الجنوبي الغربي للربع الخالي. أما توزيعها الجغرافي العالمي تاريخياً فيمتد من فلسطين والجزيرة العربية إلى شمال الصين. وقد أوضحت الدراسات الوراثية أن لذكور غزلان الريم صبغيات (كروموسومات) يتراوح عددها ما بين 31 و 33 حسب الاختلافات الفردية. أما الإناث فيتراوح عدد كروموسوماتها ما بين 30 و 31 كروموسوماً. وهذه الظاهرة العجيبة قد ترجع إلى الاختلاف بين المجموعات الشمالية والجنوبية في الجزيرة العربية أو إلى اختلافات فردية. ورغم أنها لا ترقى إلى حد تصنيفها كنوع مختلف إلا أنها قد تكون ذات أبعاد مهمة، من الناحية التكيفية على البيئات الصحراوية.
ولون غزلان الريم المائل للبياض مهم في عكس حرارة أشعة الشمس الحارقة في الصحراء. وللريم أظلاف عريضة للمشي على الرمال، ولكن قدرته في الصبر على الماء خرافية. فقد تمضي بعض الغزلان حياتها دون أن تشرب، وتكتفي بالحصول على الماء من النباتات التي تتغذى عليها ومن لعق الندى المتجمع على أجسامها في الفجر. والغزلان عموماً متكيفة سلوكياً من خلال ممارسة نشاطها الرعوي عند الشفق والغسق وأحيانا في الليل، وهي الأوقات التي ترتفع بها معدلات الرطوبة في أوراق النباتات البرية ويتجمع الندى عليها. ورغم ميل غزلان الريم إلى التجمع، فقد كانت قديماً تتحرك في مجموعات تتراوح ما بين 10 و 50 غزالاً. إلا أن هذا يحدث عند تحسن الغطاء النباتي. أما بعض الدراسات عليها في محمية عروق بني معارض فلم تسجل أكثر من سبعة غزلان في مجموعة واحدة. ومتوسط أعدادها في المجموعة يقل عن ثلاثة. وهذا تكيف ملائم مع ظروف المرعى الشحيحة في الصحراء. وعادة ما تتحرك الإناث والصغار في مجموعات، بينما تتحرك الذكور البالغة فرادى وتكوّن مناطق ذات حدود معينة خاصة بها تدافع عنها بضراوة ضد أي ذكور بالغة دخيلة، ولكنها ترحب بالإناث عند دخولها لمناطقها خلال دورتها النزوية، وتقوم بفحص الإناث المهيآت للتزاوج بشم الخلفية، وتستجيب الإناث لهذا الفحص بالتبول، وقتها تقوم الذكور بتذوق البول الذي تفرز فيه الهرمونات


اوليفيه كوبيه

قطيع من المها العربي داخل محمية العروق

الأنثوية فتتعرف على درجة استعداد الانثى للتزاوج وقد يستمر الغزل والتدافع ومحاولات الامتطاء لأكثر من أربعين دقيقة يمارس فيها الذكر عشرات المحاولات، قبل أن تتوج بالمواقعة والتلقيح، يفقد بعدها الذكر رغبته في الأنثى، وبعد فترة راحة بسيطة يبدأ بتفحص إناث أخريات أو الانشغال بطرد الذكور الدخيلة على المنطقة. ويلاحظ أن وجود دورة نزوية معينة خلال السنة يسهم في خفض الطاقة المصروفة على الجنس وتحديدها في مهمة حفظ النوع. كما أن تعليم حدود معينة لنطاق كل ذكر سائد، يسهم كذلك في خفض الصراع بين الذكور البالغة للحصول على الإناث والغذاء. ويقوم الذكر عادة بوضع حدود وعلامات لتحديد نطاقه، يستخدم فيها المعالم الطبيعية من النباتات والأحجار التي يقوم بدرسها وتسويتها، إضافة إلى البول والروث وحفر الأرض.

ورغم أن ذكور غزلان الريم السائدة تمارس نشر بولها وروثها في كافة أرجاء منطقتها وليس في الحدود فقط كما تفعل غزلان الإدمي، إلا أنها تتميز بوجود غدد محجرية تنتفخ تحت العينين خلال الدورة النزوية بشكل واضح، وتفرز مادة طلائية سوداء تستخدمها في تعليم حدودها وصبغ النباتات والأحجار بها. ويقوم الذكر باعتلاء تلة أو مكان مرتفع لمراقبة الحدود. واللافت في الأمر أن لدى الغزلان سلوكاً يسمى الاستعراض السيادي، وهو استعراض للقوة ضد الخصوم قد تكفيه – غالباً – شر القتال، فمجرد أن يظهر قرنيه القويين واستعداده للدفاع يتراجع الخصم. وأحياناً يقترب من الخصم مهيأ للقتال لكنهما لا يشتبكان، ومهما بلغ الصراع من شدة على الحدود إلا أنه ينتهي بمجرد انسحاب الخصم من الحدود المرسومة للذكر السائد، وهو نظام يشبه حدود القبائل، ويسهم في خفض الطاقة المصروفة على الصراع بين الذكور السائدة، وكما أن للسيادة علاماتها وسلوكياتها الدالة عليها فإن الخضوع كذلك له دلالاته المتميزة بخفض الرأس والانقياد والاستسلام.

والمدهش في هذا النظام الاجتماعي أن الذكر السائد يفقد سيادته حين يخرج من حدود منطقته ويدخل حدود منطقة ذكر آخر. وقد يحدث تنافس بين الذكور عند تأسيس المقاطعات، يشتبكان فيه بالقرون لاختبار قوة كل منهما بالتدافع والتناطح.

وهذا التنافس مهم كانتخاب طبيعي لإفراز الأفراد الأقوياء الذين سيؤسسون مقاطعات يلقحون فيما بعد الإناث التي ستدخلها. ويستمر الحمل في إناث الريم حوالي خمسة أشهر، تنتحي عند الوضع لتضع مولودها ثم تقوم بلعقه لتجفيفه وحمايته من التيارات الهوائية وإزالة أي أثر للدماء من على جسمه لكي لا تجذب المفترسات إليه. واستكمالاً لهذه المهمة الأمومية في حماية الرضيع تقوم الأم بالتهام المشيمة وإزالة أي أثر للدم، ثم تترك الرضيع في مجثمه لعدم قدرته على الركض في المخاطر، وتتردد عليه بين وقت وآخر لإرضاعه وفي ذلك يقول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

بها العِينُ والارآم يمشينَ خِلفةً
وأَطلائها يَنهضنَ من كلّ مَجثَمِ

ويسمى الرضيع عند الولادة: الطلا إلى عمر أسبوعين، ثم الخشف من 3 إلى 8 أسابيع، ثم الشادن والذي يعرف مع بروز القرون الصغيرة وعمره ما بين 3 و 6 أشهر، وغذاؤه خليط بين الرضاعة والنباتات، ثم الشصرة أو الجدية أو الظبية وتكون في عامها الأول وتدخل ضمن الإناث وقد تحمل في هذا السن. والذكر في هذا السن يسمى: الشصر والجدي والظبي. أما الذكور البالغة فتسمى: الثني وتتميز بكبر حجم قرونها التي تزيد على ضعفي طول الآذان وتتميز بحلقاتها المحززة، كما تتميز ذكور غزلان الريم بانتفاخ يشبه الدراق عند منتصف الحلق. وقد أعيد إطلاق غزلان الريم في محمية عروق بني معارض عام 1995م من ثلاثة مواقع داخل المحمية على دفعتين قوامها 100 غزال أكثر من نصفها بقي في دائرة قطرها 20 كم من مواقع الإطلاق. إلا أن بعضها ذهب بعيداً حتى 200 كم. وهي مزودة بأجهزة المتابعة عن بعد وبالعلامات المميزة للمساعدة في المتابعات والدراسات الحقلية. ثم أعيد إطلاق دفعة ثانية عام 1996م قوامها 104 غزلان ريم من مواقع الإطلاق نفسها، وقد تبين من الدراسات الحقلية أن غزال الريم انتشر بشكل واسع جداً بعد الإطلاق داخل الربع الخالي وقدرت المساحات التي استخدمتها الغزلان بـ 48 ألف كم^2 وهي تعادل أربعة أضعاف مساحة محمية عروق بني معارض.

وقد قدرت بعض الدراسات في المحمية متوسط نطاقات التحرك السنوي لبعض الذكور والإناث لغزلان الريم بـ 700 كم^2، وتتراوح عموماً ما بين 100 و 2000 كم^2. إذ تكثر الفروق الفردية في ما بينها، وقد سجلت خلال العام الثاني للإطلاق 132 ولادة برية جديدة لغزلان الريم. وعموماً لدى غزلان الريم فصلان واضحان للتوالد في الربيع من فبراير إلى أبريل وفي الخريف من سبتمبر إلى أكتوبر وحوالي ربع الولادات توائم، وهذا التوقيت في التوالد يعتبر تكيفاً بيئياً يضمن الحياة للمواليد عند وضعها في مواسم يتحسن فيها الغطاء النباتي في الصحراء.


د. سيتر

ذكر غزال الادمي يضع الروث لتحديد منطقة السيادة

ولم يفت ذلك على دقة ملاحظة الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة حين ربط توالد الظبا بالربيع فقال:

فعلا فروعَ الايهقانِ وأطفَلَت
بالجهلتين ظِباؤها ونعامُها

أين تنتشر غزلان الجبال (الإدمي)؟

لأن عروق الرمال من الربع الخالي في محمية عروق بني معارض تلتقي بالحاجز الجبلي لسلسلة جبال طويق فإن غزلان الإدمي كانت تنتشر قبل انقراضها عند الحافة الجبلية وفي الأودية المنحدرة من طويق إلى عروق الرمال في الربع الخالي. ورغم اشتراك غزلان الإدمي مع غزلان الريم في كثير من الصفات السلوكية إلا أن الاختلافات المظهرية والسلوكية والبيئية تميز بوضوح بين النوعين. فبينما يعيش الريم في السهول والرمال، يفضل الإدمي الأماكن الوعرة في الأودية الجبلية والمنحدرات والتلال. ورغم تميز ذكور الريم بحمية عالية في الدفاع عن مقاطعاتها فإن ذكور الإدمي تدافع عن مقاطعتها بفتور، ونادراً ما تشتبك مع الخصوم. والإدمي يحدد مناطقه بأكوام البعر والبول. ولا يفعل ذلك في كامل المقاطعة كالريم. وهناك بعض الاختلافات في السلوك الجنسي تتعلق بآلية تعرف الذكور السائدة على الإناث الشبقات، فيتميز الإدمي بشم واستنشاق خلفية الإناث فيما تتفحص ذكور الريم البول. والمواقعة عند الريم تحدث – غالباً – أثناء مشي الأنثى، أما الإدمي فغالباً ما تتوقف أنثاه للمواقعة. وعموماً، يتميز الإدمي بحجمه الأصغر ولونه المائل إلى البني وبالشريط الداكن على خاصرتيه وعلى الأنف. ويفضل الإدمي الانعزال. وقد قدر متوسط حجم المجموعات في المحمية بحوالي الاثنين لكل مجموعة، في حين أنه لم تشاهد مجموعات أكبر من ثلاثة تتحرك سوياً داخل المحمية.

وقد أعادت الهيئة إطلاق 24 غزال إدمي في المحمية مطلع عام 1996م ثم أعادت إطلاق 49 غزال إدمي في العام التالي. وتراوحت نطاقات تحركها بعد الإطلاق ما بين 9 و 310 كم. ومن مميزات الغزلان السرعة في الحركة لدرء الأخطار عن نفسها. وقد تصل سرعتها من 50 إلى 60 كم في الساعة، وقد تتضاعف ولكن لمسافات قصيرة من 100 إلى 200 م.. وتتميز الغزلان بالقفز في الهواء عند الجري، ويسمى هذا النوع من الركض (النقار) وباستثناء الخشاف الصغيرة، فإن جميع الغزلان تمارسه. وإذا كان المها العربي عند الشعراء الجاهليين رمزاً للحياة، فإن الغزلان شاركته هذه الرمزية بجدارة، وبها شبّه الشاعر الجاهلي حبيبته فقال امرؤ القيس:

وجيدٍ كجيد الرِّئم ليس بفاحشٍ
إذا هي نصّته ولا بمعطّلِ

ما الذي يربط الحيوانات الأخرى بالربع الخالي؟

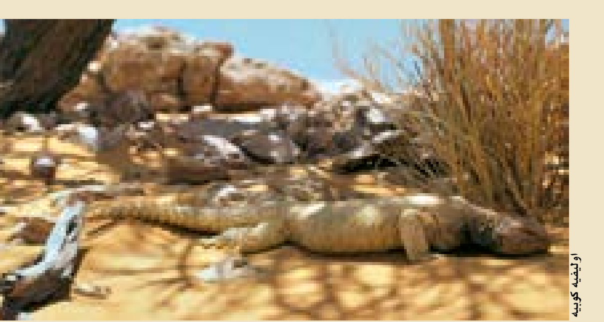
تميز الربع الخالي بحيوانات عاشت بين كثبان رماله، وكان أجدادنا وآباؤنا ممن قطنوا هذه الرمال أو عبروها شهوداً على انتشارها في الصحراء، إلا أن بعضها انقرض، أو أحياه من يحيي العظام وهي رميم وأنقذ في اللحظات الأخيرة من ساعات وجوده، كالمها العربي وغزلان الريم والإدمي وأعيد توطينه. وبعضها الآخر ذهب في ذمة من أفنوه كمخطوط نادر وثمين لم تتح للبشرية فرصة قراءته بعد كطيور النعام التي تغنى بها الشعراء في الجاهلية واستمرت تنعم بدفء الصحراء وتبث بأرجائها الحياة. إذ يعتقد الباحثون أن طيور النعام في الجزيرة العربية كانت على مجموعتين: شمالية في شمال النفود وجنوبية على أطراف الربع الخالي، وأن المجموعات الجنوبية انقرضت حوالي عام 1919م بينما انقرضت المجموعات الشمالية عام 1939م. ويفيد بعض الأهالي من كبار السن في وادي الدواسر أنهم كانوا يصيدون النعام ويبيعون ريشها للحجاج في مكة. ورغم أن (تحت النوع) العربي قد انقرض تماماً واسمه العلمي: Struthio comelus syriacus إلا أن (تحت النوع) الشمال إفريقي أحمر الرقبة هو الأقرب إليه، وهو المزمع إعادة توطينه في محمية عروق بني معارض واسمه العلمي S.c. camelus. وقد سجل الرحالة الذين عبروا الربع الخالي العديد من أعشاش طيور النعام ببيض كامل والكثير من قشور البيض كما أشار كذلك العديد من سكان المنطقة. وقد سجل داخل محمية عروق بني معارض عش فيه سبع بيضات لطيور النعام. وقد بدأ مشروع إعادة توطين النعام في المملكة في محمية محازة الصيد عام 1997م بـ 13 نعامة ازدادت حتى حوالي المائة في مطلع 2002م. ويدرس بعد هذا النجاح إمكانية إعادة توطينها في محمية عروق بني معارض. وإلى جانب إعادة توطين النعام في المحمية كمشروع مستقبلي، فإن الوعول الجبلية والتي كانت منتشرة على حافة جبال طويق مع الحدود الغربية للمحمية قد تدرج في هذا البرنامج وهي التي تنعم بعض مجموعاتها البرية في المملكة بالحماية الكاملة في محميتي الوعول في حوطة بني تميم والطبيق شمال المملكة. وبالرغم من إفراد معظم الاستطلاع عن كائنات فطرية انقرضت وأعيد توطينها أو مزمع إعادة توطينها فإن ذلك لا يمثل من منظومة حيواه الرمال سوى غيض من فيض. فقد سجل بالمحمية في دراسة خاصة نوعين من الثعالب وهما ثعلب الرمال (ثعلب روبل) والثعلب الأحمر. والنوع الأول الأكثر انتشاراً في الرمال لتأقلمه الجيد مع العيش فيها إذ يعتمد في 50% من غذائه على الحشرات و36% على صغار الثديات تلك التي سجل منها في المحمية أربعة أنواع من القوارض البرية. ورغم انخفاض كثافتها إلى 1 – 2 في الهكتار إلا أنها في المواسم الممطرة تكثر بشكل

ثعلب الرمال (ثعلب روبل) داخل المحمية

كبير. ويدل نطاق التحرك السنوي لثعالب الرمال في العروق والمقدر بـ 28 كم² على توافر غذاء جيد لها في هذه الحدود طوال العام. وقد سجل كذلك وجود القط الرملي والبري. ومن زواحف الصحراء الكبيرة بالمحمية الضب والورل ونوع صغير من السحالي الرملية. إضافة إلى قائمة الطيور التي تعد قبرات الصحراء من أشهرها، وكذلك نسور الأذون أو النسور الوردية والتي تمت متابعتها بالأقمار الصناعية في حركة كبيرة داخل المملكة. وهناك قائمة طويلة من الكائنات الحية التي تنتظر الاكتشاف والتسجيل في صحراء الربع الخالي من الحشرات والزواحف. ومن يدري ربما حتى الأسماك تلك التي تنبت في برك الماء بعد هطول المطر كما ينبت العشب البري. أما القاعدة الأساسية للتنوع الحيوي في محمية عروق بني معارض فتعتمد على الغطاء النباتي الذي يوفر غذاءً لحيوانات الصحراء.

ما هو التنوع النباتي في صحراء الربع الخالي؟

في المحمية ثلاث بيئات محلية متمايزة هي منحدرات جبال طويق والأودية والشعاب ومناطق الرمال. ولانعدام التربة في المنحدرات الجبلية فهي جرداء باستثناء بعض المنخفضات التي ينبت فيها بعض الحشائش كالثمام والأثموم وصليلة والشويكة وبعض الأعشاب والحشائش الأخرى. أما الأودية المنحدرة شرقاً من جبال طويق باتجاه الرمال فهي أفضل مواقع الغطاء النباتي وتنتشر بها أشجار السمر بنوعيه واللعوت والسرح والمرخ، وتسود شجيرات الرمث والحرمل وأنواع الضريسة والسندان والعشرق والعرفج والعوسج والشويكة وشوك الضب وأنواع الضريسة والسندار والقرض والنطاش ودنيان وبرسيم الجبل والعلقة والتنوم وعدد آخر من الشجيرات والحشائش. أما المناطق الرملية فتسود فيها أشجار الغضي والقطب وبعض الحشائش الأخرى. وفي الشقائق بين عروق الرمال تنمو أنواع مختلفة من النباتات مثل الحاد والصمعاء والسمر والمرخ



الضب احد اشهر السحالي بالمحمية اثناء التشمس لرفع حرارة جسمه



أرنب بري يقف أمام جحره في رمال الربع الخالي

والسرح والطلح. وقد أحصت المسوحات الحقلية للنباتات الزهرية في محمية عروق بني معارض التي أجريت بين 1994 و 1998م تسجيل 108 أنواع من النباتات تنتمي إلى 37 عائلة، أكثر من 80% منها نباتات حولية. علماً بأنه سجل في المملكة 2253 نوعاً من النباتات الزهرية، مما يعني أن محمية عروق بني معارض تحتوي على أقل من 5% من التنوع النباتي الزهري في المملكة، وهذه النسبة الضئيلة مرشحة للارتفاع في ظل ظروف الحماية وإجراء المزيد من المسوحات وتحديداً بعد هطول الأمطار.

وأمام هذه الزهور المتناثرة، والحيوانات التي تستعيد حضورها في بحر الرمال هذا وعروقه، لا بدّ للمرء من أن يتذكر ما قاله الرحالة مبارك بن لندن (ثيسجر) عندما عبر الربع الخالي مرتين في منتصف القرن الماضي: "أعطاني الربع الخالي الفرصة لكسب التميز كرحالة، لكنني أعتقد بأنه سيعطيني أكثر من ذلك، ففي هذه القفار المترامية يمكنني أن أجد السلام المنبعث من العزلة". هذا السلام الذي يربي في نفوس الناس الأمل بمستقبل أفضل من دون أن يكونوا سجناء أو عاطلين عن العمل كما يقول الشاعر الفلسطيني محمود درويش. ألم يقل أبو عبدالله الصغير – آخر ملوك الأندلس– في مخطوطه القرمزي: إن العيش دون أمل حماقة وربما محال.



زاد العلوم

مواجهة الإجهاد.. كيف؟

الإجهاد أو الضغط الإجهادي مشكلة جسدية – نفسية ازداد تفشيها بسبب نمط الحياة الحديثة. البعض يحاول مواجهته بطرق ضارة مثل التدخين أو الإفراط في تناول الطعام وشرب القهوة، أو الجلوس لساعات طويلة من دون عمل.. وكل ذلك لا يؤدي إلا إلى زيادة الطين بلّة.

ولأنه غالباً ما تكون عوامل الإجهاد خارجة عن سيطرة الفرد الذي يعانيه، فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض سبل مواجهة ذيول الإجهاد وزيادة المناعة والقوة على المواجهة. ومنها ما يأتي:

1 – ضع قائمة بالعناصر التي تسبب لك الإجهاد. ثم وزّع هذه العناصر على قائمتين: الأولى تشمل العناصر التي يمكن أن تفعل شيئاً تجاهها، والثانية تلك التي لا قدرة لك على تغيير شيءٍ فيها. بعدها، خصص بعض الوقت للعناصر التي بإمكانك أن تعالجها. وتوقف عن إضاعة الوقت بالقلق على العناصر الأخرى.

2 – حاول أن تستخلص ما هو إيجابي في العناصر المسببة للإجهاد باستعمال استراتيجية "على الأقل". مثلاً إذا كنت مديوناً قل "على الأقل أنا أدرك أهمية الموقف، وهذه هي الخطوة الأولى لمعالجته".

3 – لا تقضِ كثيراً من الوقت مع أشخاص يتصفون بالتفكير السلبي والمواقف السوداوية. فتّش عن الأشخاص الفرحين والمتفائلين.



المحترف السعودي

4 – خذ حماماً ساخناً فهو يعيد الدورة الدموية إلى حالة ما قبل الإجهاد.

5 – إضغط بأصابع يديك على صدغك، المسافة ما بين العين والأذن. فهذا يريح العضلات في أماكن أخرى من الجسم خصوصاً عضلات العنق حيث يكون الأثر الأشد للتوتر.

6 – حينما تتعرض لأية حالة إجهاد، خذ نفساً عميقاً ثم أطلق الهواء ببطء لمدة 10 ثوان. هذا يمنح الجسم وقتاً للتخلص من "حالة الاستفزاز"، عندئذ سيقل إفراز الدماغ للهرمونات المسببة للإجهاد، وهذا ما يريح القلب أيضاً.

الغاز الطبيعي صلب

توصل الصناعي الياباني متيسوي إلى إنتاج ما معدله حالياً 600 كلغ يومياً من الغاز الطبيعي المجمد. وتتم عملية التجميد هذه عن طريق مزج غاز الميثان المستخرج من آبار الغاز الطبيعي بالماء البارد (أربع درجات مئوية) تحت ضغط مرتفع (نحو 50 بار) مما يشكِّل هيدرات الميثان الصلب، الذي يمكن حفظه على شكل كرات بحجم كرات البلياردو تقريباً، وتحت ضغط جوي عادي على درجة حرارة تبلغ 20 درجة مئوية تحت الصفر.

الغاية من هذه العملية تسهيل نقل الغاز الطبيعي وتخفيض كلفته بنحو 20 في المئة تقريباً. ويبدو هذا الابتكار بالغ الأهمية بالنسبة إلى استثمار الكمائن الصغيرة التي تفقد جدواها الاقتصادية بسبب كلفة بناء شبكات النقل عبر الأنابيب وتعقيداتها.



المحترف السعودي

ويتوقع ميتسوي أن يتمكن مصنعه من إنتاج عدة مئات من أطنان الغاز المجمد يومياً خلال العام المقبل. تبقى الإشارة إلى أن موقع المصنع الياباني الذي ظهر فيه هذا الابتكار المهم في عالم الطاقة يقع في مدينة تُدعى: شيبة.

المحترف السعودي

مستقبل الورق.. ازدهار

رغم كل التوقعات حول المكاتب الافتراضية الخالية من الورق حيث تقوم جميع السجلات والمراسلات والأبحاث على التكنولوجيا الرقمية، فإن شركة xerox الشهيرة في صناعة الآلات الناسخة تتوقع العكس تماماً. وقد بنت استراتيجيتها بالفعل للعقود المقبلة على افتراض أن استعمال الورق سيزداد باطراد. والواقع أن الإحصاءات الأخيرة تشير إلى أنه ما بين عامي 1999 و 2002م ازداد استعمال الورق في جميع المجالات بنسبة 37 في المئة. الأمر الذي يؤكد صحة توقعات الشركة التي تلفت النظر إلى أن شركات عملاقة في العالم مثل شركة لويد للتأمين لا تزال ترفض حتى اليوم الاعتماد على السجلات الرقمية في أرشيفها وسجلاتها الداخلية، ولا يوجد في مخططاتها المستقبلية أي مشاريع للاعتماد على المحفوظات في صيغ إلكترونية. بل ستبقى تعتمد على الورق والميكروفيلم، وحجتها في ذلك أن السجلات الرقمية لا تتمتع بشروط الأمان الكافية التي يتمتع بها الورق.

لكن شركة xerox تخطط لجيل جديد من آلات النسخ وكذلك الورق. فالآلة الناسخة ستكون أيضاً كومبيوتر. والورقة ستحتوي على إشارات وعلامات قابلة للالتقاط والتعرف عليها من قبل الكومبيوتر، ومزودة بملخص لما تحتويه هذه الورقة، فيصبح بذلك من السهل جداً إيجادها حتى ولو لم تكن مبوبة stored. وستكون هذه الورقة أيضاً قادرة على بث إشارات رقمية لاستكشاف الإنترنت والاستعلام عما إذا كان يوجد مثيل لها أو شبيه لهذه المعلومات، وإدخالها إلى السجل الرقمي أيضاً.

قليل القطران مثل كثيره

هرباً من شبح السرطان يتجه بعض المدخنين نحو أصناف السجائر ذات المحتوى المنخفض نسبياً من القطران والنيكوتين. غير أن دراسة بدأت في العام 1982م وأعلنت نتائجها مؤخراً وشملت 364,239 رجلاً و 576,535 امرأة من مدخني الأنواع العادية وأخرى قليلة القطران، أكدت أن النوعين يؤديان إلى سرطان الرئة بالنسبة نفسها.

ويقول جيفري هاريس من مستشفى بوسطن الذي قاد فريق البحث إن الفارق بين نسب الإصابات بسيط جداً إلى حد إسقاطه من الاعتبار العلمي.

إلى ذلك يضيف خبراء آخرون أن السجائر قليلة القطران قد تكون أخطر من غيرها لأن المدخن يستنشق بقوة أكبر لتلبية حاجته إلى النيكوتين مما يؤدي إلى وصول القطران إلى الزوايا العميقة من الرئتين وإصابتها بالسرطان.



المحترف السعودي

ارتفاع حرارة الأرض.. الخطأ والصواب

من المتوقع أن يرتفع معدل حرارة الأرض خلال القرن الحالي حوالي 3 أو 4 درجات مئوية. وهذه السخونة المتزايدة للمناخ صارت مجالاً لرواج جملة اعتقادات خاطئة، نذكر مجموعة منها:

1 – الاعتقاد بأن سخونة المناخ ستضرب البلاد الصناعية أكثر من غيرها.
والصحيح أن الآثار السلبية لسخونة الأرض ستكون أبلغ ما تكون في القطب الشمالي وستشمل بشكل أو بآخر كل سطح الأرض تقريباً.

المحترف السعودي

2 – الاعتقاد بأن سخونة الأرض ستؤدي إلى ازدياد الجفاف أينما كان.
والصحيح أن المناطق الجافة حالياً مثل شمال القارة الإفريقية ستتحرك شمالاً لتصبح في حوض المتوسط خلال مئة سنة. غير أن هناك مناطق ستزداد فيها معدلات الأمطار مثل وسط إفريقيا والجزيرة العربية.

3 – الاعتقاد بأن ذوبان جليد القطب الشمالي سيرفع مستوبات المياه في البحار.
والصحيح أن الجليد القطبي يشبه قطعة الثلج في كوب الماء، لا يؤدي ذوبانها إلى تغيير حجم الماء.

4 – أن الثقوب في طبقة الأوزون ستزيد من سخونة الأرض.
والصحيح أن ثقوب الأوزون ذات خطر ينحصر في وصول المزيد من الأشعة ما فوق البنفسجية من الشمس إلى الأرض. فأثرها إذن هو على الصعيد الصحي فقط، ولا علاقة لها بالتأثير المناخي المشار إليه.



الألعاب الإلكترونية..

قفزة في الهواء.. ما زالت تقفز..

القلق الذي يبديه الأهالي والتربويون تجاه الألعاب الإلكترونية لم يلجم ولع الأولاد والشبان بهذه التسلية حتى أنها صارت تُنافس معظم الأنشطة التي كانت تقليدياً تملأ أوقات فراغهم، لا بل وصلت إلى حدّ منافسة الواجبات المدرسية على الأوقات المخصصة لها.
وعلى الرغم من أن محاكمة هذه الألعاب لا تزال أمراً ممكناً (أو واجباً)، يتوقف **فادي خوري** هنا أمام ماهيتها ومسيرة تطورها وعوامل جاذبيتها، ليكشف جانباً طالما بقي مهملاً في محاكماتها السريعة، وأن مسيرة تطورها مستمرة، شئنا ذلك أم أبينا.

كثيرون هم الذين يتهمون الألعاب الإلكترونية بلائحة طويلة من المشكلات التربوية والاجتماعية: هدر الوقت الذي كان يمكن الاستفادة منه في نشاط آخر، إهمال الدراسة، البدانة والخمول الجسدي، تنمية الأحاسيس العدائية.. وصولاً إلى زرع ميول العنف والجريمة. وهناك من يرى على عكس ذلك إيجابيات تبدأ بتنمية حسّ التركيز عند اللاعب وتنتهي بالحديث عن جديتها في الإشارة إلى أطروحات الدكتوراة التي قدّمت حول بعض هذه الألعاب. أما رجال الأعمال فيرون فيها آفاقاً شاسعة مفتوحة أمام صناعة التسلية. وعلى الرغم من كثرة ما كتب خلال السنوات الأخيرة عن الألعاب الإلكترونية، فإن معظم الناس يبدو غير ملمين بتاريخ هذه الصناعة، والعناصر التي صنعت قوتها وأمّنت لها هذا الرواج العالمي. لذلك، وقبل الوصول إلى النظريات المتضاربة في شأن جدواها ومخاطرها، من المفيد أن نعرف كيف كانت بدايتها.

> في السنوات الأولى كانت الأنواع الجديدة من الألعاب تظهر بوفرة، أما اليوم فمعظم الجهد ينصب على التجديد

من فكرة إلى كرة ثلج

بدأ كل شيء ذات يوم من العام 1949م، عندما خطرت فكرة على بال أحد العاملين في صناعة التلفزيون ويدعى رالف باير، تقضي بدمج لعبة في التلفزيون. كانت الفكرة بسيطة جداً آنذاك ولكن وعودها كانت كبيرة نظراً للتحول الهائل الذي يمكنها أن تحدثه في صناعة التسلية. وبقيت الفكرة في إطارها النظري لمدة ثمانية عشر عاماً في انتظار مساهمين منفذين يحولونها إلى واقع.

من هؤلاء الرواد هناك وليم هيغنبوتام وستيف راسل. الأول اخترع نموذجاً مبسطاً لكرة الطاولة يمكن أن تؤدَى لعبتها على شاشة التلفزيون. وصمم الثاني قاعدة لألعاب إلكترونية يمكن أن تؤدَى على الإطار الأساسي للكومبيوتر. وما يعتبر اليوم ألعاباً إلكترونية تقليدية بدأ بلعبة "البونغ" في العام 1972م واستمر انتشارها لست سنوات عندما ظهرت اللعبة التي اعتبرت منعطفاً مهماً في تاريخ هذه الألعاب، ألا وهي "غزاة الفضاء" والتي تسبب ظهورها في حصول نقص هائل في القطع النقدية المعدنية في اليابان وارتفاع نسبة الغياب عن المدارس في أمريكا. وفي العام التالي (1979م) ظهرت لعبة "الأتاري" الأكثر مبيعاً، ولعبة "الكويكبات"، ثم "القنطرة" و"باكمان"..

Tennis for Two 1958
ابتكر ويلي هيجينبوتام أول لعبة ڤيديو في مختبر بروكهافن في نيويورك وكانت تلعب على جهاز قياس إلكتروني Oscilloscope



Space War 1961
ابتكر ستيف راسل أول لعبة كومبيوتر تتفاعل مع اللاعب في جامعة ماساتشوستس وكانت تلعب على جهاز كومبيوتر بحجم الغرفة Mainframe

Tennis - Chase 1967
رالف باير ابتكر أول لعبة ڤيديو تلعب على جهاز مستقل يربط بجهاز التلفزيون المنزلي

Computer Space 1971
نولان بوشنل وتيد دابني ابتكرا أول لعبة ڤيديو من نوع أركاد

1971
أول جهاز ألعاب ڤيديو منزلي
Magnavox Odyssey

PONG 1972
نولان بوشنل وتيد دابني أسسا شركة ATARI أول شركة متخصصة في ألعاب الكومبيوتر.. وهذه كانت أول لعبة

Gunfight 1975
أول لعبة تستخدم دوائر إلكترونية متطورة

حتى آنذاك، كانت كل الألعاب الإلكترونية ذات بعدين اثنين، إلى أن ظهرت لعبة "ميدان المعركة" التي كانت أولى الألعاب ثلاثية الأبعاد. ففيها يتحرك اللاعب في دبابة ضمن ميدان افتراضي للمعركة ويطلق النار على أهداف في سياق شبيه بالحرب. ومع أن هذه اللعبة لا تشبه في شيء أشكال الألعاب الحديثة ذات الأبعاد الثلاثية، فإنها تقوم على المفاهيم نفسها: أشياء افتراضية مرسومة باستخدام شكل متعدد الأضلاع، ذات إطار من الأسلاك المعدنية. وقد أمرت حكومة الولايات المتحدة فيما بعد، بصناعة نسخة محسنة من هذه اللعبة لأغراض التدريب العسكري.

ومن الألعاب الأخرى التي دخلت تاريخ الألعاب الإلكترونية والجديرة بالذكر هناك ألعاب "نينتندو": حمار كونغ وسوبر ماريو وأسطورة زيلدا ولعبة سيجا الصوتية، وألعاب المعارك مثل "المعركة المميتة" و"مقاتل فيرتوا" ومجموعة قليلة أخرى عرفت فترة نسبية قصيرة من الشهرة، وتمثل الآن ذكريات التسلية في ذاكرة هواتها. ولاحقاً أعيد إنتاج عدد من هذه الألعاب التقليدية كألعاب ثلاثية الأبعاد، عندما تقدمت عمليات تطوير الأجهزة، ولكنها فشلت في معظم الأحيان في منح اللاعبين المفعمين بالحنين تجربة الألعاب الأصلية.

وتتشارك جميع الألعاب الإلكترونية في عناصر مكونة واحدة، سواء كانت لعبة بسيطة مثل "حمار كونغ"، يقفز فيها نجار اسمه ماريو ويصعد سلماً لإنقاذ سيدة، أو لعبة حديثة معقدة مثل "الخلية المتشظّية" حيث يتقمص فيها اللاعب شخصية رجل مخابرات عالي الكفاءة، ويستخدم أدوات سرية شبيهة بتلك التي يستخدمها جيمس بوند لاغتيال أهداف محددة.

هذه العناصر المكونة تتضمن: الرسوم البيانية (غرافيكس)، الصوت، القصة، طريقة اللعب، الواجهة. وسنحاول المرور بسرعة على كل من هذه العناصر، ودورها في تطور الألعاب الإلكترونية.

الرسوم البيانية (غرافيكس)

تتألف رسوم اللعبة الإلكترونية من الصور المعروضة على الشاشة (ثنائية الأبعاد، ثلاثية الأبعاد، فيديو كامل الحركة، إلخ ...)، ويسهم نمطها وتخطيطها بدرجة كبيرة في تحديد مستوى جاذبية اللعبة (وجاذبية اللعبة هي قدرتها على السيطرة على اهتمام اللاعب، ودفعه إلى الإحساس كأنه فعلاً في صميم اللعبة). ولا شك في أن الرسوم البيانية

1975 شركة **Coleco** تصنع جهازها الأول لألعاب الفيديو **Telstar**

1977 **Atari** تقدم أول جهاز ألعاب فيديو منزلي بنظام الألعاب المخزونة داخل عبوات منفصلة **Cartridges** والتي تمكن استخدام نفس الجهاز للعديد من الألعاب

1977 **Atari** تقدم أول مسكات تحكم للعب **Trackball** ضمن جهاز منزلي كامل "**Atari 2600**" وتعلن عن لعبة **Football** جديدة

1978 **Midway** تقدم أول لعبة تحفظ النتائج الأفضل **High scores - Space Invaders**

1979 أول لعبة تحفظ ثلاثة أحرف من اسم اللاعب ضمن النتائج الأفضل **High scores - Asteroids**

(الغرافيكس) هي أسرع العناصر تطوراً في اللعبة الآن. والسبب الرئيس في ذلك هو المطالبة المستمرة للغالبية العظمى من المستهلكين برسوم أفضل وأسرع وأكثر واقعية. ومع ذلك، فهناك اتفاق بين منتقدي الألعاب الإلكترونية، يقول إن الرسوم في الألعاب الإلكترونية تحظى بمبالغة في التقدير، فهي غالباً ما لا يكون لها أي اعتبار في جذب هاوي الألعاب العادي بما يكفي لشراء اللعبة. وغالباً ما يذهب هذا اللاعب إلى البيت، ويتعاطى مع اللعبة لساعات قليلة، ثم ما يلبث حماسه أن يموت بفعل الرسوم الباردة. وإذا لم يكن في هذه اللعبة عناصر أخرى تثير اهتمامه، كالقصة أو أسلوب إدارة اللعبة، فسيرمي اللاعب اللعبة جانباً، وينتقل بسرعة إلى غيرها.



ومن جهة ثانية، هناك ألعاب كثيرة قادرة على قلب التوازن الخاص بين الرسوم والعناصر الأخرى للعبة. ومن الأمثلة الجيدة في هذا المجال سلسلة ألعاب "ميست"، التي أدى جمالها العصري من جهة وسهولة تعلمها وأسلوبها غير المؤذي خلال الأداء إلى رواجها ونجاحها على مستويات واسعة.

الصوت

لا حاجة للتأكيد أن عنصر الصوت في الألعاب الإلكترونية قد قطع شوطاً بعيداً في السنوات العشرين الأخيرة، ومن الصعب التصديق بأن الموسيقى كانت في البداية محصورة في مجموعة من الأصوات التنبيهية. أما اليوم، فإننا نعيش عصراً حديثاً من تطور الصوت في الألعاب الإلكترونية، إذ صارت معظم المنصات قادرة على ضخ موسيقى بنوعية الأسطوانة المضغوطة (C.D) خلال ممارسة اللعبة وخلق مؤثرات صوتية حيوية ومتفاعلة. ويلعب الصوت دوراً حاسماً كأي عنصر آخر من اللعبة، إذ أنه يلعب دوراً مهماً في وضع اللاعب في صميم الجو الواقعي للعبة. ومع ذلك، هنالك ميل لإهمال هذا العنصر أحياناً، لأن من الممكن تقنياً ابتكار لعبة مع الاستغناء عن الصوت، بينما لا يمكن الاستغناء عن الفن أو البرنامج.

ومن الألعاب القليلة الحديثة التي تمكنت من الإفادة التامة من المؤثرات الصوتية لعبة "اللص". في هذه اللعبة، يأخذ اللاعب دور لص شهير اسمه غاريت يستخدم الاختلاس لتجنب أو استبعاد أعدائه. وبما أن اللاعب يحاول دائماً البقاء صامتاً، فسيجد نفسه منكمشاً لمجرد الشك بأن صوت خطواته مسموع بوضوح. وفي الوقت نفسه، سيبتسم للظلال، عندما يسمع حارساً يقترب بخطى مراوغة وهو يغمغم لحناً بينه وبين نفسه. وكل قطعة أرض جديدة تدوسها، يكون لوقع خطاك عليها صوت مختلف، وكل حركة تقوم بها، من استعمال آلات ثقب الأقفال، إلى شرب جرعات شافية، ترافقها مؤثرات صوتية حية. وفي الواقع، فإن الأصوات، في هذه اللعبة بالذات، أكثر جاذبية من الرسوم.

القصة

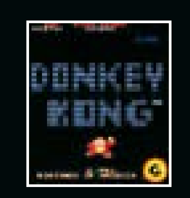
في البدايات، لم تكن الألعاب الإلكترونية تعتمد رواية قصص، ما لم تصطنع قصة معقدة حول مباراة حساسة في لعبة الـ"بونغ". فأهمية القصة في اللعبة تعتمد على نوع هذه اللعبة. مثلاً، في اللعبة المعتمدة على "مطلق الرصاص على أول شخص يصادفه"، حيث كان الهدف السعي إلى إطلاق الرصاص على مخلوقات شريرة، فإن



1980 شركة **Namco** وزعت **300,000** جهاز ألعاب صغير **PACMAN**

1980 أول لعبة فيديو بالأبعاد الثلاثة واعتمدت نسخة مطورة منها من قبل الإدارة الأمريكية لتدريب الجيش **Battlezone**

1979 **Activision** أسست من قبل بعض مبرمجي **Atari** لإنتاج ألعاب مستقلة للعديد من الأجهزة



1979 **Mattel's Intellivision** تظهر كمنافس أساسي لـ **Atari** وتتمتع بصورة أفضل

قصة معقدة ما كانت لتزود اللعبة بقيمة إضافية. ومن جهة ثانية، هناك ألعاب أخرى تستخدم فيها القصص بكثافة. ففي لعبة "الفنتازيا النهائية" مثلاً، تشكل تعقيدات القصة جوهر اللعبة. وما يجعل القصة أكثر أهمية، وجود الشخصيات المثيرة فيها، وكلما أمعنت القصة في رسم الشخصيات بملامحها الشخصية وحوافزها وقصتها إلخ...، تصبح اللعبة أكثر إثارة للاهتمام.

إدارة اللعبة (طريقة اللعب)

إن ما يحدد كون طريقة اللعب مسلية أو مملة، هي دائماً مسألة محيرة، لأنها غير خاضعة لمعايير العدد. ومن أجل ابتكار طريقة جيدة للعب، هناك عناصر عديدة لا بد من أخذها بعين الاعتبار.

أولاً، يجب أن تكون اللعبة متوازنة في قواعدها، واستراتيجياتها وألغازها إلخ ... بحيث تبدو المواجهة بين طرفين متكافئة تماماً، وحظوظ الفوز عادلة. ثانياً، لا بد للعبة من الاستمرار في تزويد اللاعب بمروحة واسعة من التحديات والنشاطات، حتى لا يضطر للقيام بالشيء نفسه مراراً وتكراراً.

وهناك شرط آخر يؤثر في طريقة اللعب، هو ضرورة أن تكون اللعبة سهلة في بدايتها، صعبة في استمرار السيطرة عليها. لا بد أن يكون بوسع أي كان اجتياز بداية اللعبة. ويتأثر ذلك كثيراً بواجهة اللعبة. وللأسف، ففي معظم الألعاب الجديدة، لا تلقى طريقة اللعب الأهمية التي تستحقها، حيث يتركز اهتمام معظم مطوري الألعاب على الرسوم وعناصر أخرى.

واجهة اللعبة

لا بد لمصمم اللعبة من إعارة اهتمام خاص لواجهة اللعبة، لأنها تمثل صلة الوصل بين اللاعب واللعبة.

ويكمن سر الواجهة الجيدة في بساطتها، إذ لا يجوز أن يصادف اللاعب صعوبات وهو يمارس اللعب، إذا كانت هذه الصعوبات ستحول بينه وبين الاستغراق في اللعبة. ومنذ ظهور الاهتمام بواجهة اللعبة، فإن هذا العنصر لم يعرف تحولات تذكر. فبينما بقيت لعبة "إطلاق النار على أول من يظهر" تعتمد بقوة على الفأرة ولوحة المفاتيح، كانت ألعاب المغامرة تعتمد على تحديد المحيط والضغط باتجاهه، بينما يبقى جوهر القوائم الداخلية للعبة على حاله بشكل أساسي.

وثبات التطور في التصميم

معظم الألعاب تريد أن تجرب شيئاً جديداً. ونادرة هي الألعاب التي تحقق هذه الرغبة بنجاح واسع، مثل لعبة "البحث الدائم" (لعبة ثلاثية الأبعاد، حسنة التنفيذ) و"ماكس باين" (لعبة بطيئة الحركة)، ولعبة "جمعيات إدارة المعلومات"، ولعبة "السرقة الكبرى للسيارة 3" (لعبة إمكانيات فضائية) ولعبة "نداء الواجب" (التي تعطي إحساساً بحرب حقيقية بين فرق عسكرية) ولعبة "نصف حياة" (شبه قصة مدعمة بنصوص عن ذكريات قيّمة) وغيرها.. هذه هي بعض الألعاب التي تؤسس لأنواع جديدة في عالم الألعاب الإلكترونية.

في الأيام الأولى للألعاب الإلكترونية، كانت الأنواع الجديدة تظهر بوفرة، لسبب بسيط هو عدم وجود الكثير من الألعاب بالدرجة الأولى. أما اليوم، فقد أغرق السوق بالألعاب المنسوخة أو المقلدة أو المكملة لألعاب قديمة، أو لتركيب جديد من مجموعة ألعاب قديمة. وأصبحت التجارب في مجال تصميم الألعاب مجدية أكثر. ومعظم الجهود التي تبذل اليوم في مجال تصميم الألعاب، تلجأ إلى التجديد في حد ذاته، فقد أصبح التجديد هدفاً، أكثر من كونه وسيلة لتأمين تجربة أوسع في عالم صناعة الألعاب. ولهذا السبب، نجد أنفسنا أمام ألعاب رفيعة في مستواها، ولكنها ضعيفة في المجال العملي.

غير أن ذلك لا يمنع وجود قوى أساسية مؤثرة جعلت وجود الألعاب المذكورة أعلاه ممكناً. من هذه القوى نذكر القروض في مجال صناعة الكومبيوتر، وانتشار الإنترنت، وبالطبع صناعة السينما في هوليوود. فتطور صناعة الكومبيوتر تعني زيادة قدرات السياق العملي وذكاءً صناعياً أكثر حدة، وقدرة أكبر على تصميم الألعاب. كذلك ساعدت الإنترنت على تزويد الألعاب بأدوات جديدة، وهكذا ولد نوع جديد من الألعاب التي تحتمل اشتراك عدد وافر من اللاعبين، مثل ألعاب "جمعية إدارة المعلومات" ولعبة "البحث الدائم". فهذه الألعاب لا يمكن ممارستها خارج الإنترنت، حيث تدفع اشتراكاً شهرياً، لممارسة لعبة ما والتعامل مع لاعبين آخرين على الخط.

اللعبة العربية الأولى "تحت الرماد" من إنتاج دار الفكر - سوريا - بيع إصدارها الأول كاملاً (10,000 نسخة) في أسبوع واحد

وكاتجاه عام رئيس، تدفق منتجو السينما في هوليوود على صناعة الألعاب، مما أوجد أنواعاً جديدة مستوحاة بدرجة كبيرة من أفلام الحروب. فلعبة "نداء الواجب" على سبيل المثال، تحمل شبهاً كبيراً بالفلم الحربي "البحث عن الجندي رايان". فالفلم واللعبة يقدمان تجربة شعور حقيقي مكثف بالحرب. كذلك لعبة أخرى اسمها "ماي باين" يمكن بسهولة اكتشاف تأثرها بفلم "ماتريكس" (خاصة في مجال المؤشرات بطيئة الحركة).

أخيراً وليس آخراً، تحتل ألعاب أخرى موقعاً مرموقاً إما لأنها رائدة، أو لأنها تكسر القوالب الجامدة، أو للأمرين معاً. فلعبة تحت الرماد (Under Ash) اللعبة العربية الأولى ذات الأبعاد الثلاثية، تتمتع بالميزتين معاً. وقد تولّت نشر لعبة "تحت الرماد" دار نشر سورية، هي دار الفكر، وهي من نوع ألعاب "إطلاق النار على أول من يظهر أمامك" وتعارض الصورة النمطية للعرب، السائدة في ألعاب الفيديو.

هنا، يمارس الأطفال العرب للمرة الأولى لعبة يكون بطلها عربياً. وعلى اللاعب في هذه اللعبة، كما على البطل أحمد، أن ينجز مهمات عديدة. ففي مرحلة ما، على أحمد أن يدخل مستوطنة إسرائيلية، ويرفع العلم الفلسطيني ويقتحم مخزن سلاح إسرائيلي. ويقع أحمد في الأسر، ولكن عليه أن يحاول الهرب. وقد انتقدت هذه اللعبة ووصفت بأنها قاسية لأنها تنتهي إما بموت أحمد، أو بنجاته من خلال إطلاق الرصاص على مدني.

وقد حققت هذه اللعبة إنجازاً مميزاً في السوق العربية، إذ نجحت خلال الأسبوع الأول لإطلاقها، في بيع إصدارها الأول كاملاً (عشرة آلاف نسخة). وهي متوافرة اليوم أيضاً على الإنترنت.

1980 أول لعبة تغوص داخل عالم خيالي virtual world defender

1982 Atari تقدم جهازها المتطور Atari 5200

1982 Cinematronics تقدم أول جهاز يستعمل الأقراص المدمجة CD

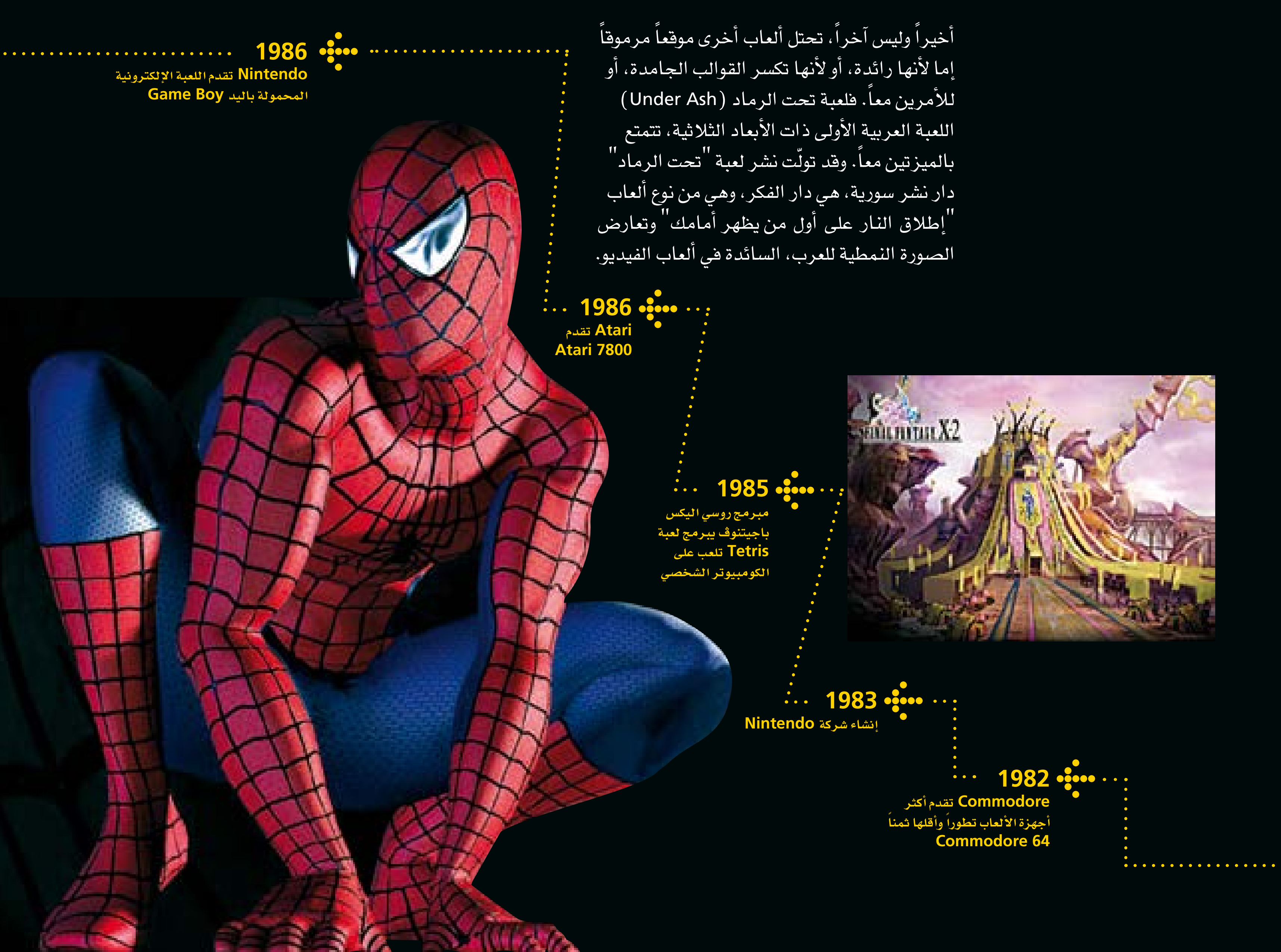
1982 Commodore تقدم أكثر أجهزة الألعاب تطوراً وأقلها ثمناً Commodore 64

1983 إنشاء شركة Nintendo

1985 مبرمج روسي اليكس باجيتنوف يبرمج لعبة Tetris تلعب على الكومبيوتر الشخصي

1986 Atari تقدم Atari 7800

1986 Nintendo تقدم اللعبة الإلكترونية المحمولة باليد Game Boy



مستقبل ألعاب الفيديو

هناك كثير من النظريات الرائجة التي تحاول استقراء مستقبل صناعة الألعاب الإلكترونية. تقول إحداها إن انخراط هوليوود في هذه الصناعة سيتزايد، حتى تندمج الأفلام والألعاب في بوتقة واحدة: إما فلم متفاعل، أو لعبة ذات مظهر شديد الواقعية، بموازنة إنتاج عالية. ومهما يكن من أمر فقد أصبح واضحاً منذ الآن أن الألعاب الإلكترونية موضوع صناعة كبيرة، إلى درجة أنه في العام 2002م تجاوزت أرقام مبيعات ألعاب الفيديو أرقام مبيعات شباك تذاكر الأفلام بليون دولار. وهناك سؤال لم يكن أحد يفكر بطرحه قبل سنوات معدودة، أصبح الآن مثيراً للاهتمام في كلا الصناعتين: هل يفقد التلفزيون شيئاً من أرضه لصالح الألعاب الإلكترونية؟ إنه سؤال لم يعد سابقاً لأوانه. وإن كنّا لا نملك في الوقت الحاضر جواباً حاسماً بالأدلة والأرقام.

فحتى الآن، يمكن القول إن الحلول لألغاز تطور فن الألعاب الإلكترونية، ما زالت شحيحة، ولكن لا شك في أن هذه الألعاب تعيش الآن عصراً مثيراً، حيث تتطور تجديدات الكومبيوتر، بأسرع مما يستطيع أن يستوعب مطورو الألعاب الإلكترونية. وهذا يعني أن تصاميم الألعاب صارت محدودة فقط بخيال هؤلاء المطورين، وحدود الخيال كما نعلم شاسعة جداً.

ومن الطبيعي أن تتحدد صناعة هذه الألعاب بما يزودها به عدد من المبدعين، وهم نفر يعتبر ظهورهم شديد الصعوبة، وهي حقيقة تلمسها لمس اليد اللبناني كلود قمير الذي يعمل في مجال الرسم الرقمي في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي بدأ قبل سنتين برنامجاً لتكنولوجيا الألعاب الإلكترونية والصور المتحركة في الحاسوب.

ونتيجة لذلك، أطلق قمير أول جامعة للألعاب الإلكترونية في أمريكا الشمالية. وفي العام 1994م، أصبحت "مؤسسة تكنولوجيا الرسم الرقمي" كلية معترف بها رسمياً (مدة الدراسة فيها أربع سنوات) وهي متخصصة في منح درجة بكالوريوس علمية في "التقليد التفاعلي للوقت الحقيقي" وتمنح مؤسسة الرسم الرقمي "Digipen" الواقعة قرب سياتل، واشنطن، شهادة البكالوريوس هذه في لبنان واليابان. وبينما يستمر النقاش بشأن ألعاب الكومبيوتر، فسيمضي أخصائيو هذه الألعاب أربعة أعوام بأيامها، من التاسعة صباحاً حتى العاشرة ليلاً، في تحسين معارفهم في علوم الفيزياء والحساب المتكامل واللوغاريتم. فإذا نجحت هذه الجهود، سيصلون في النهاية إلى إبداع فن جديد. وكما يحصل في كل فن، فسنجد من يجادل بطريقة أخرى.

1989
Sega تقدم **Genesis**

1991
Atari تقدم **Jaguar**

1993
السيناتور الأمريكي جوزف ليبرمان يطلب تحقيقاً شاملاً حول ألعاب الفيديو بهدف منع الألعاب العنيفة. لكنه لم يتوصل إلا إلى إنشاء لجنة تقويمية للألعاب تفرض كتابة نوع اللعبة و العمر المناسب على غلاف اللعبة

1995
Nintendo تقدم **Nintendo 64**

1995
Nolan Bushnell مؤسس **Atari** يدخل عالم الألعاب الإلكترونية بواسطة الإنترنت، أي أنه صار بالإمكان اللعب مع شخص آخر في بلد آخر في الوقت ذاته

1996
Tamagotchi الحيوان الأليف الوهمي، بيع منه **30,000** قطعة في ثلاثة أيام

1996
احتفال شركة **Sony** ببيع **20** مليون **PlayStation**

الجدال المقبل

لا شكّ في أن المستقبل سيحمل تطبيقات مدهشة في واقعية بعض الألعاب الإلكترونية.

المريدون والمؤيدون لها يشيرون إلى مقال نشرته مؤخراً صحيفة "نيويورك تايمز" عن تحسّن جراحة البطن بالمنظار من خلال الممارسة المسبقة للألعاب الإلكترونية. واعتمدت الصحيفة في هذا المقال على دراسة أجريت في أحد مستشفيات مانهاتن بولاية نيويورك وأظهرت أن أفضل مؤشر على المهارة اليدوية المطلوبة في عمل الطبيب الجرّاح لم يكن مؤشر اليد الثابتة أو سنوات الخبرة أو الجنس والعمر أو عدد الحالات السابقة التي عالجها الجرّاح، بل كان المؤشر في ما إذا كان الجرّاح يمارس الألعاب الإلكترونية أم لا! وتؤكد دراسات أخرى أن ممارسة الألعاب الإلكترونية تحسّن التكامل بين العين واليد، وتقدم بذلك منافع جمّة لممارسة الحركة التي تتطلب قدراً كبيراً من الإحساس بالمساحة والمسافة.

غير أن لواقعية الألعاب المتطورة وجهاً آخر مثيراً للقلق والتساؤل، أو لنقل أنه يضفي مزيداً من الجدية على السؤال القديم المتعلق بتنمية هذه الألعاب لمشاعر العنف والعدائية عند اللاعبين.

ففي الماضي بدا هذا السؤال متشائماً وسلبياً عندما كان اللاعب مثلاً يطلق النار على هدف مرسوم بشكل بدائي ولا يشبه الإنسان في شيء أو يشبهه قليلاً فقط. ولكن مع تحسّن الرسوم البيانية، وفي حال نجاح دمج السينما بالألعاب الإلكترونية بحيث يصبح الفلم السينمائي تفاعلياً يؤدي فيه اللاعب دور الجندي أو القاتل ويطلق النار مثلاً على أهداف صور أناس حقيقيين، ويمارس هوايته هذه لساعات وساعات.. ألا يصبح من الضروري جداً آنذاك قرع جرس الإنذار والمراقبة عن كثب (وبقلق مشروع) لما يمكن أن تكون عليه هذه الألعاب من حيث التأثير على النفسيات والأخلاق.. وهل سيكون من التجني آنذاك القول أن الألعاب الإلكترونية صارت "موزعة قيم وعادات"؟

سيتواصل النقاش. الأهل سيدعون إلى محاسبة أخلاقية، وهذا حق. وسيدافع مبتكرو الألعاب وصانعوها عن الحق في الاختيار والتعبير الفردي والمنفعة. وسيواصل العلماء دراسة الظاهرة. وفي بلادنا أيضاً سيبقى النقاش مثيراً ومتواصلاً.

فصناعة الألعاب الإلكترونية عندنا حديثة العهد. وهناك ما يكفي من الإشارات إلى أن رجال الأعمال يريدون أن يستثمروا أموالهم في هذه الصناعة. ويبقى الأمل في ألاّ تستمد ألعابنا العتيدة رواجها وهويتها من العنف. فمع تزايد أعداد المواهب المتطورة في البلاد العربية، سيكون بوسع المؤسسات قريباً إطلاق ألعاب يذهب فيها أبطال مثل ميّة وخالد في مغامرات مع ابن بطوطة، ويحلّان ألغازاً في رحلة عبر نهر النيل.

فإلى أين تسير هذه الصناعة؟ الوقت وحده سيحدد ذلك. غير أن النظرة التي ألقيناها على البدايات، تشير إلى أن الأمور تسير اليوم وفق ما يشتهي الصناعيون واللاعبون، وستبقى كذلك خلال المستقبل المنظور.



1997
Sega تقدم **Dreamcast**

2000
Sony تقدم **PlayStation2** التي باعت **500,000** وحدة في الساعات الأولى من طرحها في الأسواق

2001
Microsoft بالتعاون مع **Nintendo** قدمت **X-Box** أكثر ألعاب الفيديو تطوراً

قصة ابتكار

الزر

الزر، ذلك الشيء الصغير الذي يعيش معنا مثبتاً إلى ثوب أو سترة أو قميص، والذي لا نعيره اهتماماً بل نعتبره تافهاً وقد نضرب به المثل لضآلة قيمته، هو في الحقيقة تجسيد لابتكار متقن وتصميم فريد ولمواد ذات قيمة. وأول ما عُرف الزر كان في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد. إذ وجدت في إحدى قرى الهند صدفة منحوتة على شكل تعويذة تم قدح ثقبين فيها ويُعتقد أنها كانت تستخدم زراً. وعثر ستيوارت بيغوت، وهو منقب، على أزرار من الكهرمان الأسود في مواقع شمال إنجلترا واسكتلندا يعود تاريخها إلى بداية الألفية الثانية قبل الميلاد. وربما كان هذا الاكتشاف مؤشراً إلى سبب عدم استخدام البريطانيين في ملابسهم الدبابيس على غرار ما كانت الموضة عليه في منطقة البحر المتوسط إلى ما بعد الميلاد.

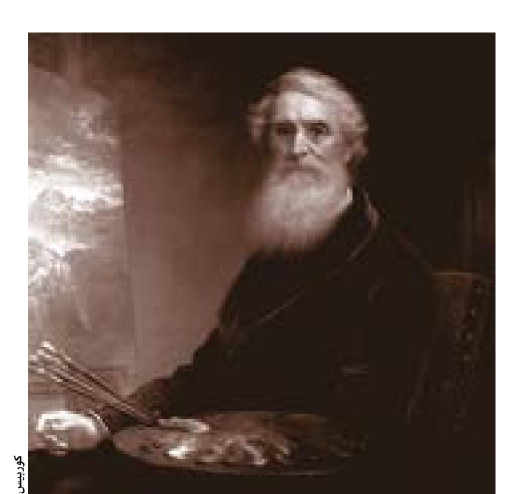
في أواخر العصور الوسطى شاع الزر كوسيلة للزينة في تصميم الملابس. وكلمة زر باللغة الفرنسية Bouton انبثقت من فعل Bouter، أي فعل الزخرفة عل حواشي الكتب أو الأدوات المعدنية. ومع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي اعتمدت الملابس في إنجلترا على الأزرار كزينة وكانت إما من الفضة أو المعدن المطلي بالذهب. وتطورت موضة الأزرار في القرن الرابع عشر الميلادي وصار يستخدم في صناعته النحاس والكريستال والزجاج أو المعدن المكسو بالقماش، وكانت تزين أكمام فساتين النساء من الكتف إلى الكوع. وتم العثور على كثير منها في المقابر الأثرية. وكانت هذه الأزرار تشير إلى مكانة صاحبها. فإذا كان الزر من حجر السفير والذهب والفضة والصدف فهذا يدل على مكانة مميزة لمستخدمه في السلم الاجتماعي. ولم تصبح الأزرار شعبية إلا عندما أصبحت رخيصة الثمن. وكانت برمنغهام تحولت إلى مركز للصناعة البريطانية للأزرار في القرن الثامن عشر الميلادي، وراح ثمن الزر يتدنى كلما زاد العرض، ودخلت المكننة في هذه الصناعة.

في بداية القرن التاسع عشر الميلادي عُرفت الأزرار المكسوة آلياً بالأقمشة أو بقطع من "الكانفا" المشغولة، ونافست هذه الأزرار أغلى الأنواع منها، لكن الأزرار المعدنية بقيت لها هالتها على البزّات الرجالية وتحديداً بزّات النبلاء. أما أزرار فساتين النساء فتفنن صانعوها بتحويلها إلى قطع فنية أشبه بلوحات رائعة ومنحوتات من العاج والصدف والأحجار الكريمة والبورسلين والمينا والموزاييك وصدف اللؤلؤ. إلا أن موادّ أخرى دخلت هذه الصناعة مساهمة في خفض ثمنها. فخلال القرن التاسع عشر الميلادي صارت الأزرار تصنع من الخشب وحوافر الماشية وقرون الحيوانات وعظامها، وحتى من بذور نباتية. ودخلت في القرن العشرين مواد البلاستيك والأحجار الزائفة في هذه الصناعة، ولم تعد صياغة الزر فنّاً يدوياً إنما آلياً.

لكنّ الابتكار في شكل الزر لم يتوقف ومنها أشكال قد لا تخطر على البال. وتراجعت الأزرار أمام وسائل جديدة واكبت الحياة العملية للبشر. فحلّ السحّاب على أنواعه محل الزر ثم اللاصق النسيجي... وتكاد موضة الأزرار تختفي عن الأزياء العصرية بعدما ظهرت الأقمشة المطاطية. وصار لهذا الابتكار الذي يعود إلى ما قبل الميلاد بآلاف السنين هواة يجمعون المميز منه كقطع نادرة.

قصة مبتكر

صموئيل فينلي مورس



ما من مبتكر مثير للدهشة من حيث تنوع الاهتمامات كما هو حال الأمريكي صموئيل فينلي مورس، الذي يُقال إنه يلخص بمفرده مفهوم العالِم المبتكر كما كان عليه في القرن التاسع عشر. ولد مورس في ولاية ماساشوستس الأمريكية عام 1791م. وظهرت موهبته الفنية باكراً عندما رسم صورة والده على درج المكتب وهو في الرابعة من عمره. أرسله والداه في العام 1805م إلى جامعة يال لدراسة الكيمياء والفلسفة. وهناك تابع على هامش دراسته محاضرات في الكهرباء كان يلقيها البروفسور جريميا داي. وفي أوقات الفراغ كان يرسم. عاد إلى بوسطن ليدرس فن الرسم عند واشنطن الستون المعروف. وفي العام 1811م، سافر إلى لندن لمتابعة الدراسة في الأكاديمية الملكية للفنون. وحظي بشهرة كبيرة في مجال رسم صور الشخصيات. وفجأة في العام 1818م وعلى هامش الرسم، اشترك صموئيل مع أخيه سيدني في العمل على اختراع نوع جديد من مضخات الماء! وبعد ذلك، في العام 1823م اخترع جهازاً ميكانيكياً لقطع الرخام كان يتوخى منه إمكانية نحت عدة نسخ متطابقة تماماً من أي نموذج.

وعاد شغفه بالكهرباء إلى الظهور سنة 1832م، عندما كان في باريس، وحضر مناقشات عديدة حول هذا الموضوع، وهناك خطرت في باله فكرة أسرّ بها إلى أحد أصدقائه قائلاً: "إذا كان من الممكن أن نجعل مرور الكهرباء في الأسلاك مرئياً بأي شكل وفي مرحلة معينة، فلا أرى سبباً يحول دون نقل المعلومات فوراً عبر الأسلاك". وبدأ الرجل العمل على مشروعه. اختصر الأبجدية أولاً إلى رموز مؤلفة من خطوط قصيرة ونقاط. وبدأ في نيويورك العمل على مشروعه عام 1835م. وتوصل لاحقاً إلى تصميم أول جهاز نقل الرموز المرئية المتعارف على تمثيلها للأحرف ضمن أسلاك بلغ طولها 1700 قدم. وأجرى التجربة الأولى بنجاح في العام 1837م. فكانت المرة الأولى التي يتم فيها نقل معلومة معينة بواسطة الكهرباء. وخلال سنوات قليلة انتشر اختراعه في العالم بأسره. وبناء على طلب من الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث اجتمع ممثلون عن فرنسا والنمسا والسويد وروسيا وسردينيا وهولندا والسلطنة العثمانية وتوسكانة وأقروا في باريس سنة 1858م، مكافأة مشتركة لمورس مقابل حق استعمال اختراعه، بلغت قيمتها 400 ألف فرنك ذهبي..!

طغت شهرة الاختراع على قيمة لوحات مورس التي كادت أن تدخل طي الإهمال والنسيان، إلى أن أقيم معرض استعادي لأعماله في العام 1932م أعاد الاعتبار إلى قيمتها الفنية وعبقريته. وكان المعرض مناسبة ليكتشف العالم أن مخترع التلغراف الكهربائي لم يكن رساماً فقط، بل أيضاً شاعراً نشر عدداً من القصائد في مجلة "أمريكان ريفيو" وحرر كتاب "بقايا لوكريشيا ديفدسون" (1829م)، وألف مجموعة كتب حول السياسة والحريات.

توفي مورس في العام 1872م، ويقال أن ورثته لم يعثروا من بعده على تركة تستحق الذكر، إذ كان قد عمل على توزيع ثروته الطائلة خلال حياته على المؤسسات العلمية، والجامعات (يال وفاسار) وصولاً إلى الفقراء من طلاب الفنون.

اطلب العلم

أسئلة جديدة عن الأمانة العلمية!!

التحيُّز، التضييق، الانتحال... مفردات يمكن أن يسمعها المرء في حديث يتناول مؤسسة صغيرة تتعاطى الأعمال التجارية في بلد لا هيبة للقانون فيه.. ولكن المفاجأة هي أن هذه المفردات قفزت إلى عناوين أخبار ومقالات تناولت أهم الصروح العلمية وبعضاً من ألمع العلماء في العالم.

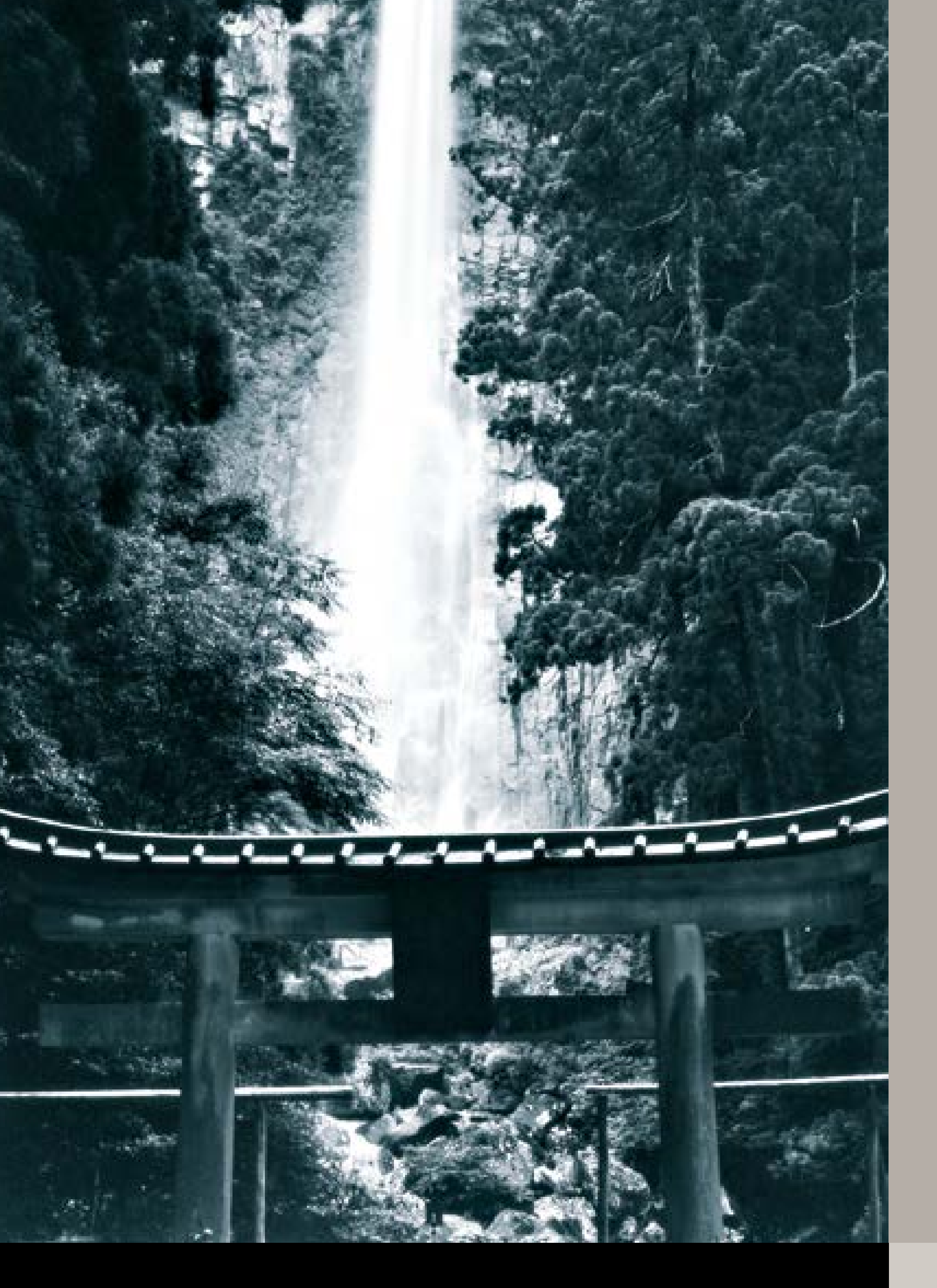
فقد أوردت صحيفة "لوس أنجلس تايمز" أن بعض كبار العلماء المتعاقدين مع المؤسسة الوطنية للصحة في أمريكا، ينشرون أبحاثاً كثيرة ذات نتائج متميزة لصالح بعض شركات الأدوية مقابل رشاوى كبيرة. وقد سئل مدير المؤسسة إلياس زرعوني عن الأمر فقال إنه يتم التدقيق في ذلك. وكانت هذه المؤسسة التي تملك أكبر حرم جامعي للأبحاث في العالم بولاية مريلاند، قد أعطت العلماء الحق بتقديم استشارات خاصة للشركات والاحتفاظ بها.

وعندما لا تجدي الرشاوى نفعاً، يبدو أن التضييق يتولى المهمة. فقد شكا أربعة علماء كبار في جامعة بيركلي من أن بعض الشركات الكبرى تمارس ضغوطاً عليهم لعدم نشر النتائج العلمية المتعلقة بمخاطر "التكنولوجيا الإحيائية". وعندما سُئل أحد هؤلاء العلماء عن أدلة تؤكد أن هناك من خسر وظيفته نتيجة ذلك، أجاب: "الناجون من ذلك هم نحن الأربعة فقط"!!

من جهة أخرى وعلى صعيد أخطر من ذلك وأبشع منه كشفت نشرة "مايو كلينيك" أن تزييف الأبحاث العلمية ونتائجها يمكن أن يصل إلى مستويات عليا غالباً ما تتمتع بحصانة مهنية وأخلاقية تجعلها فوق الشكوك.

فالعالم بأسره يذكر التعليقات المتفائلة حول موضوع "الانصهار البارد"، وما ينتج عنه من طاقة بكلفة رخيصة كما جاء في الأبحاث الخمسة والعشرين التي نشرها العالم المرموق يان هندريك شون حتى العام 2002م. وقد تبين في ما بعد عندما تم فحص ذلك بدقة أنها كانت مزيفة تماماً، حتى أن العالِم "اخترع" نتائجه من دون إجراء أي اختبار!

وفي جامعة كامبردج في بريطانيا، وتحديداً في قسم علوم المعادن، كان الباحث يونغ بارك قد نشر سلسلة من الأبحاث بين العامين 1997 و 2001م، وتبين بعد تحقيق أجرته مجلة "Nature" أن ثمانية من هذه الأبحاث على الأقل كانت منتحلة، تم سحب أربعة منها من على الإنترنت. والتحقيق مستمر في شأن 80 مقالة أخرى. أما العالِم بارك فقد اختفى منذ تفجر الفضيحة ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.



■ كيجورو ياهاجي

عدسة يابانية

المصور والمصمم كيجورو ياهاجي من مواليد العام 1952م في ياماجاتا باليابان. تخرّج من جامعة طوكيو للفنون الحرة عام 1974م، ومن مؤسسة كوازاوا للتصميم عام 1976م. حاز على جوائز عالمية عديدة في التصوير الفوتوغرافي والتصميم. والأعمال التي تختارها القافلة هي من معرضه "اليابان المختبئة"، الذي يجول العالم منذ عدة أشهر، مروراً بعدد من البلدان العربية.



لا تقاطعني.. فأنا لم أقاطعك

أدى انتشار البرامج الحوارية في الفضائيات العربية إلى تطوير ثقافة الحوار أكثر من أي وقت مضى سواء لدى المتحاورين أو الجمهور العربي.

في البداية، كان الحوار الفضائي مطبوعاً بنقص في أسلوب وأدبيات الحديث والاستماع. فكان أكثر ما ينتج عنه صراخ متشنج تضيع خلاله مجمل الأفكار المطروحة. وكذلك كان الحال لدى المتصلين عبر الهاتف، وكثير منهم يتخبط في إيصال الفكرة التي اتصل من أجلها، في حين اتجه آخرون نحو التجريح الشخصي بدلاً من نقد الفكرة التي يطرحها الخصم بشكل موضوعي.

ورغم سلبية المعطيات السابقة، إلا أنها أدت إلى نتائج إيجابية. وفجأة اكتشف كثير من المشاهدين العرب أن ثقافة الحوار التي تطرقت إليها (القافلة) في ندوة هذا العدد هي ثقافة اقتباسية، تتطور بالممارسة وتبدأ داخل المنزل منذ وقت مبكر حين يراقب الصغير ما يدور حوله بين أمه وأبيه وبقية أعضاء العائلة، فيبدأ في التقاط وتلقي مفردات الحوار الدائر وملامح أسلوبه مهما كانت صفته ويقلده ويتأثر به. ويكرر الصغير الأسلوب الأكثر تأثيراً عليه في حواره مع أنداده أو حتى مع والديه ويحمله معه حتى مرحلة تكوين أسلوبه الخاص عندما يخرج من المنزل إلى المدرسة والمجتمع الأكبر حيث تتنوع الأساليب والمواضيع وتتعدد.

بعدما رأى المحاورون في الفضائيات أنفسهم برؤية نقدية، بدأ التشنج يتلاشى تدريجاً، وأصبحت جمل من قبيل "لا تقاطعني فأنا لم أقاطعك" تدل على تنامي الوعي بأدبيات الحوار. ولا ينكر أحد منا كمشاهدين أنه استفاد أيضاً ولو نسبياً من هذه البرامج الحوارية في تطوير أسلوب ومفردات حواره بعد أن شاهد الناس قبح التشنج على الهواء وأثره في نفس المتلقي، كما شاهدوا وأحسوا بعمق تأثير من يبدو أنه صاحب المعلومة الهادئ الواثق مما يقول.

وما تعلمه الناس أيضاً، هو أن الحوار الحقيقي يدور في الغالب بين قناعات فيها خلاف وإلا كان الحوار من قبيل "الدعوة في المؤمنين". كما تعلّموا أن المحاور الجيد هو من يمتلك عادة، إلى جانب المعلومات الدقيقة والمتعددة، معرفة جيدة بالأفكار والسيكولوجية الشخصية لخصمه في الحوار وقراءة مواطن القوة ونقاط الضعف فيها، لكي يوظف ذلك كله في بناء استراتيجية للحوار تتجنب العاطفة، وتسخّر أساليب المناورة لصالح فكرته بطريقة جذابة.

لعل ذلك التأثير يستمر ويتغلغل حتى يصبح منهجاً للحوار الإيجابي بكافة أشكاله ومع كافة الناس الذين نخالفهم الرأي. أي أن يضع الإنسان نصب عينيه هذه الأدبيات والأساليب المؤثرة، وأهمها رحابة الصدر للرأي الآخر والابتعاد عن التشنج والعصبية حتى وهو يحاور أبناءه وزوجته وسائقه وزملاءه والإنسان الذي يختلف معه في الشارع. هنا ستصبح ثقافة الحوار سبيلاً للوصول إلى عقلنة الخلاف، واستئصال التصادمات في المجتمع من البيت إلى الفضاء.

خالد الطويلي



ما الذي حلّ بالهواية الجميلة، هذا الشغف البريء الذي كان يملأ بالفائدة أوقات فراغ الكثيرين؟ تراجعت.. تحولّت عمّا كانت عليه.. انقرضت.. تختلف الأجوبة والتقديرات باختلاف الناس. وربما كان في الجواب الذي يعرضه الزميل عبّود عطية شيء من كل هذه الاحتمالات..

لكل منها سيرتها الخاصة..

زمن الهواية الجميلة..

ما هي هواياتك؟
عندما نسمع هذا السؤال يطرح اليوم، فإننا غالباً ما نسمع جواباً يقول: "المطالعة.. المشي.. متابعة المباريات الرياضية.." ولكن عندما كان يُطرح هذا السؤال قبل ثلاثة أو أربعة عقود من الزمن، كان الجواب غالباً: "جمع الطوابع، النقود الأجنبية، الفراشات، البطاقات البريدية، .." وهذا ما لم نعد نسمعه اليوم وكأن الهوايات الجميلة انقرضت، ويسعى الكثيرون إلى سدّ الفراغ الذي خلّفه انقراضها من خلال تصنيف بعض العادات السلوكية على أنها هوايات. وأكثر من ذلك، فإن زعم فلان أن هوايته المطالعة والرياضة فقد صدقيته لكثرة ترداده حتى صارت هذه العادات السلوكية - حقيقية كانت أم مزعومة - هوايات من لا هواية لهم. فما هي الهواية التي نقصدها في مقالتنا هذه؟

الهواية مِنْ هوى

تبدأ الهوايةُ بشكل عام ميلاً إلى شيء معيّن يتحول شغفاً وسعياً إلى اقتناء عيّنات منه. ويستحوذ هذا الاهتمام على وقت ملحوظ من أوقات الفراغ عند الهاوي، وغالباً ما يثمر "مُلكية" غالية على قلب صاحبها الذي بناها ببطء واستمتاع.

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى التفريق بين نوعين من الهوايات:

1 - الهوايات الجميلة - نسميها اصطلاحاً كذلك - وهي الهوايات التي يمكن لأي كان أن يمارسها اعتماداً على ما توفره دورة الحياة وحركتها في محيطه، ولا تشترط قدرات مالية ملحوظة مثل جمع الطوابع، النقود الأجنبية، الملصقات، الفراشات، الأصداف البحرية.. وهذا النوع من الهوايات هو موضوع بحثنا الأساس هنا.

2 - الهوايات الاستثمارية، ونسميها كذلك حتى ولو كانت قائمة على الشغف بموضوعها ولغايات غير تجارية، نظراً للقدرات المالية الضخمة التي تتطلبها، بحيث أنها تبقى حكراً على الأثرياء مثل جمع اللوحات الفنية والتحف الأثرية والمخطوطات والأحجار الكريمة وما شابه..



والواقع إن الحدود الفاصلة بين هذين النوعين من الهوايات غير محددة بدقة. إذ يمكن للهواية الجميلة أن تتحول بمرور الوقت وتنامي الاهتمام بها إلى هواية استثمارية. فكل جامع طوابع يحلم بأن تضم مجموعته طوابع نادرة وباهظة الثمن، وعندما يشتري مجموعة صغيرة ليضمها إلى مجموعته يحلم بأن يكون من ضمنها الطابع - الثروة. كما أن جامع النقود القديمةالذي قد يكتفي في مرحلة أوليّة بجمع القطع التي بطل استعمالها منذ سنوات قليلة، قد ينجرف بمرور الوقت وتنامي قدراته المالية إلى اقتناء العملات الأثرية النادرة وغالية الثمن.

جمع الطوابع من اكثر الهوايات انتشاراً، تليها العناصر الجميلة من الطبيعة: الفراشات، الأحجار، الأصداف، وغيرها الكثير.

كانت الهوايات الاستثمارية المكلفة مادياً موجودة دائماً عند الأثرياء والمشاهير الذين وصلتنا أخبارهم في كتب التاريخ. أما الهوايات الجميلة التي أشرنا إليها أعلاه وعرفت أوج ازدهارها وانتشارها عالمياً خلال منتصف القرن العشرين، فقد ظهرت خلال القرنين الماضيين.

ففي القرن التاسع عشر الميلادي ومع تطور علم الأحياء ظهرت هوايات مثل جمع الأصداف البحرية والفراشات والنباتات المجففة. وعندما ظهر الطابع البريدي الأول في منتصف ذلك القرن توافرت مادة هواية جديدة تأسست فعلاً وصار لها آلاف الهواة خلال أقل من عقدين، وأدى ظهور علم الآثار وتفجر الاهتمام الهائل بكل ما هو قديم إلى إطلاق هواية جمع النقود القديمة التي كانت زهيدة الثمن في سنواتها الأولى. أما في القرن العشرين فإن تطور حركة النقل والسفر أسس لمجموعة هوايات جديدة لم تكن ممكنة سابقاً مثل النقود الأجنبية، البطاقات البريدية، علب الكبريت، التذكارات الفولكلورية وما شابه..

نافذة على العالم

ولكن أين يكمن سرّ جاذبية هذه الأشياء؟ وما هي قيمتها الحقيقية عند الهاوي؟

إنها أشياء جميلة ولا شك، أو على الأقل إن هاويها يراها كذلك. ولكن الهواية الجميلة هي أكثر من ذلك، إنها نافذة يطلّ منها الهاوي على العالم ويتواصل معه، فيسافر من خلالها إلى زوايا يستحيل عليه أن يصل إليها عبر وسائل أخرى. إنها وسيلة تثقيف وتنوير بالغة الأهمية. ولنأخذ طوابع البريد مثلاً وفي أكثر أشكاله بساطة.

ينتزع الهاوي الطوابع عن الرسائل ويجمعها في "ألبوم" مخصصاً مساحة معينة لطوابع كل دولة على حدة. ولأن قانون هذه الهواية يقول إنه يجب أن يكون كل طابع مختلف عن الآخر وأن يكون سليماً تماماً، ولأن الاختلافات تكون أحياناً في نطاقات ضيقّة جداً مثل اللون أو السعر فهو مضطّر إلى أن



يتطلّع إلى كل طابع بإمعان وأن يدقّق فيه..
ولكنه خلال هذا التدقيق يطلّع على ما هو أكثر من حالة الطابع ونوعيته. فدول العالم تحمّل طوابعها صور شخصياتها التاريخية والوطنية والثقافية الكبرى، وصور معالمها الجغرافية والاقتصادية والسياحية، وإشارات إلى مناسبات علمية أو اجتماعية أو وطنية.. وعَرَضاً أكثر مما هو عمداً يطلّع الهاوي على كل هذه المعلومات. معلومات أوليّة.. ولكنها شاملة وذات تنوّع في "الألبوم" الواحد أكثر مما هي عليه في عشرات الكتب.. وبارتقاء سلّم الهواية قليلاً، يشتري الهاوي مجلة متخصصة في الطوابع. فيطلع منها بتفصيل أكبر عن المناسبة التاريخية التي كانت وراء إصدار هذا الطابع أو ذاك.. كما أن جمع النقود القديمة يدفع الهاوي خلال ترتيب مجموعته أو تقييم كل قطعة جديدة إلى مراجعة التاريخ.. وهكذا. فإن "وقت الفراغ" الذي تحتاجه الهواية هو في الواقع وقت تثقيف واطلاع يكمل على أفضل وجه المهمة التي يتولاها التعليم..



جمع العملات: المعدن والورق، القديم والجديد.

بين الأمس واليوم

الذين بلغوا الأربعين أو الخمسين من العمر يذكرون ولا شكّ المكانة التي كانت للهواية الجميلة في حياتهم، وفي حياة معظم الذين عرفوهم خلال فتوّتهم وشبابهم. ومن المرجح أن العصر الذهبي لهذه الهوايات كان عالمياً خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين الميلادي. أما اليوم، فإن نظرة خاطفة على اهتمامات الشبان (وحتى من هم أقل شباباً) تؤكد انحساراً واضحاً للاهتمام بالهواية الجميلة، وهذا الانحسار يصل إلى حدود الغياب التام عند بعض الشرائح الاجتماعية. ومن المدهش أن بعض شبان اليوم ممن لم يتجاوزوا العشرينيات من العمر لا يعرفون أن طوابع البريد يمكن أن تكون مادة للجمع!!

الاهتمامات التي تملأ الفراغات في أوقات شبان اليوم كثيرة: الرياضة (متابعة أكثر مما هي ممارسة)، الإنترنت، الموسيقى، التلفزيون.. الخ. ولكن الهواية كما عرفت خلال العقود القليلة الماضية تبدو غائبة عن هذه اللائحة. فلماذا؟

عوامل التغيير

يحاول الكثيرون قراءة انحسار الهواية الجميلة على ضوء المتغيرات التي طرأت على حياتنا الاجتماعية. وهم في ذلك على حق.

من أبرز هذه المتغيرات يمكننا أن نذكر اثنين:

أولاً: تنوع المنافذ على المعرفة والتواصل مع العالم. فوسائل الاتصال الحديثة من تلفزيون وإنترنت وصحف ومجلات أفقدت المعلومة المتوافرة على طابع البريد بريقها، وصارت تُزاحمها، بحيث أن تقليب قنوات التلفزيون صار يؤمّن تنوعاً في المعلومات مماثلاً لتنوع المعلومات التي تحملها صفحة من "ألبوم" الطوابع.

ثانياً: تغيّر نمط الحياة اليومية. والمسألة لا تكمن هنا في توافر وقت الفراغ الضروري للهواية كما قد يعتقد البعض. ولكن في فقدان الاستقرار المكاني خلال أوقات الفراغ. فالملاحظ أن شبان اليوم يمضون في منازلهم أوقاتاً أقل بكثير من تلك التي كان يمضيها آباؤهم خلال أوقات فراغهم.. في حين أن تمضية بعض وقت الفراغ في المنزل يعتبر شرطاً لا غنى عنه للاهتمام بالهواية الجميلة وصيانتها وتغذيتها.

إلى ذلك يمكننا أن نضيف عاملاً نفسياً عاماً، يكمن في أن الهواية تحتاج إلى تركيز ذهني وعاطفي من قبل الهاوي. في حين أن الحياة

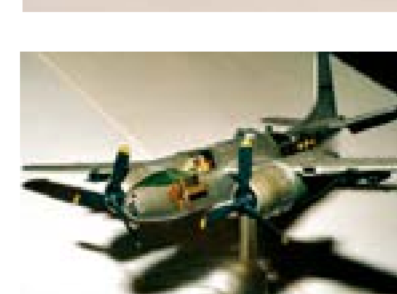






مجسمات القطارات: من اكثر الهوايات اعتماداً على المهارة اليدوية.





حين كانت الطائرة لا تزال آلة جديدة مفاجئة، كان الكثير من الشبان والكبار يستمتعون بتركيبها منزلياً، وسبقتها السفن الشراعية والبخارية.

الحديثة بمعطياتها الثقافية والمعيشية اليومية تجذب انتباه الفرد في اتجاهات مختلفة ومتتابعة من دون انقطاع. فمن ملاحقة الأخبار السياسية العالمية إلى الأحداث الاجتماعية، إلى الجديد في عالم الاختراعات والأدوات الاستهلاكية.. هناك جديد في كل لحظة يشدّ انتباه الفرد ويدعوه إلى اتخاذ موقف منه، بحيث أن التركيز على الهواية الجميلة الصامتة التي تستوجب الاهتمام المتواصل وببطء، صار اليوم أصعب بكثير مما كان عليه قبل ثلاثين أو أربعين سنة.

والهوايات تقضي على نفسها

إضافة إلى ذلك، هناك عوامل أدت إلى انحسار الهوايات الجميلة، نمت في صلب هذه الهوايات وأدت إلى تحريفها عن مسارها. ومن أبرزها العامل الاقتصادي. فمن المفترض في ارتفاع دخل الفرد مثلاً خلال انتقاله من فتوّته وشبابه إلى سنّ الإنتاج والعمل أن يزيد من اهتمامه بهواياته الجميلة ويسهل عليه تنميتها. ولكننا نجد هنا أن ارتفاع دخل الفرد يتلاقى مع عوامل تجارية مختلفة تذهب به في واحد من اتجاهين: إما الإشاحة بنظره نهائياً عن هواياته، وإما التحول بها إلى هواية استثمارية أي إلى ميدان يودع فيه أمواله أملاً في أن يحصل لاحقاً على عائدٍ أكبر.

المسار الأول يبدو مدهشاً حقاً. ولكننا نتفهمه عندما نشير إلى أن ازدهار الهوايات الذي عرف أوجه خلال القرن العشرين أدى إلى ازدهار في تجارة سلعها المختلفة. فبعدما كان هاوي الطوابع مثلاً يستمتع باستلام أية رسالة لضمّ طابعها إلى مجموعته، صار يجد في المتاجر المتكاثرة مجموعات كاملة من الطوابع العائدة إلى كل بلدان العالم قديماً وحديثاً. وبعد ما يكون قد أمضى سنوات ليجمع ألف طابع مثلاً، صار بإمكانه أن يشتري ألف طابع بثمن لا يؤثر على ميزانية مصروفه الشخصي.. وبعدما كان هاوي جمع الفراشات أو الأصداف يستمتع في تخصيص يوم عطلة لرحلة صيد يعود منها بثلاث أو أربع فراشات أو صدفتين من شاطئ البحر.. صار بإمكانه أن يشتري بدراهم قليلة من متجر مجاور فراشات وأصداف من كل بقاع العالم، مصنفة علمياً حسب نوعها وفصيلتها، ما عليه إلا أن يدفع ثمنها ويضمها إلى مجموعته. وهذا ما يفقده الزخم العاطفي الذي كان يشعر به تجاه أشيائه الجميلة، فيشيح بنظره عنها ويهملها.



انتصار الاستثمار على المتعة

ما سقناه سابقاً عن انحسار الهواية الجميلة قد يوحي خطأً أنها انقرضت، ولكن الأرقام تشير إلى عكس ذلك. ففي فرنسا يبلغ عدد هواة جمع الطوابع نحو ربع مليون شخص، وفي بريطانيا نحو ضعف ذلك. وفي أمريكا يبلغ عدد هواة جمع النقود القديمة فقط نحو نصف مليون.. ولكل هواية من هذه الهوايات وغيرها مجلات متخصصة بعضها شهري وآخر فصلي.. و"كتالوجات" سنوية للتصنيف والتسعير. فتحالف المتغيرات الاجتماعية مع العوامل الاقتصادية لم يؤدِ إلى انقراض الهواية الجميلة بل إلى الانحراف بها نحو "التخصص"، حتى ولو بقي الشغف العاطفي سيّد هذا التخصص، ولم يصل الدافع إلى حدود الاستثمار بالمعنى الدقيق أو كهدف بحد ذاته.

وما المقصود بالتخصص؟

لو بقينا في مثال هواية جمع الطوابع لوجدنا أن هواتها الجدد أو القدامى الذين جددوا شكل اهتمامهم بهواياتهم لم يعودوا مهتمين بجمع أي طابع كان طالما أن الأمر لم يعد له مبرره التثقيفي القديم، ويسهل الوصول إليه في أي وقت وأي مكان. صار الهاوي مثلاً يتخصص في جمع طوابع دولة

معينة، وربما خلال مرحلة معينة. يقتفي النادر والقيّم منها طالما أنه يستطيع أن يدفع ثمنها، يتابع أخبارها في المجلات، وتقلبات أسعارها، ويقتني أيضاً الأشياء والأدوات المتعلقة بصناعتها إذا تمكن من ذلك مثل الكليشيهات الطباعية أو التجارب الطباعية الأولى.. وهناك هوايات كثيرة ذات امتدادات أكثر من ذلك وتجذب الهاوي إلى الإحاطة بها. فالذي يهوى جمع الآنية الخزفية مثلاً يقتني إضافة إلى الآنية بحد ذاتها، كل ما كتب عن صناعتها، ويزور مصانعها، ويضيف إلى مجموعته صور أشهر صانعي الآنية الخزفية، وأدوات الصنعة.. هذه الإحاطة الشاملة بموضوع الهواية لا تكون بهدف التعامل معها على أنها "مهنته"، بل صارت شرطاً للحفاظ على قيمة المجموعة المقتناة بعدما صارت الهواية مكلفة بشكل ملحوظ على الصعيد المادي.

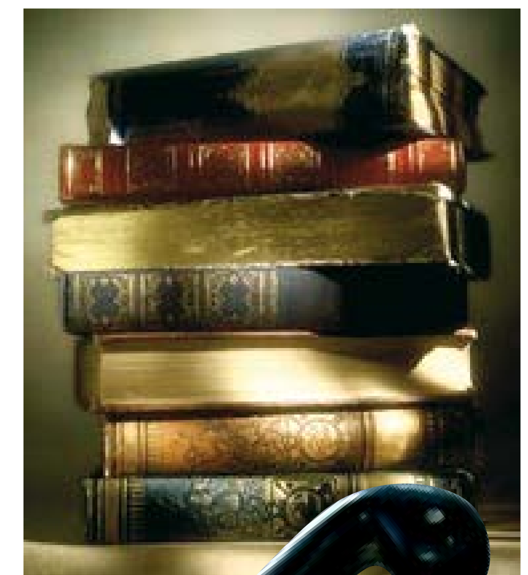
فمقابل تراجع الهاوي المستمتع بهوايته، تقدّم الهاوي المتخصص في هوايته. وبعدما كانت الصُدف أو الجهود الفردية في أساس نشاط الهاوي سابقاً، صار البحث وحسن الاختيار وإلى حد ما العامل المادي من أسسها الجديدة. والعوامل نفسها التي أضرّت بالهواية الجميلة كما عرفناها تقليدياً، هي نفسها التي تدعم الهواية المتخصصة أو الهواية الاستثمارية. فالكمبيوتر والإنترنت مثلاً اللذان نافسا الهواية الجميلة على وقت فراغ الفرد، ووفرّا مصدراً تثقيفياً وقنوات اتصال أقوى مع العالم، يفتتحان اليوم آفاقاً شاسعة أمام الهواة للاتصال ببعضهم وتبادل المعلومات فيما بينهم، واستعراض ما لدى كل واحد منهم للبيع والشراء أو المقايضة.

من الهوايات النسائية تجميع دمى من البلدان المختلفة

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن مصادر الهوايات تختلف من هواية إلى أخرى. ففي حين يمكن الجزم بأن هوايتي جمع الطوابع والنقود ازدادتا أهمية (وثمناً) في صفوف المهتمين المتخصصين وإن قلّ عددهم بشكل كبير عما كان عليه، فهناك هوايات تبدو غير قابلة للتطور ودخول بورصة الهوايات المكلفة مادياً مثل جمع علاّقات المفاتيح أو علب الكبريت أو أكياس الورق أو الشموع أو الزهور المجففة وكل شيء من هذا القبيل يمكن إعادة إنتاجه من قبل الإنسان. فهذه الهوايات تقتصر قيمتها على إشباع مزاج فني وذوقي معين عند هاويها، ومن السهل جداً أن تفقد بريقها في نظر صاحبها الذي يتوقف عن متابعتها ضجراً منها، والحقيقة هي أنه يجد نفسه بعد وقت معين أمام طريق مسدود، أو قل طريق دائري لا يؤدي إلى أي أفق جديد.

فلكل هواية سيرتها الخاصة. غير أنها كلها، سواء أكانت تتناول البطاقات البريدية أم أغلى أنواع المجوهرات القديمة، تشترك في سمات أساسية ما بينها، ومنها إقامة علاقة جميلة ما بين الهاوي والشيء، وإشباع غريزة التملك عنده، والإحساس بالتواصل مع العالم ومسيرته التاريخية أو الطبيعية.

ولكن، في حين لا تؤكد الهوايات الاستثمارية شيئاً أكثر من القدرات المالية لصاحبها وخبراته الفنية في مجال هوايته، فإن الهواية الجميلة، حتى ولو صارت متخصصة، تشير بشكل غامض إلى أن ممارسها شخص مستقر، عارف بالأمور، منهمك بالمفيد.. بعبارة أخرى: إنه يسير في طريق حسن.



من السيف إلى الكتاب، سلسلة طويلة من المقتنيات الثمينة التي يهواها عشاق القديم

صور الموضوع: المحترف السعودي

أشياء كثيرة.. لمن يهوى

هناك أشياء لا حصر لها يمكنها أن تكون موضوع هواية تأسر دون غيرها لبّ هاويها، وتتراوح هذه الأشياء ما بين أزرار الملابس والسجاد العجمي، وعلب الكبريت والمفروشات الأثرية، والبطاقات البريدية واللوحات الفنية، والمفاتيح المنزلية الرخيصة والمجوهرات القديمة... الخ.

وإضافة إلى الأشياء المحددة بكل ما فيها كقطع كاملة متكاملة، يتحدد نوع الهواية أحياناً بمادتها وليس بموضوعها مثل النحاس أو الفضة، فيبدأ الهاوي بجمع القطع النحاسية أو الفضية التي تقع عليها يداه بغض النظر عمّا تمثله هذه القطعة أو تلك.

وأحياناً يكون محور الهواية موضوعاً معيناً بغض النظر عن مادته. فهناك من يشعر بميل خاص إلى حيوان معين كالفيل، فيبدأ بجمع كل ما يمكنه أن يمتّ إلى الفيل بصلة مهما كانت مادته سواء أكانت من خشب أم من ورق أو ذهب.

وأحياناً يجد الهاوي متعته في تأسيس هواية لم يسبقه إليها أحد. مثل جمع أشياء لم يفكر أحد بجمعها من قبل وكان يتم التخلص منها، أو تبقى مهملة، ولكن من النادر أن يكتب لهذه المحاولات نجاح طويل الأمد أو الشيوع واكتساب هواة آخرين.

إلى ذلك تجدر الإشارة إلى أن كل هواية ترتبط بجملة معطيات تجعلها أكثر شيوعاً في بعض الأماكن من غيرها. فجمع الطوابع مثلاً كان أكثر الهوايات رواجاً في صفوف الطلاب. ولكن عدد هواته كان ينخفض بعد تخرّج هؤلاء وانتقالهم إلى ميدان العمل. في حين أن هواية جمع النقود القديمة لا تبدأ عادة إلا بعد نضوج الشخص وازدياد وعيه وتعلقه بالتاريخ.

ومن الطبيعي أن تنحصر هواية جمع الأصداف البحرية في سكان السواحل وألاّ تجد جمهوراً يستحق الذكر بين سكان الجبال البعيدة عن الشواطئ. فالعامل الجغرافي مهم بدوره.

أما العامل الاقتصادي فهو يتدخل في كل شيء، بدءاً من تحديد الهواية وآفاق توسعها، وما إذا كانت ممكنة أصلاً أم لا.

ويختلف شكل العلاقة ما بين الهاوي وهوايته حسب نوعها. ففي جمع الطوابع مثلاً تكون على درجة عالية من الحميمية، إذ نادراً ما يشاهد أحد غير الهاوي مجموعته. ولكن الحال يختلف تماماً أمام التحف الفنية والسيارات القديمة مثلاً، حيث يتميز دور المجموعة المقتناة بطغيان الظهور الاجتماعي على الأبعاد الثقافية التي يفترض بها أن تميز الهواية الجميلة، حتى تبدو مثل هذه المجموعات وكأنها لم تكن إلا لإظهار المكانة الاجتماعية لصاحبها.

وأخيراً هناك هوايات يرتبط عمرها بظروف تاريخية معينة، وتنقرض فعلاً بتغير هذه الظروف. فمع الثورة العلمية التي شهدها القرن التاسع عشر وتزايد الاهتمام بالأبحاث العلمية، راجت في أوروبا هواية جمع أجنة الحيوانات المحنطة في أوعية زجاجية. ولكن هذه الهواية انقرضت لاحقاً، بعدما انقلبت الدهشة والإثارة العلمية تقززاً من منظرها البشع الذي لا فائدة تثقيفية تُرجى منه.



النوم.. سلامته وأمراضه

مقابل الضجيج الذي تثيره بعض الأوبئة والأمراض، هناك تجاهل لمسائل صحية بالغة التأثير على حياة الإنسان، ومنها النوم الذي قلّما ننتبه إلى أهميته.
الزميل أمين نجيب يحدثنا عن الدور الحيوي الذي يلعبه النوم في حياتنا، والانعكاسات الخطيرة التي يمكن أن تنجم عن نقصه، وصولاً إلى طائفة خاصة من الأمراض تعرف باسم أمراض النوم.

رغم أن النوم جزء أساسي من حياة جميع المخلوقات، ورغم أننا نحن البشر نقضي ثلث عمرنا في النوم، فإن هذا الشأن الحيوي لا يزال الأكثر عرضة للإهمال من قِبلنا ومن قِبل العلم، فحتى اليوم لا نزال نجهل ما هو النوم. وإن تمكنت بعض الأبحاث العلمية الحديثة جداً من تطوير بعض النظريات حول ما يحصل لجسم الإنسان خلال النوم، وحول ما هية النوم بشكل عام، فإن السؤال الأصعب وهو "لماذا ننام؟" لا يزال في إطار التكهنات والنظريات القديمة. والكتابات العلمية ذاتها لا تزال قليلة ومحدودة جداً، لكنها بدأت تتقدم مع تقدم علم الدماغ والأعصاب وباقي العلوم الأخرى.

> **ترتيب المعلومات المكتسبة، وصيانة الخلايا العصبية وإعادة التزود بالطاقة، من أبرز مهمات الدماغ خلال النوم**

ما هو النوم؟

على عكس النظريات العلمية الحديثة، كان ينظر إلى النوم عبر التاريخ على أنه حالة غيبوبة تامة تتعطل فيها جميع أعضاء الجسم البشري ووظائفه، إنه توقف النشاط الدماغي. ودخلت الأحلام في نطاق علم النفس والتحليلات الفلسفية، واعتبر فرويد أن الأحلام ما هي إلا انبعاث للمشاعر والرغبات اللاواعية، وأن أفضل أنواع النوم هي التي لا وجود للأحلام فيها. وجاء العلم الحديث ليقلب كل هذه المفاهيم رأساً على عقب.

هناك عدة نظريات حول ماهية النوم ووظيفته. وبعضها يتضارب أحياناً مع الآخر، ولكنها تجمع على أن النوم حالة من النشاط الدماغي المكثف والمعقد (عكس النظرية القديمة). وهذا النشاط المحموم الذي يشمل أيضاً الخلايا العصبية يهدف إلى تحقيق ما يأتي:

1 – ترتيب المعلومات المكتسبة في حالات الوعي والمفاضلة بينها وتبويبها وتنظيمها. فكما أصبح معروفاً منذ سنوات، يضم الدماغ مناطق عدة ، كل واحدة منها مختصة بنوع معين من النشاط. فالمنطقة التي تحفظ الصور مثلاً هي غير التي تختزن المشاعر والانفعالات كالخوف والشفقة. وخلال الوعي اليومي تتكدس في الدماغ عشوائياً كميات هائلة من المعلومات لا بدّ من فرزها وترتيبها. وهذا يحصل بواسطة تدفق الكالسيوم إلى الخلايا العصبية التي طرأ عليها تغير خلال استيعاب المعلومات الجديدة في حالة الوعي.

2 – إعادة تأهيل وصيانة وتصليح بعض الخلايا العصبية التي تكون قد أنهكت أو أتلفت خلال العمل في حالات الوعي.

3 – إعادة توزيع المواد الكيميائية بين مختلف الخلايا العصبية في الدماغ وبين وسائط نقلها.

4 – إعادة التزود بالطاقة التي استهلكت خلال الوعي.

5 – ضبط الساعة البيولوجية في حياة الإنسان من خلال نوعين من الهرمونات هما Melatonin و Cortisol، يفرزهما الدماغ خلال الليل أكثر من النهار، وأيضاً بالتزامن مع التغيرات في حرارة الجسم التي تصل إلى ذروتها خلال العشية، وتبدأ بالانخفاض تدريجاً، حتى يبلغ هذا الانخفاض درجة مئوية واحدة خلال الفجر.

ونشير استطراداً إلى أن "الساعة البيولوجية" هي تكيّف الجسم وأعضائه المختلفة لتأدية مختلف الوظائف في أوقات معينة. فالجنس البشري مثل العديد من الأجناس الحية الأخرى ينتمي زمنياً إلى نوع متكيف مع الطبيعة عموماً، أي ينام خلال الليل، ويستيقظ خلال النهار. ولهذا السبب يجد كثير من الناس صعوبة بالغة في الإنتاج خلال الساعات المتأخرة من الليل.

والتطور الكبير الذي شهده علم البيولوجيا الزمنية (CHRONOBIOLOGY) خلال السنوات الأخيرة، دفع الأطباء والباحثين إلى إعادة التفكير في مسائل عديدة تبدأ بالعمل الليلي (20 في المئة من العاملين في البلدان الغربية يعملون إما الليل بطوله وإما خلال جزء منه)، وتنتهي بالأمثال الشعبية في جميع الحضارات التي تمجّد الاستيقاظ الباكر للبالغين، مروراً بساعات الدرس المبكرة للتلاميذ. إذ أن معظم الأساتذة والمربين يعرفون أن ساعات الدراسة الأولى تشهد أكبر نسبة من التلاميذ اللا مبالين وشاردي الذهن.

مراحل النوم

تأكد مع التقدم الذي حققه علم الأعصاب والدماغ أن النوم وما يرافقه من حالات بما فيها الأحلام، هو نشاط بيولوجي في الدرجة الأولى، ينفذه الجسم على مراحل.

فقبل خمسين سنة اكتشف الباحث أوجين أزيرنسكي وهو يراقب شخصاً نائماً خلال مرحلة ما، أن هناك حركة سريعة ومتراوحة للعين، سمّاها مرحلة "حركة العين السريعة" (Rapid eye movement - REM).

و "حركة العين السريعة" هي أهم مراحل النوم الخمس. الأولى وهي النوم الخفيف، والثانية هي

النوم المتوسط، والثالثة والرابعة هما النوم العميق حيث تتباطأ موجات الدماغ وتنخفض حرارة الجسم.

وللتبسيط يقسم بعض العلماء النوم إلى مرحلتين رئيستين: النوم ذو التموج البطيء (نسبة إلى الموجات الكهربائية الطويلة والبطيئة في الجسم)، ومرحلة "حركة العين السريعة" التي تتميز بنشاط عاصف في الدماغ يصحبه شلل كامل في أعضاء الجسم الأخرى حتى لا ينفذ الجسم ما يجري على صعيد الأحلام.

لقد نقض علم الدماغ الحديث وعلم الإدراك المتصل به معظم نظريات سيغموند فرويد وغيره من علماء النفس حول الأحلام وعلاقتها بعقدة أوديب أو بأية مشاعر ورغبات مكبوتة. فالأحلام هي من خصائص مرحلة "حركة العين السريعة"، رغم أنه توجد أحلام في المراحل الأخرى لكنها قصيرة جداً وبليدة بالمقارنة مع أحلام هذه المرحلة التي هي زاهية وطويلة. والغريب في الأمر أنه خلال هذه الأحلام فإن المناطق في الدماغ المتعلقة بالتفكير غير العقلاني والغريب والخيالي البعيد عن الواقعية تكون في حالات العمل الكثيف بينما تعمل مناطق العقلانية والمنطق ببطء ملحوظ. ويقول بعض العلماء أن الدماغ البشري خلال مرحلة "حركة العين السريعة" يتجاهل ما هو واضح لصالح ما هو جنوني وغير متوقع أو غريب. وقد لاحظ بعضهم أن كثيراً من المشاكل التي تحصل خلال حالات الوعي والتي تستعصي على الحل، تجد أحياناً الحل خلال أحلام هذه المرحلة. ويقول روبرت ستيكولد من كلية الطب في جامعة هارفارد إن أحلام هذه المرحلة هي منشأ الإبداع عند الإنسان.

وتوجد عند الإنسان بعض الاختلافات في حالات النوم. فبينما تكون مرحلة "حركة العين السريعة" مرتفعة وطويلة عند الأطفال فإنها تنخفض خلال التقدم في السن. في حين أن الحيوانات تتصرف عكس ذلك. ويرى بعض العلماء أن هذا مرتبط بالطاقة المستهلكة خلال حالات الوعي. وهناك ظاهرة لافتة في العلاقة بين حجم الجسم عند الحيوانات بما فيها الإنسان وساعات النوم. فبينما ينام الفأر الأبيض حوالي 18 ساعة في اليوم، ينام الفيل 3 ساعات كمعدل عام، والإنسان هو في الوسط أي حوالي 8 ساعات يومياً. واللافت أيضاً أن الدلافين وبعض الحيوانات البحرية تسبح وهي نائمة، وقد تبين أن نصف دماغها ينام والنصف الآخر يبقى في حالة الوعي وذلك لتجنب الغرق. كما أن بعض الطيور المهاجرة تنام وهي طائرة في رحلاتها الطويلة. وبينما تموت الفئران بعد ثلاثة أسابيع دون نوم فإن ذكر البطريق يستطيع أن يبقى ثلاثة أشهر من دون نوم.

وكان الكثير من المشاهير في التاريخ يعتبرون النوم وقتاً ضائعاً. فقد حاول ليوناردو دافينشي النوم 15 دقيقة كل أربع ساعات أي ساعة ونصف فقط في اليوم لكنه بعد مضي خمسة أشهر أخذ يشعر بوخز في كتفيه وحوالي رأسه ويعضّ لسانه باستمرار وبشكل مخيف. بينما كان معروفاً عن تشرشل أنه كان يحب النوم والقيلولة خلال النهار، فيروى أنه خلال أعنف الغارات الألمانية على لندن كان يواظب على هذه العادة. كما يروى أيضاً عن الإسكندر الكبير في صبيحة الحرب الفاصلة مع داريوس أنهم أفاقوه بصعوبة بالغة.. وقلة النوم، كما يقول برتراند راسل تمنعنا من أن نتذوق نكهة الحياة وحيويتها.

أمراض النوم

هناك عدة أنواع من أمراض النوم أبرزها الأرق. وهناك أيضاً لا فاعلية النوم أي ساعات النوم الحقيقية مقارنة بالساعات في الفراش - وهذا النوع هو الأكثر انتشاراً. وهناك أيضاً الاختناق (Apnea) أو انقطاع التنفس خلال النوم. وهو عبارة عن ارتخاء عضلات الزلعوم حيث تنغلق ممرات الهواء ويتوقف التنفس. والمصابون بهذا المرض يفيقون حوالي 2000 مرة في الليلة الواحدة! وهناك أيضاً مرض (Myoclonus) أو انتفاض أو ارتعاش الركبتين، وجرش الأسنان. وجميع هذه الأمراض يكمن تأثيرها السلبي في منع الدماغ من الوصول إلى مرحلة "حركة العين السريعة".

لقد بدأت تنتشر مراكز معالجة أمراض النوم على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم المتقدم. ويحذر بعض العلماء من استعمال الحبوب المنومة. إذ وجدوا أنها بدلاً من المساعدة في طول العمر تعمل على العكس من ذلك (لأن بعضهم يعتقد أن هناك علاقة إيجابية بين طول ساعات النوم وطول العمر). ويوجد في الولايات المتحدة 140 مركزاً متخصصاً

كيف تنام هنيئاً

1 - حافظ على وقت معين للاستيقاظ يومياً.
2 - اجعل غرفة النوم مكاناً مريحاً، مفرحاً، وآمناً.
3 - لتكن غرفة النوم مظلمة خلال ساعات النوم.
4 - تعرض خلال النهار لأطول فترة ممكنة للضوء الطبيعي.
5 - عوّد نفسك على ساعات الجسم الطبيعية.
6 - اجعل النوم أولوية على أي نشاطات أخرى يمكن أن تصرفك عنه.
7 - يجب أن تكون غرفة النوم قليلة الألوان، تريح النظر والحس.
8 - حاول أن تفكر بالأشياء المفرحة والمريحة.
9 - إذا لم تستطع أن تغفو فلا تبق في الفراش.

في أمراض النوم، غير أن هذا العدد لا يزال غير كافٍ على الإطلاق. ففي نيويورك، المدينة التي لا تنام، على المريض أن ينتظر حوالي الشهرين لأخذ موعد للمعاينة.

وبما أن حالات الربو وأمراض الجهاز التنفسي تتزايد في شكل مخيف في جميع أنحاء العالم، فإن بعض العلماء يرجعون بعض أسبابها إلى نوعية الفراش واللحاف والوسادة. فقد أعلن الدكتور أشلي وودكوك في اجتماع جمعية الحساسية والربو والمناعة الأمريكية أنه أجرى اختباراً على نوعين من المخدات الأول من الريش الطبيعي والآخر من المركبات الصناعية استعملتا لمدة سنتين حيث لا يوجد في المنازل أية حيوانات مدللة. وعندما أفرغت المخدات من الغبار تبين أن المخدات الصناعية تحتوي على ما بين 6 و 8 مرات أكثر من الطبيعية على غبار مواد تثير الحساسية من الحيوانات الأليفة، و 5 مرات غبار العث. وتنصح باستعمال أغطية محبوكة جيداً لمنع تسرب الغبار من داخلها ويمكن غسلها.

النوم يتم على مراحل، وأعمقها تتميز بنشاط عاصف في الدماغ يصحبه شلل كامل في أعضاء الجسم حتى لا ينفذ ما يجري على صعيد الأحلام

ويقول خبراء النوم إن أفضل فراش لا يخدم أكثر من 10 إلى 12 سنة ويجب تغييره. ومعايير جودة الفراش تتصل براحة العمود الفقري والرقبة والكتفين. والفراش الأفضل هو الوسط بين الصلب واللين، وينصح بأن يسمح للجسم ذي الوضعية الجانبية أن يغرق الورك والكتفين قليلاً في الفراش مما يجعل العمود الفقري مستقيماً والعضلات مرتخية. وآخرون ينصحون بأن تنام على ظهرك وتحاول زلق يدك تحت عمودك الفقري. فإذا لم تستطع، يكون الفراش رخواً. أما إذا زلقت يدك بسهولة فيكون قاسياً. وإذا مرّت يداك والفراش لا يزال يدعم ظهرك فهو الفراش الجيد.

إلى ذلك، فإن الحضارة الحديثة سلبت من الإنسان النوم الهنيء. وتشير بعض الدراسات إلى أن معدل نوم الفرد في القرن التاسع عشر كان حوالي 9.5 ساعات، وفي القرن العشرين انخفضت هذه النسبة إلى 7.5 و 8 ساعات، وهي تنخفض أكثر فأكثر. ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن معظم الناس ينامون ما بين 60 و 90 دقيقة أقل مما يجب.

لقد فقد الإنسان المعاصر متعة العلاقة الحميمة مع الفراش، وحلّ محلها الأرق وغيره من الأمراض. وأخذ يتزايد عدد الذين يعتبرون الفراش مكاناً للعذاب والخوف. فهل يستطيع العلم الذي أخذ يهتم حديثاً بهذه الأمراض أن يعيد إلينا النوم هنيئاً؟

إقرأ عن النوم



دليل النوم الهادئ

أولوية النوم وأهميته، دور النظام الغذائي والعقاقير والكافيين، فوائد التمارين الرياضية، تنظيم الوقت، أساليب الاسترخاء، الاكتئاب والقلق وصعوبات العلاقات، مشكلات النوم الناجمة عن نوبات العمل وتغير الساعة البيولوجية.. جملة مواضيع يبحثها بالتفصيل كتاب "دليل النوم الهادئ - 10 خطوات لنوم أفضل والقضاء على دائرة القلق".

الكتاب الذي صدر بالعربية في العام الجاري 2004م، يقع في 281 صفحة وهو من تأليف الدكتور ثيموتي ج. شارب المتخصص في علاج مشكلات النوم، وسبل التحكم في الألم والقلق والاكتئاب. ترجمته وأصدرته مكتبة جرير، بعد صدوره بالإنجليزية عن دار "بانغوين" المعروفة عالمياً. وهو موجه بشكل خاص إلى الذين عانوا سابقاً من مشكلات النوم، ونسبتهم حوالي 80 في المئة من الناس، وإلى الذين يعانون حالياً من مشكلات نوم مزمنة أو طويلة المدى وتبلغ نسبتهم حوالي 30 في المئة.

ورغم أن القراءة المتأنية لكل صفحات هذا الكتاب تعتبر ضرورية لفهم قضايا النوم وتعقيدات العوامل المتداخلة ببعضها والمؤثرة فيه، فإن إخراج الكتاب جاء لافتاً بتسليط الضوء على فقرات محددة دون غيرها. وذلك من خلال وضعها في إطار خاص. وقد يكون بعض هذه الفقرات ملخصاً لتوجيه تقع تفاصيله في عدة صفحات، كما يمكن أن يكون حكمة أو رأياً فلسفياً يعترض سياق النص العام.

صورة شخصية

من البادية ورعي الغنم إلى دار المعلمين فالتدريس.. وها هم المئات وربما الآلاف من كبار الشخصيات ووجهاء جدة الذين درسوا على يديه، يذكرونه بالخير ويقرّون بفضله عليهم. إنه حسن أبو سعدة، الأستاذ الذي درّس ثلاثة أجيال، والذي يرسم لنا محمد علي الجفري بعضاً من ملامح صورته..

(الكسائي) حسن أبو سعدة..

الطريق إلى مدارس الثغر



يتذكر حسن أبو سعدة، ابن البادية وسليل المزارعين ورعاة الغنم، وصوله إلى مدارس الثغر النموذجية بجدة لتدريس اللغة العربية عام 1973م فيقول عن ذلك الوقت: "كأني أتذكر ما كان فيه الكسائي أمام ابني هارون الرشيد، الأمين والمأمون". ذلك لأنه وجد نفسه يدرّس طلاباً أكثرهم من أبناء الأثرياء ووجهاء القوم، ولم يكن ذلك عملاً سهلاً، بل كان فيه السيئ والمستفز إلى جانب الطيب، ولكن حنكة الأستاذ حسن وبساطة أسلوبه، وقدرته على إنشاء علاقة احترام متبادل بينه وبين تلاميذه منحته خلال فترة وجيزة احترامهم وتقديرهم.

درس على يديه من هؤلاء الطلبة الكثير من المسؤولين ورجال الأعمال السعوديين في الوقت الحالي، وكل من هؤلاء يتذكر الأستاذ "أبوسعدة" من جوانب مختلفة تعكس النشاط المتنوع الذي كان يمارسه في تلك المدرسة. فمنهم من درس اللغة العربية في فصله، ومنهم من كان احتكاكه به عن طريق مكتبة المدرسة التي كان يشرف عليها، وآخرون يتذكرونه في المسرح أو عبر الدروس الخصوصية التي كانوا يحرصون على أن يأخذوها منه، حتى الذين كانوا يتلقون دروس اللغة العربية عند غيره في المدرسة. "كل من لم يدرّسه أبو سعدة في المدرسة، يدرّسه في مكان آخر" هكذا يتذكر أحد طلابه حرص الطلبة على الاستفادة من أسلوبه المتميز في التعليم.

كانت مدارس الثغر النموذجية هي المحطة الثانية في رحلة الأستاذ حسن أبو سعدة التعليمية في السعودية، فقد عمل قبل ذلك (عام 1382هـ، 1962م) مدرّساً في مدرسة الفاروق بجدة لمدة أحد عشر عاماً، وكانت تسمى مدرسة الأوائل. وكلما جاء أمرٌ بنقله منها تمسك به مدير المدرسة الأستاذ عبدالله بن سعد القنب. غير أنه انتقل أخيراً إلى مدارس الثغر وبقي هناك بعد ذلك سنين طويلة، وقال فيها "أبو سعدة" الشاعر أبياتاً منها:

أمدارس الثغر الحبيبة سيري
في ظل فيصلك الحبيب، وطيري
للعلم والأخلاق ، يدعو فيصلٌ
أنعم به، من ناصر ونصير
قومي إلى العلياء، نبغي ودها
لنصير يوماً، فوق كل نظير

الرحلة إلى مدارس الثغر بدأت قبل ذلك بكثير. فقد ولد حسن أبوسعدة لعائلة من المزارعين ورعاة الغنم، ولكن بخلاف أبيه عيسى وجدّه ذيب، خرج حسن عن ميراث تلك المهنة عندما أدخله أبوه في المدرسة. وانتقل الطالب حسن في سبيل التعلم من الريف إلى رام الله.. قبل وقوعها تحت الاحتلال الصهيوني. وكانت تلك نقطة التحول الأولى على طريق "الثغر".

نقطة التحول الثانية كانت عقب تخرجه من المرحلة الثانوية حيث تقدم لبرنامج الابتعاث، وقد وجد نفسه بين من كانوا سيبتعثون لدراسة الثقافة الإسلامية في الأزهر الشريف بمصر بدلاً من رغبته في دراسة الفيزياء بالولايات المتحدة الأمريكية. فترك هذه وتلك، واتجه نحو سلك التعليم عبر باب القسم الداخلي بدار المعلمين في الأردن. وعقد حسن نكاحه على ابنة عمه في ذلك الوقت ووجد نفسه زوجاً وطالباً وهو في السابعة عشرة من العمر.

لم يكن في فم حسن أبو سعدة ملعقة لا من خشب ولا ذهب ولكنه كان راضياً بقسمته إذ يقول: "كنّا نأكل من الزيتون، ونحصد القمح، ونزرع الأرض بالفواكه والخضار، وعندنا من الأبقار والأغنام والدواجن ما فيه البركة، فما نحتاج إلى شيء. كل شيءٍ موجود من خيرات الأرض ومن الحيوانات التي نربيها، إلا أقل القليل، في الكسوة والثياب".. والخمسون ريالاً في الشهر التي كان يصرف منها خلال دراسته بدار المعلمين لم تكن تكفي لتمكينه من مرافقة زملائه إلى دور السينما وأماكن الترفيه، فصار رفيقاً للكتاب وصارت بالتالي كلمة "الأول" رفيقته خلال مراحل تعليمه. يصف الأستاذ حسن إفلاته من التدريس في مدارس الدولة الأردنية بعد تخرجه، الذي شكل نقطة التحول الثالثة ومجيئه بالتالي إلى السعودية بأنه أشبه بالخيال، لأن من قوانين الدولة في الأردن أن يخدم خريجو دور المعلمين لمدة أربع سنوات في مدارس الدولة مقابل دراستهم فيها.

وقد جاءت البعثة السعودية إلى عمّان، ونشرت إعلاناً لمن يرغب بالتقدم للتدريس في المملكة العربية السعودية، في وقت كان حسن أبو سعدة وأحد عشر صديقاً من أبناء دار المعلمين ينتظرون فيه صدور التعيينات بالمدارس الأردنية. وتقدم حسن أبو سعدة بطلب إلى السفارة السعودية يتطلب إنفاذه التجاوز عن مدة الأربع سنوات المطلوبة بأمر من ملك الأردن. وقد تكفل بالحصول على الإعفاء الأستاذ إبراهيم الحجي المبعوث السعودي، وذلك لإعارة حسن أبو سعدة إلى المعارف السعودية. تم ذلك بعد اقتناع الجانب السعودي بإمكاناته، وبعد نقاش حول الموضوع مع وكيل وزارة التربية والتعليم في الأردن حينها عدنان أبو عودة.

يقول أبو سعدة: "لم يكن في جيبي آنذاك إلا عشرة دنانير، أي ما يقارب المئة ريال، ولكن ربي يَسّر أمري بدعاء والدي.. كنت بأذني أسمع والدتي وهي تدعو بقلبٍ مخلص. والوالد يقول: أطلب من الله أن ييسّر طريقك ويجعل كل إنسان صديقك".

ولكن ماذا عن مدارس الثغر آنذاك؟

يصف الأستاذ حسن مدرسة الثغر النموذجية بجدة، ومعهد العاصمة النموذجي في الرياض، بأنهما كانا قاعدتين كبيرتين للتعليم والتربية في السعودية. وقد بدأ هو عمله في مدرسة الثغر في أواخر عهد المدير الأول للمدرسة محمد فدا، يرحمه الله، ولكن معظم سنوات عمله كانت في عهد المدير الثاني عبدالرحمن التونسي، يرحمه الله.

عاش الأستاذ أبو سعدة في المدرسة بجهده. عاش فيها كما تعلم وتربى في الأردن على أن يكون رجلاً وفياً، وأن يعطي العمل حقه.

ومما يحب أن يرويه عن ذكرياته في مدارس الثغر قوله: "كان الطلاب إذا رأوني قادماً يتجمهرون حولي إلى أن أصل إلى غرفة المدرِّسين. وكانوا يحرسون سيارتي.. لأنني غرست محبتي في قلوب أبنائي فقدروني، وأعتبر تقديرهم وساماً على صدري.. والحق يقال إن هذه المدرسة أنجبت خيرة الرجالات الذين تسلموا المناصب العليا.. أينما سرت وأينما طوح بي في المكان، أجد أبنائي في استقبالي بثغور باسمة واحترام وتقدير، فمنهم سمو الأمير مشعل بن ماجد، محافظ جدة، وشخصيات أخرى بارزة لا يتسع المجال لذكرها".

ويضيف من ذاكرته: "كنت أعمل في تدريس طلاب القسم المتوسط والثانوي مادة اللغة العربية. وكذلك قمت بتدريسها على التلفزيون السعودي لمدة أربع سنوات في برنامج "دليل النجاح". وكنت أتنافس أنا والمرحوم علي الطنطاوي على الاستديو. فكان يقول لي: يا أستاذ حسن – بصوتٍ عالٍ – أنا جئت من مكة! فأقول له بابتسامة: يا عم عليّ تفضل نحن في خدمتك، كلنا في خدمتك، فيضمني إليه وتلتقي قلوبنا. وأنا حتى أسجل ربع ساعة في التلفزيون، كان الأمر يأخذ مني على الأقل عشر ساعات، ما بين الكتابة والتحضير ونقل طلاب إلى الاستديو في محطة جدة، والتي كان يرأسها الدكتور الأستاذ محمد أحمد صبيحي".

منذ نعومة أظفاره، وأبو سعدة رجل مجتهد. اللعب في حياته كان ممارسة الرياضة للاحتفاظ برشاقته.. لكنه عندما قابل الأمير ماجد ابن عبدالعزيز، يرحمه الله، قبل بضع سنوات قال له: ما هذا الكرش يا أبو سعدة؟! فأجابه: لقد مضت أيام الجري معاً في الفجر.. هل تريدني أن أذكرك بها؟! فضحك الأمير.

نعم لقد زاد وزن أبو سعدة، وابيض شعره بعد ثلاثة عقود من تنشئة الأجيال في مدينة جدة.





عمادة طه حسين للأدب العربي

هل لا تزال موضع سؤال؟

حتى اليوم، لا يزال اسم طه حسين يقفز إلى الواجهة عند بحث الكثير من التحديات التي يواجهها الأدب العربي المعاصر. ولا يزال فكر الرجل وأدبه وآراؤه موضع بحث وتقييم، حيث تعقد الندوات والمؤتمرات لدراستها، وكان آخر هذه المؤتمرات قد عقد في القاهرة قبل أسابيع..

أما استعادة طه حسين وإنتاجه وآرائه فغالباً ما تستند إلى المكانة الكبيرة التي احتلها في حياته، والتي قلّما وصل إليها أديب عربي آخر، وهي التي في النهاية منحته عمادة الأدب العربي.

والسؤال هو: هل قامت هذه العمادة فعلاً على أسس ومعطيات تبررها، أم أنها كانت محض مبالغة في التقدير؟ سؤال يجيب عنه كل من الأستاذين سامح كُرّيم و جهاد فاضل..

1 لهذه الأسباب.. هو العميد

سامح كُريّم

الإجابة عن هذا السؤال، قد لا تستوعبها سطور مقالة صحفية، أو صفحات دراسة أدبية، أو حتى فصل مستقل من كتاب.. وإنما تغطيها فصول كتاب بأكمله، حتى تقدم التبرير الموضوعي لمعنى هذا اللقب، وإسباغه على الدكتور طه حسين وحده. لكن رغم ذلك فسوف نحاول الإجابة في حدود هذه الصفحات المحكوم عليها مقدماً بالاختصار، وهو تكليف للنفس بما لا تتمنى.

ومنذ البداية قد يتبادر إلى الذهن أن السبب في إطلاق هذا اللقب على الدكتور طه حسين كان يرجع إلى أنه كان أول عميد مصري لكلية الآداب بالجامعة المصرية الحكومية، التي عينت عند إنشائها في عام 1925م الفرنسي "ميشو" لعمادة هذه الكلية، ليخلفه بعد ذلك الدكتور طه حسين في هذه العمادة أربع مرات لكل واحدة منها قصة.

كانت المرة الأولى في عام 1928م ولم يستمر إلا يوماً واحداً، حيث تدخل وزير المعارف العمومية علي باشا الشمسي – وقتئذ – وكان وفدياً للحيلولة دون تعيينه بحجة أن الوفديين كانوا يبغضونه، لصلته الوثيقة بحزب الأحرار الدستوريين الذي كان يجمع بعض أصدقائه من المثقفين وفي مقدمتهم أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبدالرازق وعلي عبدالرازق وغيرهم من نجوم هذا الحزب. ومن هنا طلب علي باشا الشمسي إلى الدكتور طه حسين عدم قبول هذا الترشيح. وحسماً للأمر قرر الدكتور طه حسين أن يستقيل بشرط أن يتم تعيينه يوماً واحداً يوقع فيه بعض الأوراق ثم يقدم استقالته، ويعاد تعيين الفرنسي "ميشو" للعمادة، وقد تم ذلك كله في مساء اليوم نفسه.

وكانت المرة الثانية في عام 1930م، بعد أن انتهت فترة عمادة الفرنسي "ميشو" فاختار أساتذة كلية الآداب الدكتور طه حسين عميداً لهم، ووافق على تعيينه مراد سيد أحمد باشا، وزير المعارف في حكومة إسماعيل صدقي باشا الأولى، غير أن هذا الوزير طلب منه – بعد يومين من توليه العمادة – أن يستقيل ليصبح رئيساً لتحرير جريدة الشعب، لسان حال حزب الشعب الذي أنشأه صدقي باشا، فرفض وآثر البقاء عميداً لكلية الآداب على أي شيء آخر، فألحوا عليه بإيعاز من صدقي باشا في قبول رئاسة التحرير، فازداد إصراراً على الرفض. وهنا أسرّها صدقي باشا في نفسه، وانتظر إلى يوم يكون فيه الحساب!!

وكان هذا اليوم في شهر فبراير من عام 1932م، عندما أرادت حكومة صدقي باشا منح الدكتوراة الفخرية من كلية الآداب لأربعة من السياسيين والأعيان، وهم: "علي ماهر، وإبراهيم يحيى، وعبدالعزيز فهمي، وتوفيق رفعت"، وبالطبع كان رفض عميد الكلية طه حسين متوقعاً، إذ كيف يقبل منح هؤلاء الدكتوراة الفخرية من كلية الآداب وهو يرى أن ليس لواحد منهم أية علاقة بالأدب ورجاله، هذا من ناحية، وأن ذلك يعدّ اعتداء على حرمة وقدسية الجامعة من ناحية أخرى. صحيح أن من هؤلاء من له مواقف سياسية، ولكن هذا لا يكفي سبباً لهذا التجاوز.. على الأقل في رأي طه حسين.

ورغبة من صدقي باشا في تضخيم رفض طه حسين أمام الرأي العام، طلب من وزير المعارف العمومية بعد ذلك حلمي عيسى باشا، أن يدعو طه حسين إلى مكتبه، وأن يعرض عليه الأمر مرة ثانية، غير أن طه حسين أصرّ على موقفه. ونشرت الصحف – وقتئذ – خبر هذه المقابلة ورفض طه حسين مقروناً بتعديل أجرته الحكومة هو استبدال كلية الآداب التي يرفض عميدها تنفيذ رغبة رئيسها صدقي باشا، إلى كلية الحقوق التي رحب عميدها الدكتور عبدالرزاق السنهوري بذلك.

أعلنت الحكومة ذلك بعد أن كان رد طه حسين على الوزير حلمي عيسى قاطعاً مانعاً وهو: "يا باشا عميد كلية الآداب ليس عمدة، تصدر إليه الأوامر فينفذها على الفور، أنا كعميد للآداب لن أوافق على إعطاء الدكتوراة الفخرية لأحد لمجرد أنه من الأعيان أو السياسيين.. لا أوافق، ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب، لأن أعضاء هذا المجلس لن يوافقوا...".

ويعلق طه حسين – بعد ذلك – في أحاديثه على هذه الواقعة قائلاً: "في هذه اللحظة بدأ التجهم والغضب كاملين في صوت وزير المعارف، حتى أنه ردّ غاضباً: طيّب أنت لا تسمع الكلام، حانشوف مين ينفذ كلامه!". وكان هذا القول بمثابة الإنذار الذي توالت من بعده الأحداث التي كانت جميعها ضد طه حسين، وكان أولها نقل طه حسين إلى ديوان وزارة المعارف العمومية موظفاً!! فنفذ النقل، ورفض العمل، وتابع الحملة ضد حكومة صدقي في الصحف، وكيف أنها تحاول الاعتداء على حرمة وقدسية الجامعة كما تعتدي على أشياء أخرى في مصر.. الأمر الذي أحدث ضجة هائلة سواء في الصحافة أو داخل أسوار الجامعة.

كان يملك الذكاء والموهبة الفذّة والقلق الفكري المتفرد، وهو حامل قلم لا يتكرر وأديب لكتاباته مذاقها الخاص

ونتيجة لهذه الحملة الصحفية، طلب صدقي باشا من طه حسين أن يتعاون مع وزير المعارف حلمي عيسى، وأن يقبل الأخير أن يعيده إلى عمادة كلية الآداب بعد إلغاء قرار النقل، وكانت هذه مناورة من رئيس الوزراء صدقي باشا، وإلا فما معنى هذا الاستجواب المقدم مباشرة من أحد نواب البرلمان عبدالحميد سعيد حول كتاب "في الشعر الجاهلي" الذي انتهت أزمته عام 1926م أي منذ ست سنوات، ليتجدد في عام 1932م مرة ثانية، وأن يشتمل هذا الاستجواب على اتهامين لطه حسين أولهما التعليق على صورة كانت الأهرام قد نشرتها لعميد كلية الآداب طه حسين وحوله الطلبة والطالبات بالقول كيف يقع هذا؟ وكيف نشرتها وزارة المعارف العمومية؟ وثاني هذين الاتهامين قوله بأن كتاب "في الشعر الجاهلي" ما زال يدرّس في الجامعة بعنوان "في الأدب الجاهلي"، وهكذا فإن تغيير العنوان لم يغيّر شيئاً من روح وفكر هذا الكتاب، فكيف تسكت وزارة المعارف عن ذلك كله ولا تحرك ساكناً؟ وكيف تسمح بأن يكون ذلك الرجل عميداً لكلية الآداب؟

ولحبْك هذه الأزمة التي كان وراءها صدقي باشا، يرد وزير المعارف على الاتهام الأول، أما الاتهام الثاني والذي يمثّل جوهر هذه الأزمة التي تريد الحكومة إثارتها من جديد، فقد طالت فيه المناقشات، وانتقلت هذه المناقشات من البرلمان إلى الصحافة، فامتلأت صفحاتها بالهجوم مرة ثانية على الدكتور طه حسين، ولم يكتف مفتعلو هذه الأزمة بالبرلمان والصحافة، وإنما أوعزت الحكومة إلى الأزهر وشيخه الإمام الأكبر الشيخ الظواهري، بأن يعلن إدانة طه حسين، وبأنه لا يصلح مربياً لطلاب وطالبات كلية الآداب، ولا عميداً بالجامعة. وهكذا تم لصدقي باشا ووزير معارفه حلمي عيسى، وللأزهر وبعض رجالاته، وخصوم طه حسين مع الصحفيين ما يريدون.. ونقل طه حسين مرة ثانية إلى ديوان وزارة المعارف موظفاً، ولما رفض العمل، تم فصله من الوزارة كلها.

وعند هذه النتيجة، النقل ثم الفصل، انقلبت الآية فبدلاً من أن يكون الرأي العام ضد طه حسين، بتأثير الحكومة والأزهر والصحافة، وقف هذا الرأي العام إلى جانبه، ولا سيما بعد أن اكتشف أن صدقي باشا أراد أن يستخدم أدب طه حسين وقلمه، في أغراضه السياسية، وكان لحرمان الجامعة من مساهمات طه حسين في هيئات تدريسها، وفي عمادته لكلية الآداب أثره البالغ في نفوس الطلاب، ونفوس المفكرين على حد سواء.. فقامت المظاهرات داخل الجامعة وخارجها، ولم تكن هذه المظاهرات في هذه المرة ضد طه حسين وإنما كانت تطالب بعودته لعمادة الآداب.. إلا أن طه لزم الصمت حول هذا الموضوع بعد أن لزم بيته، واقتصر نشاطه الفكري على الكتابة في صحف ومجلات السياسة اليومية وكوكب الشرق ووادي النيل..

وكانت المرة الثالثة التي تولى فيها طه حسين عمادة كلية الآداب في عام 1936م، ليستمر في منصب العمادة حتى مايو 1939م، حيث أعيد انتخابه للعمادة مرة رابعة. وكان انتخابه بالإجماع، لكن الحكومة آنذاك – حكومة محمد محمود باشا التي كانت على غرار حكومة صدقي باشا – لم ترض بإعادة تعيينه، فاضطر إلى الاعتذار للذين اختاروه من الأساتذة، والاستقالة من العمادة، والاستمرار أستاذاً للأدب العربي بكلية الآداب.

ورغم أن اختيار طه حسين – بالانتخاب – لعمادة كلية الآداب أربع مرات، وما يفسر ذلك من ثقة زملائه من الأساتذة، وفي المقابل مناوءة بعض الوفديين، ورفض رموز حكومات الأقليات وفي مقدمتهم حكومة صدقي باشا، وحكومة محمد محمود باشا والوزير حلمي عيسى باشا، على هذه الترشيحات.. رغم ذلك وغيره فإن هذا الأمر لا يكفي سبباً لتلقيبه بعميد الأدب العربي.. أقول ربما لا يكفي ذلك ليحمل أحد أساتذة الجامعة أو عمدائها هذا اللقب الضخم على مستوى العالم العربي، خاصة وأن الساحة الثقافية العربية كانت

مزدحمة بالأعلام والرواد. وعلى هذا فلا بد وأن تكون هناك أسباب أخرى لجعل طه حسين جديراً بهذا اللقب، يمكن أن نجملها في مواقفه العظيمة، وأعماله الخالدة في مجالات الفكر والأدب.

فمن طريق هذه المواقف، وتلك الأعمال، وما نتج عنها من جدل ومناقشات، أحاديث ومقالات، كتب ومعارك.. استطاع طه حسين أن ينقل الصراع الدائر بين القديم والجديد من المستوى الضيق الذي كان عليه من قبل، إلى مستوى أرحب وأوسع، بل والأكثر من ذلك جعل هذا الصراع جزءاً لا غنى عنه في التكوين الفكري لنهضة الأدب العربي الحديث.

فتح للأدب العربي آفاقاً عالمية، وكان صنيعه كصنيع روّاد النهضة الأوروبية الحديثة

لقد بدأ طه حسين حياته الأدبية – كما يرى نقاده ومؤرخوه – واقفاً على أعمال كانت موجودة قبله، بل إن أكثر الأفكار التي ظلّت تلح عليه كانت مثارة من قبل، ومنها الحاجة إلى نشر التعليم، وتحديث الأساليب الأدبية، إلا أن طه حسين كان يملك من الذكاء النادر، والموهبة الفذة، والقلق الفكري المتفرد ما جعله قادراً على أن يطرح هذه الأفكار، وكأنها طازجة عذراء، غير متداولة أو مستهلكة. فمنذ سنوات عمره الأولى كحامل قلم لا يتكرر، وأديب صاحب كتابات لها مذاقها الخاص.. أفسحت الصحف والمجلات له مكاناً، ليقول فيها هذا الشاب الكفيف كلمته المتسائلة، ويرسل صيحة احتجاجه – مسرفة أو غير مسرفة – قبل أن تقع الحرب العالمية الأولى، تلك التي تغيرت من بعدها ملامح غير قليلة من حياة أقطار الأمة العربية، ومنها مصر تلك التي أصبحت بعد انتهاء هذه الحرب قبلة أو ملتقى للبعث الأدبي والفكري في التاريخ الحديث للثقافة العربية، حيث أصبحت الكلمة المطبوعة فيها تصل إلى عشرات الآلاف كل عام، وبهذه الكلمة توصل طه حسين إلى شق طريقه كأديب كبير، وأستاذ جامعي، وصاحب موهبة كبيرة، ومتسائلاً لا يزهد في إثارة تساؤلات الآخرين، ومنذ بدايته، وكلمته الأدبية المحملة بفكره لا تستقر لتتجمد في جانب واحد، أو في موقع واحد من هذا الجانب، أو من الجوانب الأخرى.. وإنما هي كلمة محملة برأي لا يستقر، كما لو كان جنيناً يبحث باستمرار عن لحظة المخاض المواتية.

لقد توسل طه حسين بهذه الكلمة الأدبية المطبوعة في الصحف والمجلات لإثارة أكبر المعارك الأدبية والفكرية والسياسية، والصحف والمجلات التي نشر فيها كلمته على مدار حياته، تكاد تشمل أغلب الاتجاهات الأدبية التي عرفتها الأوطان العربية من مطالع هذا القرن حتى سبعينياته. والطابع الغالب على موضوع هذه الكلمة الأدبية عند طه حسين هو طابع الاشتباك بين النقائض، ومحاولة الملاءمة بينها في أكثر الأحيان. ذلك أن طه حسين كان يعيش حنينه الدائم إلى أسلوب الحياة الأوروبية الحديثة، كما يعيش حنينه النابض إلى أسلوب حياة الريف التي عرفها في طفولته، والأرض الطيبة التي أنجبته ذات يوم.

لهذا فقد يضع طه حسين موضوع كلمته الأدبية في تيار التجديد والأصالة معاً، ويحاول أن يوجد اتساقاً بينهما، حيث يريد للقالب الأسلوبي أن يعاصر الحياة الجارية، كما يريد لهؤلاء القراء ألا ينعزلوا عن الاشتباك مع الثقافات العالمية المؤثرة ما كان منها عريقاً كالثقافات الإغريقية واللاتينية، وما كان منها حديثاً كالثقافات الأوروبية الحديثة.

كل ذلك كان طه حسين، وكان أدبه.. فكان واحداً ممن أنجبهم المناخ الفكري النشيط فحملوا بذور دعوات إصلاحية وآراء حرة وهموم التجديد والمعاصرة، وملكوا الموهبة النادرة، التي أتاحت لهم التفوق كأدباء كبار، وحملة أقلام بارزين، وأساتذة وأعلام وروّاد.. وبفضل جهدهم الخصب النشيط، دارت أغزر المناقشات، وقامت أكبر المعارك، واتُّخذت أهم المواقف.. حول مجموعة من قضايا الفكر والأدب والفن والثقافة بوجه عام.. وغيرها من قضايا لم نزل نعيش في ظلها إلى اليوم.

لقد فرض هؤلاء الرجال، وفي مقدمتهم طه حسين بحيويتهم المتدفقة، وعلمهم الزاخر، وتجاربهم الثرية.. فرضوا أنفسهم على عصرهم فرضاً عادلاً ومنطقياً. ومن هنا نقول إن الذي أفسح لطه حسين طريقه إلى عمادة الأدب العربي، كان هو طه حسين ابن عصره وابن زمانه، والذي جعله عميداً للأدب العربي ومؤثراً في عقول أجيال وأجيال، هو طه حسين الطاقة المبدعة لفلسفة هي ابنة زمانها وتجاربها. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين رائد النزعة الإنسانية في الفكر العربي الحديث.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي، هو طه حسين الذي فتح للأدب العربي آفاقاً عالمية.. والذي جعل طه حسين

عميداً للأدب العربي، هو طه حسين الذي ناضل بقلمه وعلمه وعمله، وضحى بكل ذلك في سبيل رفع لواء الحرية الفكرية في مختلف مرافق الحياة.

والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي، هو طه حسين الذي أنشأ شرعة قيم نقدية جديدة وابتدع موازين للنقد النافذ إلى أعماق الآثار الأدبية والفكرية. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين الذي وضع للنقد الفيلولوجي الأساس المتين لكل دراسة في هذا الميدان.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين الذي أنشأ أجمل ترجمة ذاتية عرفها الأدب العربي، تلك التي يندر أن نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية من حيث دقة التحليل، وصدق التعبير، وجمال البيان، وروعة التصوير.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين الذي أسهم بأوفر قسط في إيجاد القصة العربية حتى استوت على النمط العالمي.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين الذي حافظ على لسانه العربي الفصيح حتى أصبح أستاذاً لعلماء اللغة في الجامعة أو في المجامع اللغوية العربية.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين الذي استطاع أن يرسم للدراسات الأدبية طريقها الصحيح، وأن يوجهها في الاتجاه الحي الأصيل داخل الجامعة وخارجها الذي من شأنه أن يدفع الأدب العربي عامة إلى صدر الركب العالمي، وأن يرفعه إلى المستوى الإنساني.. والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي، هو طه حسين الذي سعى إلى نشر التراث الكلاسيكي، اليوناني منه واللاتيني بين أبناء العربية حتى ينتج عن ذلك إخصاب روحي جديد للعقل العربي إيذاناً ببعث روحي شامل، فكان صنيعه في ذلك، كصنيع روَّاد عصر النهضة الأوروبية الحديثة في الأدب والفكر الأوروبي.

وأخيراً فإن الذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي هو طه حسين نفسه، الذي أضاء تاريخ صدر الإسلام بنظرات ولوامع وضاءة، وسوانح وخطرات راقية، وآثار ومعطيات أدبية عظيمة للتاريخ الإسلامي حين رأى إعادة كتابة هذا التاريخ على نحو حديث.

وغير ذلك مما جعل طه حسين مستحقاً لقب عميد الأدب العربي بدون منازع.



لا.. ليس هو العميد!!

تعرض الدكتور طه حسين للنقد العنيف سواء في حياته أو بعد موته. وقد تعرض لهذا النقد من خصومه ومن أنصاره على حدّ سواء. فقد أحصى عليه إسماعيل أدهم، وكان من أشد انصاره، أربعة أخطاء في طريقة البحث هي: مزج الجانب العلمي بالجانب الذاتي أو الفني، وعدم التحوط في البحث، والتطرف في الاستنتاج، والسطحية في استقصاء الأسباب.

وأضاف إلى ذلك تلميذ من تلاميذه مطاعن أخرى هي الخطأ في النقل، والتبعية في الرأي، والإسراف في الهوى، واتباع الظن. فقد ذكر عزيز أحمد فهمي وهو من تلاميذه، في مجلة الثقافة (4 سبتمبر 1945م): "كما يتمتع أستاذي بحسنات الفرنسيين، فإنه أيضاً مصاب بعيبهم. فيه منهم الاندفاع. لا أريد أن أقول أنه نزق. فهو إذا خاصم إنساناً لم يعرف الهوادة في خصامه، فإذا ملك خصمه حطمه تحطيماً ونسفه نسفاً. كما أنه إذا أحب انساناً لم يعرف الهوادة في حبه. فهو يرفعه بلا تحفظ ولا حذر". وهذا ما يمكن أن يُسمى بالمبالغة. ومن مبالغات طه حسين ما كتبه عن الفيلسوف الفرنسي ديكارت. فقد كتب مرة أنه يعرف من الأسرار عنه ما لو قاله لدكّ أسوار السوربون ..

وترسم علاقته مع عباس محمود العقاد بعض ملامح شخصيته. فحين انتمى إلى حزب الوفد، بعد انتماء طويل لحزب الأحرار الدستوريين، وجد أن لا مناص له من استرضاء العقاد، وهو أبرز كتّاب الوفد. فأعلن في حفل كبير أن العقاد هو حامل لواء الشعر بعد شوقي، أي أنه أمير جديد للشعر العربي. وكان ذلك بعد أن أهدى إمارة الشعر للعراقيين، وللزهاوي على التحديد. ثم أعطاها للعقاد كما

رأينا ثم سحبها من العقاد لاحقاً وأعطاها لخليل مطران. وهو في هذا يقول للعقاد في مقدمة ديوانه: "أنت أقمت للكروان ديوانا فخماً في الشعر العربي فهل تأذن لي أن أتخذ له عشاً متواضعاً في النثر الحديث؟" فلما مات العقاد أعلن طه حسين أنه لا يفهم كتابه عن عبقرية عمر!

> يؤخذ عليه: مزج الجانب العلمي بالفني، وعدم التحوط في البحث والتطرف في الاستنتاج والسطحية في استقصاء الأسباب

كشف طه حسين من البداية أوراقه المنهجية في كتابه الأول الذي افتتح به حياته الأكاديمية في مصر: "في الشعر الجاهلي"، فذكر أنه يتبنى منهج ديكارت القائم على التجرد من كل الأفكار المسبقة أثناء البحث. لكن نقاده اعتبروا "أن مؤلف هذا الكتاب لم يفهم منهج ديكارت على حقيقته، وأنه شعوذ به على الطلبة، وأنه لا يعدل جهله فيما ينقل عن العربية إلا ما ينقله عن الفرنسية" (مصطفى صادق الرافعي/ تحت راية القرآن). وبنفس اللهجة، وبنفس الأسلوب، نعته الدكتور زكي مبارك بالجهل وقلة الاطلاع، بل إنه في رأيه "لم يقرأ في حياته كتاباً كاملاً، وإنما يقرأ فقرات من هنا وهناك، وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال إلى أن اتصل بالمرحوم ثروت باشا فوضعه بالجامعة المصرية". ويضيف: "إنه من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام. وقد مرّت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتاباً كاملاً".

وقد ثبت لديه "أنه لا يعرف من تاريخ الأدب العربي إلا قشوراً قديمة المحصول". ويوغل زكي مبارك في مثل هذه النعوت فيقرر بأن طه حسين لم يكن يوماً من المفكرين، وإنما هو أديب قليل الفكرة، قليل الاطلاع، نشأ في أوقات لم يكن يعرف فيها الناس غير المجلات السياسية، فتظاهر بالعلم فظنّه القراء من العلماء"! ولأن النتيجة الطبيعية للجهل هي، في نظر خصومه، السرقة، فقد ركز هؤلاء انتقاداتهم على المقارنة بين ما ورد في كتبه وما ورد في كتب غيره من العرب والمستشرقين. وانتهوا إلى أن جلّ تحليلاته ومواقفه وحججه مسروقة. وقد لخصها أنور الجندي فيما يلي:

- آراؤه في "الشعر الجاهلي" أخذها عن جرجس صال ومرجليوث.
- آراؤه في "حديث الأربعاء" أخذها عن جرجي زيدان و"الأغاني".
- آراؤه في "هامش السيرة" اعتمد فيها الأساطير وبعض الكتب الأجنبية.
- آراؤه في "مستقبل الثقافة في مصر" هي جماع ما أورده المستشرقون وكتّاب التغريب عن حضارة البحر الأبيض المتوسط والفرعونية.

ولأن طه حسين بيّن في بعض كتبه أن العرب كانوا يعيشون في الجاهلية عيشة بدائية، والحياة البدائية لا تفرز النثر الفني القائم على العقل، بل تفرز الشعر إذ الشعر بصفته ظاهرة فنية أسبق في الظهور من النثر الفني، فقد ردّ عليه زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع: "أن هذا الرأي أعلنه مسيو ميرسه في المحاضرة التي افتتح بها محاضراته في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعاً في كراسة خاصة. وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأي وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية. ثم أثبته في كتاب المجمل".

وقد ألحّ نقاد طه حسين الذين نقدوا كتابه "في الشعر الجاهلي" على جانب الهوى عنده، فرأوا أن مؤلف هذا الكتاب كلما وجد رأياً عند المؤلفين القدامى يناسب نظريته أخذه منهم بدون نقاش (محمد لطفي جمعة). وأنه يصدر الأحكام جزافاً (محمد فريد وجدي)، وأنه يبني على مجرد افتراضات (الغمراوي)، وأنه ينصّ على النتائج من غير ذكر المقدمات (محمد الخضري). ويلخص محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر سابقاً هذه الطريقة القائمة على الانسياق للأهواء والتعصب للرأي بقوله: "أفلا ترى بعد ذلك أن الدكتور اتبع الهوى، فبادر إلى تصديق حكاية سخيفة من غير أن يؤيدها ما يقوّيها، وذكرها وحدها دون أن يذكر الروايات الأخرى إرادة أن يخدع عقول القراء، فيفهموا أن هذه هي الرواية فيتّبعوه فيما يريد أن يثبته من تجريح للناس وإشاعة السوء فيهم؟ ألا يدعونا ذلك إلى القول بأنه متعصب لرأي معين يصطاد له من الأقوال ما يؤيده، تاركاً التحقيق العلمي الذي يوصل إلى الحق أينما كان؟".

يرى أعداء طه حسين أن تفكيره ليس متجذراً في المحيط العربي الإسلامي، بل هو نوع من التغريب الناتج عن كثرة الإعجاب بآراء المستشرقين وغيرهم. وقد ركز خصومه بصفة خاصة على كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" الذي تضمن أهم اتجاهاته الفكرية، وبالخصوص ما يتعلق منها

بصلة مصر بالحضارة الغربية. فأنور الجندي يرى في هذا الكتاب "برنامجاً لتغريب التعليم المصري" بعد أن غرّب المستشرقون فكر طه حسين نفسه: دوركهايم وكازانوفا وماسينيون عملوا على صياغة فكره ليكون غربياً خالصاً، وصاغته البيئة الاجتماعية من الناحية الاخرى على نحو جعل أمانته للغرب ولفرنسا أكبر من أمانته للعرب والاسلام.

ويرى الدكتور محمد الهادي الطرابلسي أن أدب طه حسين تغلب عليه صفتان لا يُتصور أنهما تغيبان عن قارئه مهما كان مستواه ودرجة اطلاعه هما التكرار من ناحية، وكثرة اللفظ وقلة المعنى من ناحية أخرى. "وهما صفتان مترابطتان متلازمتان تلازم السبب والنتيجة. كما هما صفتان تعدّان مبدئياً من عيوب الكتابة وفضول القول. وهاتان الصفتان تغلبان على جميع كتاباته وتمثلان اختياراً من اختياراته إذ لم يُخفِ هو نفسه اتجاهه في الكتابة هذا الاتجاه، فكأنه التزم ما لا يلزم وبقي وفياً لالتزامه في جميع أنواع الكتابة عنده!!.

..وهو متهم بالخطأ في النقل والتبعية في الرأي والإسراف في الهوى واتباع الظن. وزكي مبارك يرى أنه لا يعرف من تاريخ الأدب العربي إلا القشور!

ولم يُرْضِ أسلوبه الكثير من خصومه، بل سخروا منه وشوّهوه في عديد من المناسبات ولم يقرّوا له بالابتكار والتميز. فالرافعي مثلاً يرى فيه تكراراً وركاكة ومضغاً للكلام، ويقول عنه: "كان أول من استعمل الركاكة في أسلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغاً، فنزل به إلى أحطّ منازله، وابتلى العربية منه بالمكروه الذي لا صبر فيه، والمرض الذي لا علاج منه، فصار ذلك طبعاً بالإدمان عليه، فلا يأتي بالجملة الواحدة إلا انتزع منها الانتزاعات المختلفة، ودار بها أو دارت به تعسفاً وضعفاً، وإخلالاً بشروط الفصاحة وقوانين العربية. والآفة الكبرى أنه كان يحسب ذلك إبداعاً منه في الأسلوب وإحكاماً في السبك وطريقة بين المنطق والبلاغة". أما إبراهيم عبد القادر المازني فيرى في أسلوبه حشواً ويفسره بفقدان البصر وبمهنة التعليم. وكان فتحي غانم يرى أن لغته لا تقطع في شيء أبداً، بل هي مرنة للغيّ والمداورة. وإبراهيم المصري كان يشبه أسلوبه بنقيق الضفادع، إلى غير ذلك من ألوان التجني والانحراف عن التحليل العلمي برأي مريديه.

وقد قام طه حسين ببعض المحاولات الشعرية ولم يدّعِ قط أنه شاعر كبير. ومع ذلك فخصومه يشهرّون به، ويرى أحدهم شبهاً بين شعره ونفسه "في الجفاء والغلظة والاضطراب والتخرف" (الرافعي). وبذلك فلا يحق له أن يتحدث في الشعر "صاحبنا يرجع إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضته مذاهب الخيال، ولا عهد له بأسرار الإلهام التي صار بها الشاعر شاعراً، ونبغ الكاتب كاتباً".

وقدّم المازني تعدد اهتمامات طه حسين وتنوع أركان شخصيته في صورة كاريكاتورية مشوهة في لهجة ساخرة انطلق فيها من شكّ طه حسين في سيرة مجنون ليلى، ومن تساؤل للعقاد عن نتائج تطبيق منهج الشك هذا على طه حسين نفسه في مستقبل الدهر ... يتخيل المازني باحثاً يقرأ كل ما نُسب إلى طه حسين فيرى أنه لا يمكن أن يكتبه شخص واحد: فلا بد أنه يوجد شيخ ضرير يكتب في الأدب، وأفندي مبصر يقدّم اقتراحات لإصلاح الخط العربي، ودكتور يدرّس الشعر الجاهلي وشعر أبي العلاء المعري، وكلهم يحملون نفس الاسم. ويضيف المازني: "ويظهر أن هناك أكثر من طه حسين واحد. ففي بعض المقالات المعزوّة إلى المسمّى الدكتور طه حسين تنويه بأن كاتبها كفيف، وفي البعض الآخر ما يفيد أنه مبصر. فهو يقول: "قرأت"، و"رأيت"، و"شهدت"، وما إلى ذلك من الألفاظ الدالّة على الرؤية، ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلاً بل كما هي كائنة". ثم يشير إلى جمعه بين الصحافة والتدريس في الجامعة، وبين الأسماء الإفرنجية والأسماء العربية عند ابنه وابنته. إلى غير ذلك من التناقضات التي قصد من إبرازها تشويه صورة طه حسين.

وقد أخذ محمود محمد شاكر على طه حسين تفسيره لبعض أبيات المتنبي تفسيراً خاطئاً تماماً (يراجع كتابه مع المتنبي صفحة 408 وما بعدها) كما أخذ عليه انعدام حاسة التذوق الشعري عنده. فهو لا يتذوق النصوص الشعرية التي يعرض لها.

وأخذ عليه كثيرون تصويره للقرن الثالث الهجري بأنه عصر شك ومجون وإباحية في حين أنه كان أيضاً عصر علم وزهد وتدين. كما أخذوا عليه ظاهرة السخرية والاستهانة وعدم الجدية. فأقرب الناس إليه وهو إسماعيل أدهم يشير إلى أن طه حسين لاعب له روح الطفل الذي يريد أن يلعب ويلهو: "وأنت ترى في كتابه "مع المتنبي" يظهر لك بروح الطفل الذي يلعب فهو يلعب، ودائما يلعب ولعبته كانت في كتاب "مع المتنبي"، حياة المتنبي

نفسها. فأنت ترى طه يثير مواضيع خطيرة تؤلب الرأي العام عليه فتظنه جاداً في بحثه، ولكنه سرعان ما يكشف من وراء هذا روح الطفل الذي يعمل "العملة" ويقعد يتفرج عليها".

وقد روى محمود محمد شاكر مرة (وكانت له خصومه عنيفة مع طه حسين) أنه التقى طه حسين قبل أن يكتب هذا الأخير كتابه عن المتنبي، فقال له: ما رأيك يا محمود لو قلنا أن المتنبي لقيط؟ وقد نشر محمود شاكر هذا الحديث في حياة طه حسين دون أن يكذبه هذا الأخير.

وكتب السيد محمد رشيد رضا في مجلته (المنار) عن الخطة التي كان طه حسين يقودها في كلية الآداب "لهدم مقومات هذه الأمة وشخصياتها ووصفها بالقديمة. فهي تعمل على التشكيك في الدين وتقليد الإفرنج في ما يسهل التقليد فيه من المنكرات". (المنار م/27 ص387).

بل إن المستشرقين أنفسهم تحدثوا عن بعض خططه. فالمستشرق "جب" يقول: "إن فكرة طه حسن الأصلية هي تحرير الأدب العربي من إطاره الإسلامي العام، أي من القيود التي تربطه بالعلوم الدينية وحتى يدرس الأدب لنفسه ولا يكون وسيلة لفهم القرآن والحديث". بل إن طه حسين نفسه ذهب إلى أبعد من ذلك حينما كتب مرة: "أنا أريد أن أدرس تاريخ الأدب في حرية وشرف كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات".

ولم يجد الكثيرون في ما كتبه من روايات، أو من السيرة الذاتية "كدعاء الكروان"، أو "أديب"، أو "الأيام"، ما يؤلف روايات بالمعنى العلمي أو الحقيقي للكلمة، أو ما يؤلف سيرة ذاتية بالشروط المتعارف عليها في بلدان الحضارة. فرواياته تنقصها الشروط الأولية للرواية. أما سيرته الذاتية الحقيقية فلا تُستخلص أبداً من كتابه (الأيام) لأنه عبارة عن إنشاء عربي بالغ الرسمية والوقار!

وفي اعتقادنا أن صورة طه حسين الحقيقية لا تُلتمس في ما يقوله هؤلاء الخصوم والأعداء عنه، ولا كذلك في ما يقوله تلاميذه ومريدوه، بل إنها تلتمس في ما يقوله الفريقان معاً. لقد كانت للدكتور طه حسين إيجابيات كثيرة، هذا، لا ينبغي إنكاره أبداً. ولكن، بالمقابل، كانت له سلبيات كثيرة وقع علينا في هذا المقال تبيان قسم كبير منها.

صورة للموضوع الذي نشر على صفحات القافلة في شهر يونيو/يوليو 1968م

طه حسين في القافلة قبل أكثر من ثلاثين عاماً

ثلاث نقاط جعلتني عميداً للأدب العربي

في عددها لشهر ربيع الأول من العام 1388هـ، نشرت القافلة مقابلة مطولة مع طه حسين أجراها الأستاذ محمد رفعت المحامي.

كان طه حسين يشغل آنذاك رئاسة المجمع اللغوي، واتحاد الأدباء، ونادي القصة. وتضمنت مقدمة المقابلة تعداداً لأمجاد "عميد الأدب العربي" بدءاً بالأوسمة المكدسة على صدره، وانتهاءً بشهادات الدكتوراة الفخرية التي كان عددها قد وصل حتى آنذاك إلى سبع، منحته إياها جامعات روما ومدريد وأثينا وليون ومونبليه وأكسفورد وباليرمو..

تطرق طه حسين خلال المقابلة إلى جملة مواضيع منها ما هو على علاقة بسيرته الشخصية، ومنها ما هو حول الأدب واللغة عموماً.

تحدث عن الكتب التي يقرأها، وحال الأدب اليوم وأسباب تدهوره، ودافع عن اللغة الفصحى في المسرح منتقداً شيوع العامية فيه، وتطرق إلى علاقة الصحافة بالأدب وفضل الواحد منهما على الآخر. وعدّد طه حسين الأزمات التي عصفت بعمله وأدت إلى إقالته من عمله الجامعي، وما تركته هذه الأزمات من آثار على عطائه.

أما الأسطر الأخيرة من المقابلة فتكاد تلامس وإن كان بشكل غير مباشر، محور النقاش الدائر حول عمادة طه حسين للأدب العربي، ننقل منها ما يأتي:

– قلت: أنت أكثر من تُرجم له من أدبائنا إلى مختلف لغات العالم، ويرجع ذلك إلى أن النقاد يرون أن أدبك يعتبر نقطة بدء في دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه.

– فأجاب وهو يهز رأسه في تواضع: ليس هذا.. أظن أن السبب يرجع أصلاً إلى سهولة ترجمة بعض كتبي إلى غير اللغة العربية، أو إمكان ترجمتها.

– قلت: إن قصة حياة طه حسين هي قصة المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين.

– فأجاب بتواضع: هذا كثير.. إنها قصة حياة الطبقة التي خرجت منها، قصة حياة الطبقة الوسطى فقط.. أما المجتمع كله، فلحياته قصص كثيرة. أنا ابن طبقتي.

– قلت: حتى ولو أتممت الجزء الثالث من الأيام؟

– وكان جوابه: نفس القصة..

– وكانت خاتمة الحوار هذا السؤال: ما هي نقطة التحول في حياتك، التحول الذي جعلك عميداً للأدب العربي؟

– وأجاب طه حسين: إنها ثلاث نقاط، لا نقطة واحدة. الأولى: هي السفر إلى أوروبا، لأنه حولني من التقليد إلى التجديد. والثانية: هي الزواج، لأنه أخرجني من وحدتي وأسعدني بنعمة الحب. والثالثة: هي إنجاب الأبناء، لأنه جعلني أشعر بالحنان وبقسوة الحياة وتبعتها.



ما اسمك أيها الشاعر؟

شعراء غلبت عليهم ألقابهم

لكل شاعر سيرة.. ولا بد أن تبدأ هذه السيرة بذكر اسمه ونسبه ثم كنيته ولقبه، وغالباً ما يطغى اللقب على الاسم والنسب، فلا يُعرف الشاعر إلا به.
الأستاذة نجاح طلعت تعرض لنا باقة من هذه الألقاب..

من يستعِدْ في خاطره سجلاً طويلاً من أسماء الشعراء، ينتبه إلى أننا نكاد لا نعرف من أسماء هؤلاء غيّاثاً وعدياً وعثمان وعبدالله، بل نعرف الأخطل والمهلهل والجاحظ والعرجي.. ولا بد أن نسأل هل هذه الأسماء هي ألقاب أيضاً؟ وإذا كانت ألقاباً فما سبب إطلاقها؟

نسرع إلى فتح كتب التراجم والشعر واللغة كـ "الأغاني" و"الشعر والشعراء" وغيرهما للبحث في أصل هذه الأسماء. وما وجدناه لم يكن ليخلو من المتعة والطرافة. فهناك مواقف وحالات كثيرة كانت وراء غلبة ألقاب بعض الشعراء على أسمائهم. ولضيق المجال هنا، نتوقف أمام مجموعة شعراء غلبت عليهم ألقابهم بسبب أبيات شعر قالوها.

النابغة الذبياني والمرقش الأكبر.. والأصغر

النابغة الذبياني: زياد بن معاوية.. بن غطفان. ولقبه "النابغة"، وفي ذلك أقوال مختلفة أشيعها أنه لم يقل الشعر حتى صار رجلاً، وأن اللقب يدل على كثرة الشعر وغزارة مادته، من قولهم نَبَغتِ الحمامةُ إذا تغنّت، ونَبَغَ الماء، ونَبَغ بالشعر، كأن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابِغ. وهنا يحضرنا بيت من الشعر للفرزدق يقول فيه:

وَهَبَ القصائِدَ لي النوابِغُ إذ مَضَوْا
وأبو يزيدَ وذو القروحِ وجَرْوَلُ

والنوابغ المعنيون هم النابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني. أما "أبو يزيد" فهو المخيّل السعدي، و"ذو القروح" هو امرؤ القيس، و"جرول" هو الحطيئة.

المرقّش الأكبر: هو ربيعة بن سعد شاعر جاهلي سميّ المرقّش لقوله:

الدارُ قفرٌ والرسومُ كما
رَقَّشَ في ظهرِ الأديمِ قلمْ

وكان للمرقش أخٌ شاعر أصغر منه سنًا لقب بالمرقّش الأصغر!

المثقّب العبدي والممزّق العبدي

المثقب: لقب شاعر اسمه العائذ بن محصن بن ثعلبة. ينتسب إلى قبيلة من عبد القيس في بلاد البحرين، لذلك لقّب بالعبدي. وقيل لُقّب المثقّب لقوله:

أَرَيْنَ محاسنا، وكَننَّ أُخرى
وَثَقَّبْنَ الوَصَاوِصَ للعيونِ

كننّ: أي خبّأن، والوصاوص هي ثقوب يُنظر من خلالها. وكان أبو عمرو بن العلاء يستجيدُ هذه القصيدة له ويقول: لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلّموه.

الممزّق العبدي: اسمه شأس بن نَهار، وهو شاعر جاهلي. وغلب عليه لقب الممزّق لقوله في قصيدة يمدح بها أحد ملوك الحيرة، ويطلب منه إغاثته من أعدائه الساعين لقتله:

فإن كنتُ مأكولاً فَكُنْ خيرَ آكل
وإلاَّ فأدركْني ولمًّا أُمَزَّقِ
فَأَنتَ عميدُ الناسِ مهما تَقُلْ نَقُلْ
ومهما تَضَعْ من باطلٍ لا يُحَقّقِ

ذو الرمّة، وعروة الصعاليك

ذو الرمة: هوغَيْلان بن عقبة. وذو الرمة لقب لقبتّه به امرأة أحبّها تُدعى مَيَّةَ. طلب منها أن تسقيه ماء، فأتته بماء، وكانت على كتِفِهِ رمّة، وهي قطعة من حبل، فقالت: إشرب ياذا الرمة. ويُقال إنه لقب بذي الرمة لقوله في وصف الوَتد:

لم يبقَ منها أَبَدَ الأبيدِ
غيرُ ثلاثٍ ماثلاتٍ سُودِ
وغيرُ مرضوخ القفا موتودِ
أشْعَثَ باقي رُمةِ التقليدِ

عروة الصعاليك: هوعروة بن الورد، شاعر وفارس وصعلوك في الجاهلية. لقّب بعروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الصعاليك ويهتم بشؤونهم إذا أخفقوا في غَزَواتِهم. وقيل لقّب بذلك لقوله:

ولله صعلوكٌ صفيحةُ وجهِهِ
كضوءِ شهابِ القابسِ المتنوّرِ
يُطلُّ على أعدائِهِ يزجرونَه
بساحَتهم زَجر المنيحِ المشهَّرِ

قتيل الهوى، ومسكين الدارمي

قتيل الهوى: هو المؤمّل بن جميل بن أبي حفصة وكنيته "أبوخطّاب". أطلق عليه هذا اللقب لقوله:

قُلنَ مَنْ ذا، فقلتُ هذا اليمانيُّ
قتيلُ الهوى أبو الخطّابِ

مسكين الدرامي: هو ربيعة بن عامر بن مضر. لقب بـ "مسكين" لقوله:

أنا مسكينٌ لمَنْ أنكرَني
ولمَنْ يعرفُني جِدُّ نَطِقْ
لا أبيعُ الناسَ عِرْضي إنني
لو أبيعُ الناسَ عِرْضي لَنَفَقْ

والجدير بالذكر أن مسكين الدارمي من سادات قومه وأشراف عشيرته وهي العشيرة نفسها التي ينتسب إليها الفرزدق. وقد هاجى مسكين الفرزدق حيناً ثمّ كفّ عن هجائه، فكان الفرزدق يعدّ ذلك من الشدائد التي أفلَت منها، إذ إنه لو اضطر إلى ردّ هجاء مسكين يكون قد هَجَا مَنْ ينتسب إليهم.

جران العَوْد، ومدرج الريح، وثابت قطنة

جِران العَوْد: لا أحد يعلم أهو شاعر جاهلي أم إسلامي. وكان قد تزوّج امرأتين فلقيَ منهما مكروهاً. فأراد تخويفهما بجران العَوْد. وهو السوط قَدَّهُ من صدر جَمَلٍ مسنٍّ فقال لامرأتيه:

خُذا حَذَراً يا حَنَّتَيَّ فإنَّني
رأيتُ جرانَ العَوْدِ قد كادَ يَصْلُحُ

مُدْرِجُ الرّيح: هو عامر بن المجنون. ويُقال إنه سُمي مدرج الريح لشعر قاله في امرأة كان يزعم أنه يهواها من الجن، وأنها تَسكن الهواء، وتتراءى له:

لابنةِ الجني في الجو طللْ
دارسُ الآياتِ عافٍ كالخَلَلْ
دَرَسته الريحُ من بينِ صَبا
وجنوبٍ درَجَتْ حيناً وَطَلْ

ويقول آخرون بل سميَ كذلك، لأنه قال:

ولها بأعلى الجَزْعِ رَبْعٌ دارسٌ
دَرَجَتْ عليه الريحُ بعدَك فاستَوَى

ثابت قطنة: هو من شعراء خراسان وفرسانهم. ذهَبَت عينُه، فكان يحشوها بقطنة، فَسُمّي "ثابت قُطنة"، وقال فيه قائل:

لا يَعْرِف الناس منه غيرَ قطنته
وما سواه من الأنسابِ مجهولُ

وذلك لأن يزيد بن المهلب استعمله على بعض نواحي خراسان، ولما صَعَد المنبر لإلقاء خطبة الجمعة لم يستطع الكلام. ويُقال أيضاً إن الشاعر ثابت قطنة هو صاحب البيت، سبق الشعراء إلى قوله لئلاّ يُعيروه به.

البعيث، والمتلمس، والقطامي

البعيث: هو خداش بن بشر.. من بني تميم، وكان يُهاجي جريراً، ويعدّه بعض النقاد من أخطبِ الناس. ولقّب بالبعيث لقوله:

تَبَعّثَ مني ما تَبَعّثَ بعدَما
أُمِرَّتْ قُوايَ واستمرَّ عزيمي

أي أنه قال الشعر بعدما أَسَنَّ وكَبُرَ وضعفت قوّته، غير أن ذلك لم يؤثّر في قدرته على قول الشعر.

المتلمّس: هو جرير بن عبد المسيح. شاعر جاهلي كان يُنادم عمرو بن هند ملك الحيرة. ولُقب المتلمس لقوله:

فهذا أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذبابُه:
زنابيرُهُ، والأزرقُ المتلمّسُ

العِرض: الوادي، والأزرقُ: يعني الذبابُ الأخضر

القُطامي: هو عمر بن شُيَيْم. والقُطامي، لغة، تعني الصَقْر. ولقّب بذلك لقوله:

يُحطُّهُنَّ جانباً فجانباً
حَطَّ القُطاميُّ القَطا القواربا

... يطول الكلام إن رغبنا في إيراد المزيد من ألقاب الشعراء. ومما يلاحظ أنّ بعض أسماء شعراء معروفين تبدو، بسبب معانيها، أقرب الى أن تكون ألقابًا. ألا نقبل الظنّ في أنّ عنترة لقبٌ غلب على اسم الشاعر إذا عرفنا أنّ عنترة في اللغة تعني الفارس الشجاع؟!

ديوان اليوم ديوان الأمس

آخرها سبعة أحزان

شعر: محمد عزّت الطيري
مصر

أول قريتنا
أربعُ أشجار للسرْوِ
وآخرها
سبعة أحزان
والشارع مزدحمٌ جداً
بتراب مُرّ
وبقشٍّ نَزّ
وبعشبٍ خَرَّ جميلاً
وأنينٍ مُختلط بحنين
للفَرح
وأقمار وكواكبَ
تساقطُ
في كل بداية
شهر قرويٍّ
حتى منتصف الخامسِ
من أحلام الغيطانْ

رَقْمُ المنزل:
كلبان عجوزان
ينامان على عتبات الصيفِ
ويعتصمان بخوفهما
وقليلاً ما
ينتبهان
وأمام المنزل
حيطانٌ للوحشة
يعلوها
شباكٌ مفتوحٌ للشوقِ
تُظلّلُه
أهدابُ بنات
طرَزن الليلَ بكاءً
وغناءً
ومضينَ إلى
آخر مرمرهنّ
يُحدّقنَ طويلاً
في أول أشجار السرْوِ
المكتظة بالريح
وهذا هو
تفصيل العنوان!!



هي الريح أحلى

صباحك سُكّرْ
ومَنٌّ وسلوى
وتمرٌ وحلوى
وهمسك عنبر
وصوتك رش الفؤاد الحزين
بقمح وزعتر
وصوتك حين أطل وجاءَ
أطل الضياءُ
وأعلنَ في رقة للشراع
هي الريحُ أحلى
لكي يبدأ السَفَرَ الشاعريَّ
ففنَّى وأبحَرَ
وقال لكل البساتين
جودوا
بِمَوْز وَلَوْز
وَجَوْز
وفُلٍّ
وشهد مُقَطّرْ
وقال لكل المحبين
ذوبوا
بعشق الجمال
وقولوا له
سوف نهواكَ أكثر
وقال لكل البنات استرحنَ
سيأتي إليكنّ هذا الجميل
على صهوة
للجواد المظفر
وقال لكل القرى
سوف يهمي
على شاطئ الحزن
نهرٌ وكوثر
....
صباحك أخْضَرُ...!!

**كل ما في هذه القصة القصيرة يوحي للوهلة الأولى أنها كتبت للصغار، بدءاً بموضوعها وانتهاءً بأسماء أبطالها، مروراً بأسلوبها المباشر ولغتها السهلة الأبعد ما تكون عن الصناعة..
ولكن مؤلفها الأديب والقاص السوري المعروف فاضل السباعي ضمّن عنوان هذه القصة إشارة إلى أنها للكبار والصغار..
وكأنه ينتفض بذلك على ما آلت إليه القصة القصيرة للكبار في يومنا هذا من غرق في التصنّع والتعقيد الشكلي، ربما تبجحاً برفعة المكانة الأدبية، فسعى إلى تخليصها من كل هذه المعوقات علّها تستعيد مكانتها في قلوب القرّاء..**

حكاية للكبار والصغار..

الدنانير الذهبية التي تتحوّل إلى فضة

يُحكى أنه كانت هناك ضيعة تدعى "جُلّنار" فيها معلّم مدرسة طيّب القلب جداً اسمه "طيّوب" واسم زوجته "طيّوبة". وكان هذا المعلّم الشاب يعتقد بأن الأحلام ما هي إلى صدى لما يكون قد مرّ بالحالم من حوادث، ولم يخطر في باله أن ما قد يراه النائم في ليلته يمكن أن يتحقق في صباح اليوم التالي!

في تلك الليلة، هبّ طيّوب من نومه عند الفجر، وهو يرتعد من شدة الخوف. ما رآه في منامه أن "هاتفاً" غير مرئي كان يهيب به:
"أحفر تحت شجرة الرمان تجد كنزاً!"
ولم يتبادر إلى ذهنه أن يسأل الهاتف أية شجرة رمان يقصد، وأرضه وأراضي إخوته مليئة بأشجار الرمان!

تابع الهاتف موضحاً:
"أحفر تحت أعلى شجرات الرمان في أرضك، ناحية شمال - شرق، على عمق ذراع، تظهر لك جرة تحتوي على ألف دينار ودينار، كلها من ذهب!"
قال طيّوب في نفسه: جاءك الغنى! لسوف يرْفُل أولادك الذين سوف تنجبهم في العزّ والنعيم.
- "إنه كنز من أيّام العباسيين سيكون بين يديك تُسلمه فوراً إلى "الآثار". وإذا سوّلت لك نفسك، الأمّارة بالسوء، أن تحتفظ به لنفسك، تحولت الدنانير بين يديك إلى فضة!"
تصبب طيّوب عرقاً وهو في سريره. إنها رسالة عليّ أن أؤديها!
نادى بصوت يرتعش: "طيّوبة! طيّوبة!"
ولكن زوجته لا تريد أن تستيقظ.
- في أرضنا كنز، يا طيّوبة!
- ماذا قلت؟ كنز! وأين هو؟
- تحت إحدى شجرات الرمان، يا طيّوبة.
وأسرع إلى حيث المِعْوَل والرَّفْش فاختطفهما، ومضى بهما إلى الحقل، وزوجته طيّوبة تتبعه.

لم يَطُل بحث طيّوب، في هذا الفجر الوليد، عن تلك الشجرة التي عناها الهاتف: الأعلى بين الأشجار في أرضه.
- هي ذي! وهنا الشمال الشرقي!
سألته طيّوبة: "ماذا تقول، يا طيّوب؟"
- أنا أحفر، وأنت تزيحين التراب.
وأخذ يقصّ عليها، بعبارات متقطّعة، حكاية المنام العجيب.. فازدادت حماستها: فالكنز دنانير من ذهب!
- علينا أن نُخرج الكنز قبل الضياء. فإنْ رآنا أحد إخوتي دخلنا وإيّاه في خلاف شديد.
- ألا يطلع لي من الكنز دنانير أجعل منها عقداً أتزيّن به لك؟
ومع ظهور تباشير الصباح، سمعا رنّة صغيرة عذبة الإيقاع: لقد ارتطم المعول بالجرة. التي تبيّن أنها من نحاس! تعاونا على سحب الجرة، ممسكين بعُروتيها، مستخرجين إيّاها من قلب التراب. احتضنها طيّوب بين ذراعيه، وسار تتبعه زوجته، ناسين المعول والرفش، وكذلك الحفرة.. التي ظلّت فاغرة فاها تدلّ على ما فعلا في باكر الصباح!

وفي البيت، حطّ طيّوب الجرة في وسط الغرفة، وذهب ينفض عنه الغبار ويغتسل، وفي هذه الأثناء أسرعت طيّوبة تخفي عنه الجرة.
- علينا أن نُخفي الجرّة عن العيون، يا طيّوبة.
- أنا أخفيها عنك، ولن أظهرها لك إلا إذا وعدتني بأن تُعطيني منها بعض الدنانير!
- يا طيّوبة! يا طيّوبة! إن الهاتف في المنام أمرني بأن أسلّم الكنز إلى "الآثار" فوراً. وإذا سوّلت لنا نفسنا أن نحتفظ به تحوّلت الدنانير إلى فضة.
- هل هذا معقول، يا طيّوب؟!
- عودي إلى الجرّة، وانظري إلى الدنانير ما إذا كانت قد ظلّت ذهبية؟
غابت عن عينيه لحظة.. ثم ما لبث أن ترامت إليه صرخة أليمة: "طيّوب! أرى الدنانير فضية!!"، عائدة إليه بالجرة، وهي تذرف الدموع.
صرخ بها:
- أيتها البلهاء! أرأيت إلام قادنا طمعك البغيض!
وزاد نحيبها:
- "يا لي من امرأة شريرة، لا تستحق زوجاً طيباً مثلك، يا طيّوب!"
ولكن طيّوب، عندما عانق الجرة ومدّ بصره إلى داخلها، رأى الدنانير تلمع لمعان الذهب!
- كُفّي عن البكاء. عادت الدنانير ذهبية. والآن خبئي الجرة في حرز حريز حتى لا تصل إليها يد ولا عين، ريثما أستريح في الفراش، قبل أن نمضي بها معاً إلى المدينة.
احتارت طيّوبة أين تخبئ الجرة. وأخيراً استقرّ رأيها على أن تدسّها طيّ ما تطبقه في "السَّمَنْدرة" من الفُرُش واللُّحُف. وخوفاً من أن تنسى هذا المخبأ الأمين، كتبت بخطّها على ورقة كبيرة: "في قلب الفراش هنا خبّأت الكنز"! وعلّقت الورقة بدبابيس على الستارة التي تحجب الفُرُش عن العيون. ثم استلقت بجوار زوجها، يغطّان في نوم سعيد، بعد كل ما بذلاه من جهد في هذا الصباح.

غمرت شمس الصباح بنورها ضيعة "جُلّنار"، مزارعها المحيطة بها، والبيوت المتناثرة بين أشجار الرمّان والمشمش والجوز العتيق. تأخّر الناس في استيقاظهم، إلا من أبكر قاصداً العمل في أرضه في هذا الصباح الصيفي الجميل.

أحد الأولاد اتفق مروره، ساعة الضحى، بجوار شجرة الرمّان العالية في أرض طيّوب. فاسترعت انتباهه كومة التراب التي تنم على أنها احتفرت هذا الصباح.
- أبي! رأيت تحت إحدى الشجرات، في أرض عمّي طيّوب، حفرة!
فلم يكن هذا الولد إلا أحد أبناء "نايف" الأخ الأكبر لطيّوب. فهرع إلى حيث الشجرة، ورأى كومة التراب، والحفرة، وإلى جوارهما أدوات الحفر!

حدّث نفسه: لا بدّ أنّ أخانا طيّوب، الذي دلّله أبونا ومنحه فرصة أن يتعلم حتى أصبح معلّم المدرسة الوحيد في الضيعة، قد عثر تحت هذه الشجرة على شيء ثمين يُسميه الناس كنزاً، وهو - من شدة فرحه بالكنز - نسي المعول والرفش وكذلك أن يعيد التراب إلى الحفرة! إن صحّت ظنوني، فإننا يحقّ لنا أن نكون شركاء له في الكنز. فقد ورثنا، نحن الإخوة الخمسة، الأرض عن أبينا، ولا عبرة في أن يكون الكنز قد ظهر في القسم الذي آل إليه من الأرض.

لم يفكّر نايف في الأمر طويلاً. توجه إلى بيت أخيه طيّوب. لم يقرع الباب، بل قفز من فوق الحائط القصير فأصبح في الفناء. وبسهولة استطاع أن يفتح الباب. رأى أخاه وزوجته، في غرفة المعيشة الوسيعة، ما زالا نائمين. أجل، إنهما غارقان في النوم بعد ليلة حصلا فيها على كنز ثمين. تلفّت حواليه، فرأى على ستارة السَّمَنْدرة ورقة، قرأها، فأيقن أن ما جال في ذهنه من الخواطر صحيح كلّه. وسرّه أن الغفلة بلغت بهذين الزوجين أن تركا الحفرة كما هي، وأن الزوجة البلهاء أعلنت عن مخبأ الكنز!

مدّ ذراعه بين طيّات الفراش، فلامست جسماً طلباً، سحبه.. فإذا الجرّة بين يديه، وفيها الذهب يلتمع! وخرج من البيت بالكنز. وفاته من شدّة فرحة أن يردّ الباب وراءه. وفي بيته وضع الجرة أمام زوجته والأولاد.
- قد عثرنا في أرضنا على كنز، يا أولاد! إنها دنانير، دنانير من الذهب الخالص. هي بيننا بالتساوي: نايف ونوّاف وحنّان وحنّون، وأصغرنا معلم المدرسة المدلّل طيّوب. أنا رجل يحبّ العدل!
لم تكتم زوجته فرحتها:
- أنت لن تُمانع في أن أجعل من بعض الدنانير عقداً أضعه على صدري في الأعراس؟
- بل وتجعلين منها ما يطوّق عنقك كله، وخصرك الجميل. إنها كثيرة كثيرة.. أنظري!
نظرت الزوجة.. وأدخلت كفّيها في الجرّة، فخرجتا بحفنة من الدنانير.
- ولكنّها.. قطع فضية!!
- عجباً! لقد رأيتها هناك دنانير من ذهب! هل بات أخونا معلّم المدرسة ساحراً؟!
وغادر البيت حاملاً الجرّة، وصدره يتّقد غضباً.

كان طيّوب لا يزال نائماً لحظة هزّت طيّوبة يده لتوقظه:
- طيّوب! إنهم ينادونك. أسمع صوت أخيك نايف في الفناء.
هبّ طيّوب من رقدته، عازماً على الدفاع بكلّ قوته عن الكنز تجاه أخيه الأكبر، هذا الذي يعرف فيه شدّة الطمع وحدّة الطبع. دسّ قدميه في الخفّ على عجل قائلاً لزوجته:
"أحرسي الكنز، يا طيّوبة. إن عرف إخوتي بأمره كانت بيني وبينهم مشاحنات لا تنتهي!".
وفوجئ بأن رأى باب بيته مفتوحاً. ثم رأى إخوته الأربعة، في فناء البيت، تحيط بهم زوجاتهم وبنوهم وبناتهم، لا ينقص منهم إلا الرضّع. ولكن ما كان أكثر مفاجأة له رؤيته الجرة مستلقية على صدر أخيه الأكبر! فصرخ غاضباً:
"كيف سمحت لنفسك أن تدخل بيتي من دون علمي!"
طيّوبة، وهي وراء زوجها، لم تصدّق أذنيها ولا عينيها، انكفأت إلى الداخل لتبحث عن الجرة، فلم تجدها.. وأدركت أنها كانت بلهاء جداً عندما كتبت تلك الورقة وعلّقتها على الستارة بدبابيس!
جاراه نايف بصراخ أشد:
- الدنانير لنا نحن الإخوة الخمسة بالتساوي! ولكني جئت إليك لأعرف: أمن ذهب هي، أم من فضة؟
أجابه طيّوب بهدوء: "هي من ذهب عندما تكون في أيد أمينة، ولكنها تتحول إلى فضة إذا حازها أحد بغير حق!".
فالتفت نايف إلى إخوته:
- كما قلت لكم: إنّ أخانا، معلّم المدرسة، يعمل في السحر!
وتكلّم نواف:
- نريد أن نعرف، يا معلّم المدرسة، كيف أمكن أن تتحول دنانير من ذهب إلى دنانير فضية؟



– رُدّوا إليّ الجرة، وأنا أشرح لكم.
وانتزع الجرة، من يدي أخيه نايف، ضامّاً إيّاها بين ذراعيه، ثم أرسل نظرة إلى الدنانير.. فإذا هي تلمع لمعان الذهب!
– انظروا الآن إلى الدنانير.. فهي من ذهب!
سألته أخته حنان، كنَّة مختار الضيعة:
– ولكن من أين جاءتك هذه الدنانير الذهبية، يا صغيرنا طيّوب؟
– كنز.. وجدته مطموراً تحت إحدى شجرات الرمّان في أرضي.
سأله حنّون أصغر إخوته، وهو يضاهي أخته محبة له: "ومن الذي دلّك على موضعه، يا طيّوب؟"
– "هاتف" جاءني في المنام فجر اليوم.
سخر نايف:
– هاتف ومنام! ذهب وفضة! عشنا وسمعنا!
تساءل نوّاف مستنكراً: "وكيف استطعت أن تحوّل الدنانير الذهبية إلى فضّة، ثم تعيدها ذهباً؟".
وأضاف نايف:
– تبدو لنا الآن ساحراً، ونحن لا نعرفك إلا معلماً للصبيان!
– كل ما في الأمر يا إخوتي الأحبّاء، أني سمعت، وأنا نائم، صوتاً يأتيني من بعيد أنّ هناك كنزاً مطموراً تحت الشجرة الفلانية، فذهبت أنا وطيّوبة، عند الفجر، حفرنا الأرض واستخرجناه!
أكّدت طيّوبة قول زوجها بأن هزّت رأسها هزّات صغيرة لم يلحظها أحد.
أعلن نايف بصوت عريض:
– أنت أخرجت الكنز من الأرض التي ورثناها من أبينا.
هتفوا بصوت واحد:
– إنه كنزنا.. كنز الجميع!
قالت زوجة الأخ الأكبر:
– زوجي وعدني بدنانير أصوغ منها عقداً يطوّق عنقي!
قالت سُلفتها، زوجة نوّاف:
– وزوجي لن يبخل عليّ بنطاق من الدنانير أتزنّر به!
قالت حنان هازئة:
– السلائف، ما شاء الله، لم يُبقين لنا شيئاً من الدنانير!
تنصّل حنّون:
– أما أنا، فلم أعد زوجتي بشيء!
ولكن طيّوب أعلن بملء فيه:
– يا إخوتي! إنّ الكنز ليس لي. إنه للحكومة. الهاتف في المنام أمرني بأن أسلّمه إلى "الآثار". وإذا احتفظ به أحد تحوّلت الدنانير فوراً إلى فضة.. أليس كذلك يا نايف؟
هنا ساد هَرْجٌ ومَرْج، قطعتهما الأخت حنان قائلة:
– لا بدّ من أن نحتكم إلى أحد، وليكن عمّي المختار. تركته منذ ساعة في المضافة يتناول طعام الفطور.

سبقهم ضجيجهم إلى مسامع المختار، فعرف أن القوم واقعون في مشكلة عويصة.
طلب أولاً أن تدور عليهم دلّة القهوة المرّة، وهو متربّع على الأريكة، يُصغي إليهم، يروي كلٌّ منهم المسألة على هواه، والجرة بين يديه تلتقي عندها الأبصار. وأخيراً قال:
– ليأخذ كلٌّ منكم ديناراً ذهبياً، ويمضي به إلى السوق، وحاولوا أن تشتروا به، ذهباً كان أو فضة، ماتتوق نفوسكم إليه من أشياء.. ثم عودوا إليّ.
وأعطى ديناراً لنايف، وآخر لنوّاف. وتجاوز كنّته حنان، فليس يحسن أن تنزل كنّة المختار إلى السوق في مثل هذه الحال. واستغنى حنّون عن خوض التجربة، مكتفياً بما يحاوله أخواه العنيدان. وأمّا طيّوب، فقد قبع في مكانه منتظراً النتيجة بقلب ملهوف.

لم يكد يصل الأخوان، بديناريهما الذهبيّين، إلى باب المضافة، حتى توقّفا وكأن سلاسل كبّلت أقدامهما. وعادا، وقد نكّس كلٌّ منهما رأسه خجلاً: لقد تحوّل الدينار في يد كل منهما إلى قطعة من نحاس لا قيمة لها!
وقد حدّث بعض من حضر تلك الجلسة:
– ... فلما أسقط الديناران في الجرة، واحداً بعد الآخر، سُمع لهما رنين الذهب!

تقول الحكاية:
إن "الآثار" بعد أن تسلّموا الكنز من طيّوب وطيّوبة، وعدوهما بأن يقدموا لهما مكافأة سخيّة. ولم تكن المكافأة شيئاً من الدنانير، من الألف دينار ودينار، فهذا "كنز" ينبغي أن يُحتفظ به في المتحف، ولكنها بالعملة المتداولة.

وفي الصحف كتبوا، وتحدثوا في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، عن المواطن طيّوب، معلم المدرسة في ضيعة "جُلّنار" الذي عثر، في أرضه، على كنز ثمين، وبادر إلى تسليمه للآثار، فكان مثالاً للمواطن الشريف الغيور.

وطيّوب، من ناحيته، لم ينسَ أشقاءه، فوهب لكل واحد منهم شيئاً من المكافأة، وبالتساوي فيما بينهم! واشترى لزوجته طيّوبة عقداً ونطاقاً مرصّعين بالذهب، لتتزيّن بهما، له في البيت وأمام نسوة الضيعة في الأعراس. ثم بنى طابقاً آخر فوق بيته الريفي المتواضع، فغدا أول بيت في الضيعة مؤلف من طابقين، وأصبحوا إذا ما مرّوا من أمام هذا البيت، تحدّثوا عن أنّ صاحبه معلم المدرسة طيّوب بناه بالمكافأة التي نالها من "الآثار"، لا بدنانير الكنز التي تتحوّل إلى فضة أو إلى نحاس!

وتلاميذ الضيعة، بعد أن عرفوا وسمعوا وشاهدوا، ازدادوا تقديراً لمعلّمهم الشاب، وظلّوا يرمقونه، أثناء الدروس، بنظرات الإعجاب، ويفتخرون بأنهم تلاميذ لمعلم أمين وشجاع، ويتمنّون لو أنهم، هم وآباؤهم، يعثرون في أراضيهم على مثل هذا الكنز.. ولكن هيهات!

وتروي الحكاية، أيضاً، طُرفاً مما يقع في ضيعة "جُلّنار". يقولون أنه يتفق لبعضهم أن يمرّ بأرض الأخوين نايف ونوّاف، فيرى، تحت الأشجار هنا وهناك، حفراً مردومة أو منسيّاً ردمها!

وأمّا طيّوب وطيّوبة، فقد جعلا يُكثران من التردد على المتحف. وعندما يتأملان الجرّة، وهي في مثابتها الزجاجية الأنيقة مُتّكئة على جانبها هكذا، وقد تدفّقت منها الدنانير، لمّاعة برّاقة يكاد ينبعث منها رنين الذهب، فإنهما يتمايلان أحدهما على الآخر من سرور، ويبتعدان، وهما يُكركران بالضحك، ويقولان:
"هذا الكنز... نحن من أخرجه، في فجر يوم، من تحت شجرة في أرضنا، بضيعة جُلّنار!".

التيار الذي سيخلف الرواية التاريخية

كان التاريخ محور الرواية العربية في مهدها خلال القرن التاسع عشر. وبعد فترة من حضور الموضوع المعاصر في روايات القرن العشرين، عادت الرواية التاريخية لتكتسح ما عداها خلال السنوات الأخيرة.
ظاهرة تسيّد الرواية العربية التاريخية لعصرنا على حساب تيارات روائية أخرى.. يناقشها على صفحات القافلة كل من الأستاذ عبده وازن والدكتور أحمد زياد محبك..

1 أفق في الماضي

عبده وازن*

لماذا يلجأ الروائيون العرب الروّاد والجدد إلى التاريخ بينما الواقع العربي يتخبّط في الكثير من القضايا الشائكة والهموم والأزمات؟

قد يكون الجواب عن مثل هذا السؤال متاحاً لدى الناقد جورج لوكاش أحد كبار المنظرين للرواية العالمية في الستينات من القرن الفائت. فهو يرى أنّ الروائي يلجأ إلى الماضي عندما يجد واقعه مأزوماً من نواحيَ عديدة: سياسياً واجتماعياً واقتصادياً... وهذا اللجوء إلى الماضي يسمح للروائي بأن يقرأ الواقع الراهن على ضوء المعطيات التاريخية، بحثاً عن منفذ للأزمات المتراكمة.

هكذا لا تبدو الرواية التاريخية محاولة للهروب من الواقع كما يظنّ بعضهم، بل هي مواجهة للواقع عبر التاريخ. على أنّ الروائي هنا لن يحلّ محلّ المؤرّخ حتى وإن بدا كأنّه يستبعده في أحيان ليؤوّل التاريخ بحسب مقاربته الشخصية ومزاجه وانتمائه. ولكنّ ما لا يمكن تجاهله هو أنّ الروائي قد يستخدم التاريخ لمصلحة الفنّ الروائي، محرّفاً بعض الأحداث والشخصيات (أو الأبطال) ومضفياً من مخيّلته على الحدث أو الفعل التاريخي ما يمنحه بعداً آخر لا يعرفه فنّ التأريخ.

يلجأ الروائيون العرب، على اختلاف أجيالهم إلى التاريخ، لا ليعيدوا كتابته روائياً فقط، بل ليبحثوا عن أفق ممكن وسط معالم الماضي، مقامات وأنقاضاً. فالتاريخ يضمّ الماضي بعظمته وخرابه، بأفراحه ومآسيه، بويلاته وبطولاته. وإن كان المؤرّخ في الحقب الفائتة يميل غالباً إلى كتابة الصفحات البهية طاوياً الصفحات المأسويّة كما يجمع المفكّرون والنقاد، فإنّ الروائي قادر على أن يجعل من المأساة ملهاةً ومن البطولات مآسي وتراجيديات. وهنا يستحيل السؤال عمّن يكون الأشدّ وفاء لمادته التاريخية: المؤرّخ أم الروائي؟

من الواضح أنّ الرواية التاريخية ازدهرت في الغرب – وفق ما يجمع النقاد الغربيون – في القرن التاسع عشر وكانت وراء ازدهارها الأفكار الكبيرة التي رسّختها الثورة الفرنسية، إذ شعر المواطنون الأوروبيون أنّهم يعيشون داخل التاريخ وليس على هامشه. وترافق نشوء

* كاتب وصحفي في جريدة الحياة

الرواية التاريخية مع صعود "علم" التاريخ الذي رسّخ منهجاً علمياً لكتابة التاريخ وتدوينه.

أما في العالم العربي فبدأت الرواية في مستهلّ القرن العشرين، ولكنّ البداية كانت متعثرة ومرتبكة كما يعبّر الناقد فيصل درّاج في كتابه الجميل "الرواية وتأويل التاريخ". وكان على الرواية أن تنتظر بضع سنوات لتنهض نهضة حديثة ومعاصرة. ولم يكن مستغرباً أن تبرز حينذاك روايات تاريخية عديدة ذات أفق جديد ومقاربة مختلفة. ويكفي الوقوف على روايات مثل "غابة الحق" لفرنسيس المرّاش و "دعاء الكروان" لطه حسين، و "قنديل أم هاشم" ليحي حقّي و "سارة" لعبّاس محمود العقّاد، انتهاء بروايات نجيب محفوظ التاريخية وهي غير قليلة، وكذلك بعض أعمال الروّاد من أمثال جبران وأمين الريحاني وسواهما من الجيل "الاغترابي" ... ويحاول بعض النقاد استبعاد جرجي زيدان عن المعترك الروائي معتبرين أنّ رواياته تهدف إلى تقديم التاريخ في قالب وجداني وعاطفي بعيد من أية قراءة نقدية تهدف إلى إعادة النظر في التاريخ. لكنّ جرجي زيدان يظلّ رائداً في حقل الرواية التاريخية وإن كانت غايته، كما بدت، "تسلية" القارئ.

إلا أن الرواية التاريخية فتنت جيلاً أو أجيالاً بالأحرى، من الروائيين العرب الجدد من أمثال: عبده خال ورجاء عالم في السعودية، سالم بن حميّش في المغرب، ممدوح عزام في سورية، ربيع جابر في لبنان وسواهم وهم كثر. لجأ هذا الجيل الجديد إلى التاريخ ليسائله ناسجاً علاقة أخرى بين الفرد وتاريخه انطلاقاً من الحراك الاجتماعي وصراع الطبقات والفئات. وراح هذا الجيل يبحث في التاريخ عن مواقف درامية وشخصيات فريدة وأفكار باهرة من غير أن ينسى أو يتناسى أن قراءة التاريخ روائياً هي محاولة لإعادة كتابته في طريقة تختلف عن طريقة المؤرّخين.

ولعلّ الأعمال الروائية الجديدة والشابة التي استوحت التاريخ، باتت تشكّل "محطّة" مهمّة في تاريخ الرواية العربية المعاصرة. وهذا ما يؤكّد أن الرواية مهما أوغلت في الحداثة ستظل تلتفت إلى الوراء لتستمد من التاريخ "مادة" زاخرة وطريفة.

2 آفاق غير تاريخية

د. أحمد زياد محبك*

حققت الرواية العربية حضوراً متميزاً، كمّاً ونوعاً، وظهر روائيون نذروا أقلامهم للرواية، وحظوا بجمهور واسع من القرّاء، حتى إنهم أحدثوا في الذوق العربي نمواً وتطوراً، إذ رسخوا فيه تذوق الرواية، والإقبال عليها. وصاحب هذا النهوض المتميز للرواية العربية نهوض مماثل لا يقل عنها تقدماً هو نهوض النقد العربي الروائي، وتشكلت مكتبة نقدية عربية تهتم بالرواية.

وتنوعت الاتجاهات الروائية خلال القرن العشرين من رومانتيكية واجتماعية ووطنية وواقعية وأسطورية وتاريخية، ولكن برز في أواخر القرن الماضي اتجاه وحيد لا يزال مستمراً إلى اليوم حتى طغى على التأليف الروائي، هو الاتجاه نحو التاريخ وتحويل الرواية إلى مسلسل تلفزيوني ولا سيما الرواية التاريخية، واهتمام بعض الروائيين بكتابة الرواية بقصد تحويلها إلى مسلسل تلفزيوني بل انصراف بعضهم إلى الكتابة للتلفزيون مباشرة.

فما سرّ هذا الإقبال على الرواية التاريخية، في التأليف، وفي المسلسل التلفزيوني؟! بداية لا بد من تمييز اتجاهات مختلفة في كتابة الرواية التاريخية وفي المسلسل التلفزيوني التاريخي، ومن الممكن في هذا السياق ذكر الاتجاهات الآتية:

1- الرواية التاريخية التي تحرص على سرد التاريخ والحفاظ على حقائقه بغية تقديم درس في التاريخ.
2- الرواية التي تعالج الحاضر وقضاياه من خلال التاريخ، بشكل من أشكال إسقاط الحاضر على الماضي.
3- الرواية التي تفسر التاريخ تفسيراً جديداً فتعيد بناءه وفق منظور جديد ورؤية جديدة.
4- الرواية التي تحوّر كثيراً في وقائع التاريخ



* أستاذ الأدب العربي الحديث في جامعة حلب



وتصطنع فيه شخصيات وحوادث وفق رؤى جديدة ولا يكون التاريخ بالنسبة إليها سوى أرضية تعمل فيها.
5- الرواية التي تصطنع مناخاً تاريخياً لا يستند إلى وثائق أو حقائق أو معطيات تاريخية إنما يوحي بالتاريخ ويشير إليه من بعيد ويثير الإحساس به فقط، وهو ما يسمى مجازاً الفانتازيا التاريخية.

وبإمكان المرء أن يذكر أشكالاً أخرى من التعامل مع التاريخ، ولكن هذه هي أبرزها في الرواية العربية المعاصرة، وفي المسلسل التلفزيوني التاريخي وقد أصبحا صنوين. ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه نحو التاريخ قد لقي إقبالاً شديداً من المؤلفين والمخرجين والمنتجين، ومن جمهور القراء والمتلقين بصورة عامة. فما سرّ هذا الإقبال على التاريخ لدى المبدعين والمتلقين؟ ما الدافع إلى التاريخ؟ وما أسباب العودة إليه؟

من الممكن في هذا السياق ذكر الأسباب الآتية التي تنطبق على المبدعين والمتلقين معاً:

1- يوفر التاريخ للمبدع مادة جاهزة تسهل عليه عملية التأليف ويستطيع إعادة تشكيلها وتكوينها وفق رؤيته وغرضه، وهذا أقل جهداً من إبداع حوادث وشخصيات وأماكن وأزمان جديدة.
2- يمنح التاريخ العمل عبقاً خاصاً ويضفي عليه الجلال والأهمية والوقار ويساعد على منحه الأصالة والرسوخ.
3- يمتلك التاريخ حوادث مفصلية فاعلة ومؤثرة كما يمتلك شخصيات متميزة قوية الحضور والتأثير وقادرة على تحريض المشاعر والأفكار.
4- يمتلك التاريخ لدى الجمهور رصيداً معرفياً ووجدانياً وعاطفياً يسهل على المبدع خطابه للجمهور ويجعله سريع التأثير فيه والتواصل معه.
5- يمتلك التاريخ في طبيعته حسّ الصراع بين القوى الفاعلة في التاريخ والمغيرة في مجراه مما يتفق وطبيعة الرواية القائمة على دينامية الفعل الإنساني.
6- يتيح التاريخ للمؤلف حرية العمل فكرياً، إذ يقدّم له مادة يستطيع من خلالها إثارة قضايا الواقع، من غير حرج ولا خوف، إذ يظل متستراً بالغطاء التاريخي.
7- يجد الجمهور متعة في استعراض الماضي لما له في النفس من جلال ووقار وعظمة.
8- يجد الجمهور متعة في إحساسه بأن هناك أشياء يقولها المؤلف تمس الواقع ولكن بصورة غير مباشرة ويدرك أن في هذا قدراً غير قليل من الذكاء.
9- يساعد التاريخ المؤلف على استخدام العربية الفصيحة في السرد والحوار، وهو يدرك أن استخدامه العربية الفصيحة يجعله أكثر قرباً من القراء، كما يدرك أن في استخدامه العربية الفصيحة ما يمنحه القوة والأصالة، ويحلّ بصورة واضحة ومباشرة مشكلة الحوار.
10- يمنح التاريخ المؤلفين مادة لا تنضب، فالتاريخ العربي واسع الامتداد، غني بالحوادث، وهو قابل لإعادة التأويل والتفسير، ولإعادة الإنتاج والبناء والتركيب، ولتأليفه ما يشبهه أو يشير إليه.

ولكن يبقى سؤال، لماذا هذا الكم الهائل من الأعمال التاريخية في الرواية والمسلسل التلفزيوني؟ أهو فرار من الحاضر إلى الماضي؟ أم اعتزاز بالماضي وانتماء إليه وارتباط به؟ أهو جفاف في القريحة ونضوب في الخيال؟ أم هو ركون إلى الأسهل والأبسط ولو بصورة مبدئية؟ أهو هرب من الصدام مع الواقع أم هو حرية في التعامل مع الواقع من خلال التاريخ؟

لاشك في أن بعض الروايات تجيب عن هذا السؤال، وبعضها الآخر يجيب عن ذاك، ولا نريد في هذا السياق ذكر الأمثلة، ولكن يبقى ثمة ما هو أهم، وهو: إلى أين تسير الرواية التاريخية؟! ألن يشعر المبدع في يوم ما بأن التعامل مع التاريخ ليس كافياً، أياً كان شكل هذا التعامل؟! ألن يملّ المتلقي في يوم ما من ذلك الكم الهائل من الأعمال التاريخية: مسلسلات وروايات؟ ألم يفكر المبدع في اتجاه آخر؟ ألا يطالب المتلقي بنوع آخر من الرواية؟ لعلنا نسأل أنفسنا في هذا السياق: أين الرواية العاطفية؟ أين الرواية العلمية؟ أين رواية الخيال العلمي؟ أين الرواية المستقبلية؟ أين الرواية الأسطورية؟!

ما من شك في أن هناك روايات متناثرة تنتمي إلى هذا النوع أو ذاك، ولكن التيار السائد الآن هو تيار الرواية التاريخية. فإلى متى سيستمر هذا التيار؟ أهو محض تقليد واتباع من كاتب إلى كاتب؟ أم هو تيار حقيقي فعلاً؟ أهو استجابة لرغبة القارئ والمتلقي أم هو رغبة المبدع نفسه؟

ومن المرجو بعد ذلك ألا يظن أننا نقلل من شأن الرواية التاريخية، أو نحط من قيمتها الفكرية والفنية، أو أننا ندعو إلى إلغائها ، إن هذا كله ليس بالمقصود، إنما المقصود هو لفت النظر إلى هذه الظاهرة، والتنبيه عليها.

ولذلك يبقى السؤال: ما التيار الآخر الذي يمكن أن يأتي بعد الرواية التاريخية؟ متى سيتجاوز الإبداع الروائي العربي مرحلة الرواية التاريخية؟ ومتى سيتنبه المتلقي العربي قارئاً ومتفرجاً على المسلسلات، إلى أن هناك آفاقاً أخرى وأنواعاً أخرى غير الرواية التاريخية؟!

قول آخر

أسماء تعود إلى جذورها

عبده خال، سعد الدوسري، عبدالله باخشوين، محمد علوان، يوسف المحيميد، وغيرهم.. أسماء سعودية عبّرت، بوضوح، عن جدارة السرد السعودي، وقدرته على التلبّس بواقعه وبيئته الاجتماعية. وفي أعمالهم القصصية القصيرة الكثير من المفردات الجمالية الشفيفة، والتنوع النابض بالحياة والحراك الشعبي والاجتماعي والإنساني. وهذا يدلل - بدوره - على ما شهدته المملكة من طفرة أدبية كبيرة وتطوير ملحوظ على الساحة.

إن القاص السعودي أحس بأنه قاب قوسين أو أدنى من المتغيرات الفكرية والفلسفية التي فجرت مصطلحات غاية في الغرابة والغموض، وانبثقت منها قضايا صراع الحضارات والحداثة والعولمة، وما بعد الحداثة التي لا تفضي إلا إلى المزيد من الإبهام.. فكان لا بد من التسلح بجذوره الأصيلة، ومواجهة هذه المتغيرات الضالة بالأدب الرصين الهادف، الذي لا يخذل القاريء بسطحيته، أو انغماسه في حالات الضبابية..!

وهناك الكثير من الإشارات الجمالية والواقعية في قصص هذه الأسماء، بمعنى إنهم اهتموا بواقعهم من خلال المعالجات الجمالية المتصلة بما وصلت إليه القصة القصيرة العربية من تقنيات ورؤى ومعطيات..

قصة عبده خال "القبر"، واحدة من نماذج كثيرة تشير إلى ما لدى القاص السعودي من مستوى في التعاطي مع البنية السردية. القصة تطرح حالة صراع بين رجلين يتقاتلان قتالاً غير متكافيء؛ فأحدهما بدِين يصوّره القاص بدقة حتى تكاد نراه بأعيننا قميئاً شريراً، في حين نتعاطف مع الآخر النحيف المتضائل جسداً..!

موقع الصراع هو مقبرة نائية، حيث لا شاهد على ذلك القتال المنعزل. وسبب الصراع هو الرغبة في الاستحواذ على قبر يدعي كلا الرجلين أنه قبر أبيه، ويؤكد تأكيد المتيقن أنه دفن أباه في المكان ذاته..!

بعد احتدام الخلاف؛ يدرك النحيف أنه سيصبح - بعد وصول الخلاف إلى عراك - فريسة بين يدي هذا العريض المفتول الذراعين؛ فما كان منه إلا إشهار مسدس في رأس خصمه الذي انصاع - تحت التهديد - إلى الأوامر، في الوقت الذي أصرّ على موقفه من مكان قبر أبيه..!

القصة المحتشدة بالشاعرية والسلاسة تذهب صوب تأكيد ما للقوة من قدرة على الفعل والتأثير. والسرّ الذي يلعب عليه القاص، عبده خال، ليس اختلافاً في "مكان" بقدر ما لهذا المكان من أهمية لدى مالك القوة/ المسدس. المكان، في ادعاء النحيف، يحتفظ بكيس ذهب مدفون مع الميّت. ولهذا فإن القوة/ المسدس في يد النحيف، تُحاول إجبار القوي الأعزل على حفر القبر...!

إنه عين الجحيم.. أن تصير المقابر ساحات يعبث بها الأقوياء. وعبده خال يدّخر الظاهرَ الخادع، في القصة، إلى الوقت المناسب. ففي الوقت الذي يمهّد للتعاطف مع البطل النحيف ذي العظام البارزة والعضلات الضامرة؛ فإنه، لاحقاً من زمن القصة، يكشف عن شرّير أشد شراسة من ذلك الرجل الضخم الذي تكاد شراسته تفيض، في البداية، على ورق القصة، وتدعونا إلى اتخاذ موقف كراهية منه، ثم ننقلب، لاحقاً، إلى الموقف المقابل تماماً..!

يُضاف إلى هذه الرمزية الشفيفة؛ أن عبده خال اعتنى بثلاثة محاور لعرض تجربته القصصية: فهناك السلاسة والتلقائية في السرد الذي وظف ضمير الغائب الذي تواشج وضمير المخاطب تارة، وضمير المتكلم تارة أخرى.. وهناك الفقرات الحوارية بين الشخصيات التي اتسمت بالاستخدام الدرامي لإكمال البناء السردي دون مبالغة.. وهناك المراوحة بين النثر والشاعرية التي نجحت بمفردات شفيفة أقرب إلى الشعرية..

وقبل هذه التقنيات والأساليب؛ هناك الموقف والرؤية اللتان انكشفتا عبر لغة غير مباشرة، واستهدفتا قراءة مكامن دفينة في النفس البشرية المغلفة بالظاهر المخادعة.. إنها رؤية تجسد السرّ الذي لا ينكشف منذ البداية..!

عبدالغني الخطيب - الإسكندرية



الملف

باطن الأرض

من هناك.. من تلك الأعماق المظلمة تخرج حمم البراكين والانفجارات التي تطيح بالجبال، ومن هناك أيضاً تأتينا الحجارة الكريمة الصغيرة ذات الجمال الأخّاذ.. من هناك تنطلق الزلازل المدمرة والمرعبة، ومن هناك يتدفق الماء لينثر الحياة أينما كان من حوله.. ومع ذلك، فإن تلك الأعماق التي تبدأ مباشرة تحت أقدامنا تبدو بعيدة جداً ومجهولة..

أوليس أمراً غريباً أن يسافر الإنسان إلى القمر، أو يرسل مسباراً إلى كوكب المريخ على بعد ملايين الأميال، وألاّ يتمكن في الوقت نفسه من الغوص في أعماق الأرض لأكثر من مئات الأمتار، وأن لا تتجاوز أعمق حفرة وصلها حفّار ثلاثة عشر كيلومتراً؟

أوليس غريباً أن يضم باطن الأرض معظم مستلزمات حياة الإنسان وتطوره من ماء ومعادن ووقود.. وأن تقوم حضارات وتندثر قبل ظهور "علم الأرض" الذي تأخر آلاف السنين عن الطب والفلك والهندسة، ولم ير النور إلا قبل قرنين من الزمن فقط؟

الأرض.. أمنا الكريمة تبدو منغلقة على نفسها، ضنينة بأسرارها، ناجحة إلى حد كبير في صدّ تطفّل الإنسان وفضوله. فإلى باطنها في هذه الرحلة مع فريق التحرير..

الأعماق المجهولة

رحلة إلى باطن الأرض

الأعماق المجهولة.. قلنا في المقدمة. فما مدى صحّة هذا القول ودقته؟ لقد نسج الإنسان منذ أن خُلق على سطح الأرض علاقة حميمة مع باطنها الذي يقع مباشرة تحت قدميه. كان ذلك عندما انحنى لأول مرة على الماء المتدفق من ينبوع ليرتوي، وعندما لجأ إلى الكهف ليحميه من العواصف والأمطار.. ولاحقاً عندما حفر تربتها ليزرع فيها بذور غذائه. وما من بناء قام على سطح الأرض إلا وغرس جذوره في باطنها، سواء أكان خيمة بسيطة أم ناطحة سحاب حديثة.

وأينما قامت مدنية متطورة نرى أنها كانت تتوسع ولو بحدود ضيقة صوب الأسفل.. صوب باطن الأرض. وينساق ذلك على الأنفاق التي شقّت في روما القديمة والعصور الوسطى لغايات عسكرية، وصولاً إلى أنفاق النقل والمواصلات في المدن الحديثة وبُناها التحتية الضرورية لتوزيع الماء والطاقة وما شابه ذلك.

ولكن لماذا لم يذهب الإنسان أبعد من ذلك؟ يقول أول الأجوبة التي تتبادر إلى الذهن إن بطن الأرض لا يرحّب بالزوار. فالحرارة والضغط يرتفعان تدريجاً بسرعة كافية لإيقاف أي زائر يغوص لمئات معدودة من الأمتار. فعلى عمق 2500 متر فقط، واستناداً إلى المعلومات الموثقة، تصل الحرارة إلى 105 درجات مئوية والضغط إلى 290 ضغطاً جوياً. فكيف هو الحال في لبّ الأرض (منتصفها) الذي يقع على بعد 6371 كيلومتراً تحت أقدامنا، وحيث تصل الحرارة إلى حوالي 5000 درجة مئوية، والضغط إلى آلاف المرات من الضغط الجوي؟

لقد بذل الإنسان ما بوسعه للوصول إلى الأعماق واستثمارها. وشاعت تقنيات الحفر حتى كيلومترات قليلة لاستخراج الموارد الطبيعية ما بين 2 و 3 كلم لاستخراج النفط، وما يزيد قليلاً على 3 كم لاستخراج الماس والذهب (بواسطة شفط التربة)، و4 كلم لاستخراج الغاز الطبيعي.. وأعمق ما وصل إليه مثقب رحوي كان أقل من 13 كلم في بئر "كولا ويل" في شمال شرق روسيا.

ولماذا لا يمكن الحفر أكثر من ذلك؟ لأن المثقب الرحوي المصنوع من أشد المعادن صلابة والمقوّى بالألماس، يتآكل تماماً كلما حفر عشرات الأمتار، ولا بدّ أن يُستبدل بآخر. وعملية التبديل معقدة وبطيئة وتستدعي إخراج كل العمود الذي يحمل المثقب في رأسه وتستغرق أوقاتاً طويلة جداً، وكلما ازداد العمق ازدادت التعقيدات التقنية على سطح الأرض لاستبدال المثقب.. ولذا تقف جهود الإنسان حالياً في هذا المجال عند هذه المستويات "السطحية" جداً..

المجهول والمعلوم

باطن الأرض إذن مجهول تماماً.. الأمر صحيح إن كنّا نشترط المشاهدة العينية لجمع المعلومات.

ولكن العلماء يتحدثون عن باطن الأرض الذي لم يصله إنسان ولا مسبار بكثير من التفصيل والثقة. والمكتبات تنوء بآلاف المجلدات التي تصف باطن الأرض، ولا تختلف في ما بينها إلا في بعض التفاصيل والتفسيرات. فإلى ماذا ترتكز هذه المعلومات، وما هي مصادرها؟

حتى القرن الثامن عشر كان الاعتقاد السائد عند علماء أوروبا أن عمر الأرض هو بضعة آلاف من السنين فقط. لا بل إن بعضهم كان قد نشر بحثاً علمياً في منتصف القرن السابع عشر يحدد تاريخ تشكّل الأرض بالعام 4004 ق.م. (على وجه الدقة؟!!).. الأمر الذي يؤكد أنه لم يكن للجيولوجيا بمفهومها الحديث أي وجود آنذاك.

يعتبر الاسكتلندي جيمس هاتون واضع كتاب "نظرية الأرض" في أواخر القرن الثامن عشر مؤسس علم الجيولوجيا الحديث الذي استفاد بسرعة من كافة العلوم الحديثة. وحقق قفزات مذهلة فتفرعت عنه تخصصات مستقلة مثل علم البراكين وعلم الزلازل وعلم المعادن... الخ.

وخلاصة ما توصّل إليه العلم حتى يومنا هذا يقول إن باطن الأرض مؤلف من أربع طبقات:

1 - **القشرة**: وهي الطبقة الباردة التي تقع تحت أقدامنا مباشرة. يبلغ معدل سماكتها تحت القارات من 30 إلى 40 كيلومتراً، وتحت المحيطات خمسة كيلومترات فقط، وتتألف بشكل أساسي من السيليكات.

2 - **الدثار**: وتبلغ سماكته 2,885 كيلومتراً، أي ما يشكل نحو 80 في المئة من حجم الأرض. وهو يتألف من السيليكات الصلبة، تتخلله بعض الجيوب السائلة بفعل الحرارة والضغط. وتصل الحرارة في المئة كيلومتر الأولى منه فقط إلى 1400 درجة مئوية.

3 - **اللب الخارجي**: طبقة منصهرة سماكتها 2,270 كيلومتراً، تتألف من الحديد والنيكل السائلين، وحرارتها ما بين 3700 و 4000 درجة مئوية.

4 - **اللب الداخلي الصلب**: في منتصف الكرة الأرضية ويبلغ شعاعه 1,216 كيلومتراً، ويتألف من الحديد والنيكل الصلب وتتراوح حرارته ما بين 4000 و 5000 درجة مئوية.

وعلى الرغم من أن حياة الإنسان على سطح الأرض ترتبط جملة وتفصيلاً بكل ما في طبقات الأرض، بدءاً من حرارة اللب وصولاً إلى حركة التيارات في بحر الحديد والنيكل المنصهر والتي تثبت أنها وراء نشوء الحزام المغناطيسي الذي يغلف فضاء الأرض ويحميها من المؤثرات الكونية، فإن القشرة، لتنوع مكوّناتها الداخلية، تبدو الطبقة الأكثر جاذبية للقيام برحلتنا إلى باطن الأرض.

رفاق الرحلة

في العام 1864م نشر الروائي الفرنسي جول فيرن روايته الكبرى الثانية "رحلة إلى باطن الأرض" التي لا تزال حتى يومنا هذا واحدة من أشهر روايات الخيال العلمي، وأبرز عمل أدبي من دون منازع في هذا المجال.

تبدأ أحداث هذه الرواية عندما يعثر عالم جيولوجي ألماني يعيش في هامبورغ ويُدعى البروفسور لايدنبروك على مخطوطة كتبت بلغة إيسلندية قديمة، فيساعده ابن شقيقه المولع بعلم المعادن ويدعى أكسيل على فك رموزها وقراءتها، ويكتشف أنها تشير إلى موقع يمكن من خلاله الوصول إلى باطن الأرض. والموقع هو فوهة بركان سنيفل في إيسلنده.

يعدّ الاثنان العدة كاملة ويتوجهان إلى بركان سنيفل المنطفئ. وهناك ينضم إليهما دليل محلي يدعى هانس، ويبدأ الثلاثة رحلتهم إلى الأعماق. وفي تلك الأعماق يصادف هؤلاء المغامرون الكثير من المخاطر، يواجهون الضياع والموت.. ولكنهم يواجهون أيضاً عينّات من كل ما نعرفه عن باطن الأرض ومحتوياته حسبما كان متوافراً للعلماء في ذلك العصر، وبعد أسابيع من الضياع والمشاهدات والتجوال في الكهوف والفوالق الصخرية يخرج الثلاثة من فوهة بركان سترومبولي في إيطاليا على شاطئ المتوسط!!

وهيا بنا مع البروفسور لايدنبروك وأكسيل وهانس في رحلتهم، ومع ما شاهدوه استناداً إلى هذا العمل الأدبي وما صرنا نعرفه اليوم استناداً إلى العلم الحديث..

طبقات الأرض الأربع:

القشرة

الدثار

اللب الخارجي السائل

اللب الداخلي الصلب

مكتبة لبنان ناشرون

ممّ تتألف الأرض؟

عناصر مختلفة أقل من 1%

ألمنيوم 0.4%

كالسيوم 0.6%

كبريت 2.7%

نيكل 2.7%

سيليكون 13%

مغنيزيوم 17%

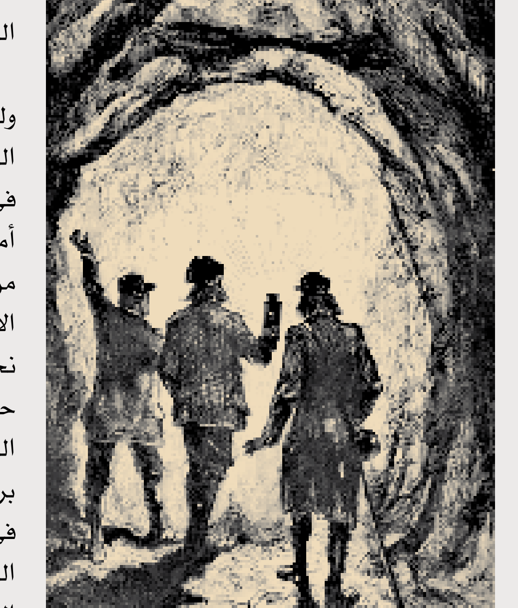
أكسجين 28%

حديد 35%

رحلة إلى باطن الأرض والمنفذ بركان

يقول أكسيل: "تشبه فوهة سنيفل قُمعاً مقلوباً يبلغ قطره في الأعلى نصف فرسخ، أما عمقه فقدَّرته بنحو ألفي قدم، والقعر يزيد على الخمسمائة.

وصلنا إلى القعر قرابة الظهر.. تطلعت إلى الأعلى لأرى حافة الفوهة تؤطر قطعة مستديرة من السماء الزرقاء.. وهناك، في القعر، تنفتح ثلاث مداخن كانت تخرج منها الحمم والأبخرة خلال ثورات البركان. يبلغ قطر كل منها نحو مئة قدم، وكان علينا أن نختار واحدة منها للوصول إلى باطن الأرض."*



واختيار الروائي لفوهة بركان منفذاً إلى باطن الأرض، يدلّ على بصيرة علمية نافذة على الرغم من عدم واقعيته عملياً. فعندما تهدأ البراكين وتخمد، تبرد الصهارة (اللابة) التي تكون في فوهته وتتجمد وتسد المداخن. ولا تفتح مجدداً إلا بازدياد الضغط الداخلي إلى درجة تكفي لتحطيمها أو تفجيرها. ولكن البراكين هي بالفعل أكبر النوافذ التي يمكن للعلماء أن يتطلعوا منها إلى باطن الأرض، على المستوى النظري طبعاً. فهي الأقنية الوحيدة التي تفتح بين الحين والآخر ما بين سطح الأرض وطبقة الدثار التي تقع تحت القشرة مباشرة على أعماق تبدأ ما بعد الأربعين كيلومتراً.

فلأسباب غير محددة بدقة يحتوي الدثار على جيوب سائلة ذات حرارة عالية. ويشكّل كل من هذه الجيوب ما يسمى "خزان الصهارة" الذي يقوم عليه كل بركان.

تنشأ غالبية البراكين حول الخطوط الفاصلة بين الصفائح القارية بسبب ضعف القشرة الأرضية فيها. وتحمل الصهارة المندفعة إلى السطح خليطاً من السيليكات والمعادن المختلفة التي تتنوع بتنوع طبيعة الصهارة ومحيطها في الأعماق، وتتراوح محتوياتها ما بين الرماد المخصّب للأراضي الزراعية وبلورات الحجارة الكريمة.. إضافة إلى الموت والدمار من حولها.

وللدلالة على عظمة الضغط المؤدي إلى انفجار البراكين نشير إلى أن انفجار بركان "سانت هيلين" في أمريكا سنة 1980م أطاح خلال ثوان بنحو 410 أمتار من الجبل، وسوّى بسطح الأرض كل ما هو قائم من حوله ضمن مساحة 400 كيلومتر مربع، وسحق الأشجار تماماً على بعد 25 كيلومتراً.. وقذفت فوهته نحو كيلومتر مكعبٍ من الرماد والصخور التي بلغت حرارتها 800 درجة مئوية. ويمكن لبعض الانفجارات البركانية أن تكون أعظم من ذلك بكثير. فانفجار بركان تامبورا في إندونيسيا سنة 1815م، قذف في الجو نحو 30 كيلومتراً مكعباً من الحمم، الأمر الذي أدى إلى تغيّر المناخ في العالم بأسره خلال العام التالي الذي عرف باسم "العام الذي لا صيف فيه". وعندما انفجر بركان كراكاتوا في جزيرة جاوا بإندونيسيا أيضاً سنة 1883م، كان الانفجار ضخماً إلى درجة أن صوته وصل إلى سواحل أستراليا على بعد ألفي كيلومتر منه.

أما بركان سنيفل في إيسلنده فهو خامد، يعود آخر نشاط فيه إلى العام 1229م. ومع ذلك:

"بقيت الحرارة عند مستويات يمكننا تحملها. وبشكل لا إرادي كنت أفكر في ما كانت عليه مقذوفات سنيفل عندما كانت تتزاحم في هذا الكهف الساكن اليوم. تخيلت سيول النار تتحطم على جدران هذا النفق، والأبخرة الحارة جداً تتكدس في هذا المكان الضيق".

* النصوص باللون الاحمر: مقتطفات من رواية جول فيرن

البركان يثور ويخمد



الصخور.. تتحول باستمرار وكأنها حيّة

المحترف السعودي

الصخور والمعادن

"قرابة الظهر، حصل تغيّر في مظهر جوانب النفق.. لاحظته من انعكاس ضوء المصباح الكهربائي على الجدران الصخرية. فقد حلّت الصخور ذات الألوان الفاتحة محل الصخور البركانية. وصارت الكتلة المحيطة بنا تتألف من طبقات رصفت فوق بعضها البعض، وأحياناً بشكل عمودي.. فصرخت: هذه الترسبات صنعتها المياه في العصر الثاني من عمر الأرض.. لقد أصبحت الكتلة الغرانيتية خلفنا".

الصخور هي تلك الكتل الحجرية الكبيرة المرصوفة فوق بعضها البعض أينما كانت هناك يابسة، وحتى أعماق تتجاوز القشرة لتشمل طبقة الدثار أيضاً. وتخدعنا الصخور بمظهرها الساكن. فنعتقد أنها كانت هكذا منذ الأزل وستبقى هكذا إلى الأبد. غير أنها في الواقع متحوّلة باستمرار. فللصخور دورة عملية مستمرة تتحول بها من حالة إلى حالة. وهي تصنّف في ثلاث مجموعات رئيسية: الصخور البركانية والصخور الرسوبية والصخور المتحوّلة. تتكون الأولى عندما تبرد الصهارة البركانية وتتجمد. أما الصخور الرسوبية فتتشكل عندما تنضغط الرسابة المؤلفة من الرمال والأتربة وتلتحم جسيماتها ببعضها في عملية تعرف بالتصخّر. أما الصخور فتكون متحولة عندما تطرأ تغيّرات على واحد من هذين النوعين بسبب التعرض للعوامل الجوية أو للحرارة في باطن الأرض. غير أن ما نسميه اصطلاحاً "الصخور" هو في الواقع كتل من المعادن تختلف "خلطتها" بين صخرة وأخرى.



حمم البراكين.. «البريد» الذي يصلنا من باطن الأرض

المحترف السعودي

جول فيرن



ولد هذا الروائي الفرنسي في شهر فبراير من العام 1828م، وتوفي في مارس من العام 1905م. أي أنه عايش النهضة العلمية التي تفجّرت في كل الميادين خلال القرن التاسع عشر، وأيضاً أكبر حشد من الروائيين العظام وعمالقة الأدب الذين حفل بهم القرن التاسع عشر في فرنسا وأوروبا بأسرها.

ومن تزاوج الاهتمامين الطاغيين آنذاك بالعلم من جهة والأدب من جهة أخرى، كتب جول فيرن نحو ثمانين رواية أو قصة طويلة. وكانت "رحلة إلى باطن الأرض" (1865م) ثاني هذه الروايات من حيث التسلسل الزمني بعد رواية "خمسة أسابيع في المنطاد".

حظيت أعمال جول فيرن في حياته بشهرة هائلة على مستوى العامة، وجنى من أعماله ثروة كبيرة أمّنت له حياة رغيدة حتى آخر لحظة. أما النقاد فقد انتقدوا في البدء أسلوبه الأدبي ولغته، وخلو رواياته من القيم الإنسانية العميقة، وابتعادها عن الاهتمامات المعاشة يومياً في أوروبا آنذاك. (مقارنة مع ستاندال وبلازك وهوغو في فرنسا، وتشارلز ديكنز في بريطانيا، وتولستوي ودستويف في روسيا).



وبمرور الوقت، برز جانب "الحقائق العلمية" التي تزخر بها هذه الروايات ليعوض عليها ما خسرته على الصعيد الأدبي. وحظي هذا الجانب باهتمام وصل إلى المبالغة والزعم أن الكاتب يمتلك قدرات غير عادية على استباق الاكتشافات وتوقعها.. والصحيح هو القول أن هذا الروائي كان يتمتع بحساسية فائقة تجاه أخبار العلم والاكتشافات التي كان يسجلها آنذاك، وأيضاً النظريات التي كانت غزيرة جداً آنذاك في شتّى المجالات العلمية. ومن هذا المحيط الغني بالمعلومات غير الشائعة، وبحساسية الأديب عرف جول فيرن كيف يلتقط مادته ويصيغها في ما شكّل فعلاً طليعة أدب الخيال العلمي في العصر الحديث.

رحلة إلى باطن الأرض

الذهب والماس

"كلما تابعنا نزولنا إلى الأسفل، كانت الطبقات المشكلة لهذه الأرض البدائية تزداد وضوحاً. في الطبقة الأولى ذات اللون الأخضر بدرجاته المختلفة، تتلوى سواق معدنية من النحاس والمنغنيز، وبعض شذرات البلاتين والذهب. رحت أفكر بهذه الثروات المدفونة في أحشاء الأرض والتي لم تكفِ يوماً جشع الإنسان! هذه الكنوز التي دفنتها انقلابات الأيام الأولى على أعماق لا يمكن لمعول أو ملقط أن يستخرجها منها. وبعد ذلك، هناك طبقة ثانية متميزة بانتظام ريقاتها وموازاتها لبعضها البعض، وأخيراً طبقة ثالثة مؤلفة من شفرات يضخم مظهرها بريق البلورات البيضاء. كانت أضواء المصابيح المتساقطة على بلورات هذه الصخور تتلاقى وومضات الضوء المنعكسة من كل الزوايا، فتخيلت نفسي مسافراً داخل ماسة جوفاء، يتحطم فيها الضوء إلى ألف شعاع باهر".



لعل أبرز الحقائق العلمية الواردة في هذه الفقرة هي في الحديث عن الإنسان الذي لا يمكن إشباع جشعه وسعيه إلى كنوز الأرض المعدنية. فكانت هذه الجاذب الأكبر والأول الذي شدّ هذا الإنسان صوب باطن الأرض.

تحتوي الأرض على نحو أربعة آلاف نوع من المعادن التي تقسّم عادة إلى مجموعتين رئيستين: العناصر الطبيعية والمركبات. تتكون العناصر الطبيعية من عنصر كيميائي واحد مثل الذهب أو الفضة أو النحاس أو الحديد أو الكربون (الذي يوجد في الطبيعة على شكلين: الماس والغرافيت). أما المركبات فتتكون من اتحاد عنصرين أو أكثر، مثال على ذلك السلفيدات المكونة من عنصر الكبريت ومن عنصر آخر كالرصاص في معدن الغالينا، أو الأنتيمون في معدن الاستبنيت.

توصل العرب قبل ألف عام إلى تصنيف أكثر من 900 معدن بناءً على خصائصها الطبيعية وبيئاتها الجيولوجية. فنجد في كتاب "الجماهر في معرفة الجواهر لأبي الريحان البيروني" وصفاً مفصلاً للمعادن والأحجار الكريمة. كما يتضمن هذا الكتاب الذي يعود إلى القرن الخامس الهجري ما كان الإغريق والرومان قد توصلوا إليه في هذا المجال. فقد اهتم الإنسان بالمعادن لألف غاية وغاية منذ فجر الحضارات الزراعية الأولى. وبعدما استنفد بسرعة ما كان يعثر عليه منها فوق سطح الأرض راح يبقر بطنها بحثاً عن المزيد.

تتشكل المعادن في باطن الأرض على أعماق مختلفة، ووفق معطيات بالغة التعقيد، ولا ينتقل إلا جزء يسير منها إلى سطح الأرض أو الطبقات العليا من القشرة، وبواحدة من طريقتين: إما عن طريق الصهارة البركانية التي تجرف في صعودها ما تصادفه في طريقها من معادن، وإما من خلال حركة الصفائح التكتونية التي ترتفع في بعض الجهات، ثم تأتي عوامل التجوية لتذيب الطبقات العليا منها، فتكشف عن المعادن، أو تجعل غطاءها الترابي والصخري أقل سماكة.

.. في أحد مناجم الفضة

Science Photo

فالماس مثلاً يتشكل على أعماق تتراوح ما بين 50 و 200 كيلومتر. فهناك فقط يتوافر الضغط اللازم لتنقية الكربون ذي الأصل العضوي ورص ذراته بهذا الشكل المميز. وعلى عمق 400 كيلومتر يتوافر الضغط والحرارة اللازمين لتشكل معدن البيريدوتيت ذا اللون الأخضر الزيتوني (منه حجر كريم شائع)، أما عندما تغوص صخور البيريدوتيت حتى عمق 600 كيلومتر فإن الضغط يتعاظم إلى درجة تؤدي إلى انهيار جزيئياتها وتحولها إلى معدن آخر هو السبينيل (حجر كريم آخر)..

والقليل، القليل فقط من هذه المعادن يطفو في باطن الأرض حتى مستويات يمكن أن يطالها الإنسان الذي يمد يده صوبها حتى أقصى حد ممكن. فأعمق مناجم الذهب في العالم تقع في مقاطعة الترانسفال في جنوب إفريقيا، حيث وصلت إلى 3,840 متراً تحت سطح الأرض في العام 1975م.

أما أكبر الحفر التي حفرها الإنسان بحثاً عن المعادن فهي في بينغهام كانيون في ولاية أوتاه الأمريكية. وقد بدئ العمل سنة 1906م على هذه الحفرة التي كانت في الأساس منجماً للفضة والذهب ثم اكتشف فيها النحاس. ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم استخرج منها ٥ بلايين طن من الصخور والأتربة التي أعطت نحو 12 مليون طن من النحاس وكميات مهمة من الذهب والفضة، ووصل قطر هذه الحفرة إلى 4 كيلومترات، وعمقها إلى 900 متر.

والحديث عن هذه الحفرة يعيدنا إلى صحة ما يقوله أكسيل في الرواية حول تواجد بعض المعادن بجوار بعضها مثل النحاس والفضة والذهب. ففي المملكة العربية السعودية يستخرج من منجم "مهد الذهب" نحو 100 ألف أونصة من الذهب ونحو 300 ألف أونصة من الفضة سنوياً. وفي هذا المنجم كما في معظم المناجم الأخرى يكون الذهب فعلاً على شكل سواقٍ وعروق منغرسة في الصخور، تصاحبه معادن أخرى مثل النحاس والزنك.

غير أن باطن الأرض يحوي بعض كتل المعادن النقية المنفصلة عن الصخور التي يمكن أن يصل وزن بعضها إلى عشرات الكيلوغرامات (أكبرها على سبيل المثال قطعة تزن 93 كلغ من الذهب عثر عليها في أستراليا، وقطعة فضة تزن 1,350 كلغ وجدت في أريزونا بأمريكا).

عروق النحاس، وحبيبات الذهب والحجارة الكريمة.. عيّنات من أربعة آلاف معدن يضمها باطن الأرض.

Jeff Scovil d.r.

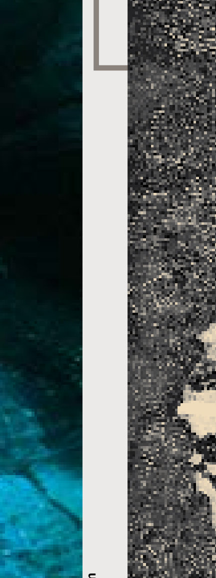
Science Photo

المحترف السعودي



Edward J. Tarbouk d.r.

"في تلك اللحظة سمعت صوتاً غريباً يسري في باطن الجدران الغرانيتية، صوت خرير عميق كما لو كان رعداً بعيداً. عرف عمي مصدر هذا الصوت فقال: لقد صدق هانس. ما تسمعه هو خرير مجرى ماء. وبدأ هانس العمل على حفر الجدار الغرانيتي بضربات دقيقة ومنتظمة من معوله، وبعد أكثر من ساعة، كان قد حفر نحو القدمين عمقاً. أما عمي الذي ضاق ذرعاً بالعطش والانتظار فقد حاول استخدام وسائل أخرى، غير أنني كنت أحاول ردعه عندما سمعت صفيراً مفاجئاً. فقد انطلقت نافورة ماء من الجدار ووصلت إلى الجدار المقابل لتتحطم عليه. أما هانس الذي كاد يسقط أرضاً تحت ضغطها فقد صرخ من الألم. عرفت السبب عندما مددت يدي صوب الماء. فأطلقت صرخة بدوري: ماء حرارته مئة درجة! فأجاب عمي: سيبرد".



إنه أعظم كنوز الأرض، وأغلى ما تخبئه في أعماقها. فعندما تهطل الأمطار تبدأ كميات مختلفة من مياهها بالانحدار نحو باطن الأرض لتتجمع فيه على شكل مجاري وبحيرات جوفية. تختلف هذه النسبة بين مكان وآخر. ففي الأراضي القابلة للارتشاح مثل الرمال والحصى تتراوح هذه النسبة ما بين 40 و 50 في المئة، وفي الأراضي الصخرية ما بين 5 و 20 في المئة.

والمياه الجوفية تتابع تدحرجها عبر الصخور المسامية والتشققات الطبيعية لتصل إلى طبقة كتيمة فتبدأ بالتجمع فوقها، ويبدأ مستواها بالارتفاع، حتى تجد منفذاً أفقياً فوق سطح الأرض أو في باطنها.

وهناك اعتقاد شائع يقول بأن طبقات الأرض تنقّي الماء الملوّث. والأمر صحيح في ما يتعلّق بالبكتيريا وبعض المواد الكيميائية التي تتأكسد وتتحلل خلال احتكاكها بالمعادن الموجودة في الصخور، إذا كان هذا الاحتكاك بطيئاً. أما إذا كانت مسارب الماء كبيرة ووصل بسرعة إلى جوف الأرض فإنه يصل ملوثاً. كما أن طبقات الأرض تعجز عن تنقية الماء من بعض الملوثات كالبنزين على سبيل المثال.تشكل المياه العذبة المدفونة في الأرض نحو14 في المئة تقريباً من مجموع المياه العذبة في العالم. (في حين أن الجليد يمثل نحو 85 في المئة)، ومع ذلك يعتمد ثلث البشرية، أي نحو ملياري نسمة، على المياه الجوفية في حياتهم اليومية.

والمياه الجوفية في المناطق الرسوبية تكون عادة باردة جداً لبعدها عن أشعة الشمس من جهة، وعن حرارة الأرض الداخلية من جهة أخرى. ولكن يصدف أن تمر هذه المياه بجوار مناطق بركانية حارة، فترتفع حرارتها وتتبخر. ويصبح البخار عامل ضغط يزيد من نشاط حركتها، وفي بعض الأماكن يدفع بها إلى الأعلى على شكل نوافير من الماء الساخن.

على مقربة من بركان سنيفل في إيسلنده هناك نافورة تفور كل خمس دقائق وتقذف في الجو مياهاً تبلغ حرارتها 260 درجة مئوية، يشير إليها السكان بكلمة "جايزير" التي تعني في لغتهم "الفوّار"، ولكن لشهرتها أصبحت هذه الكلمة اسم كل نبع ماء ساخن يتفجر على دفعات من باطن الأرض. لا شك من أن جول فيرن شاهد هذه النافورة خلال إعداد روايته. وهو ينسب إلى أبطال روايته مشاهدتهم لواحدة منها على جزيرة صغيرة في بحر ضائع عبروه في رحلتهم تحت الأرض!!

والمياه الجوفية في حركة دائمة تقل كمياتها خلال مواسم الشح والجفاف، وتزداد خلال مواسم الأمطار. ويقدر العلماء أن المياه الجوفية تتجدد تماماً مرة كل ما معدله 280 سنة.. وخلال هذه الحركة والتجدد تنحت المياه في باطن الأرض أجمل معالمها الطبيعية على الإطلاق: الكهوف



Eric Bjustrom

خزان المياه الجوفية في عين هيت



المحترف السعودي

البحيرات الجوفية راكدة.. ظاهرياً فقط



Science Photo

ومن هناك يتدفق الماء لينشر الحياة

من العصر إلى الدهر..

الزمن جيولوجياً

اعتاد الناس قياس الزمن في حياتهم اليومية بالساعات والأيام. أما كتب التاريخ فتتحدث عن الزمن بالسنوات والقرون. وحتى في هذا المجال، يصعب على الإنسان أن يقدّر في ذهنه بوضوح طول قرن كامل أو قرنين.. فبالنسبة إلى البعض، يعتبر الشيء الذي يعود صنعه إلى ما قبل 90 سنة "قديماً"، والأشياء التي تعود إلى بضع مئات من السنين "أثرية" أو قديمة جداً.

في علوم الأرض، يُقاس الزمن بملايين وبلايين السنين. ومن الممكن في لغة هذا العلم أن توصف صخرة تشكّلت قبل عشرة ملايين سنة بأنها "حديثة".. ولهذا، غالباً ما ننسى مقاييس الزمن عند الحديث عن الأرض وتاريخها.

ولكن ماذا لو ضغطنا 4.6 بليون سنة - وهو عمر الأرض - في سنة افتراضية واحدة تبدأ في 1 يناير وتنتهي في 31 ديسمبر. فما الذي حصل ومتى؟

على هذا السلم المصغّر، تعود أقدم صخرة نعرفها إلى منتصف شهر مارس. وظهر أول الكائنات الحية في البحر أولاً قرابة منتصف شهر مايو. أما النباتات المتنوعة والحيوانات فلم تظهر قبل أواخر شهر نوفمبر.

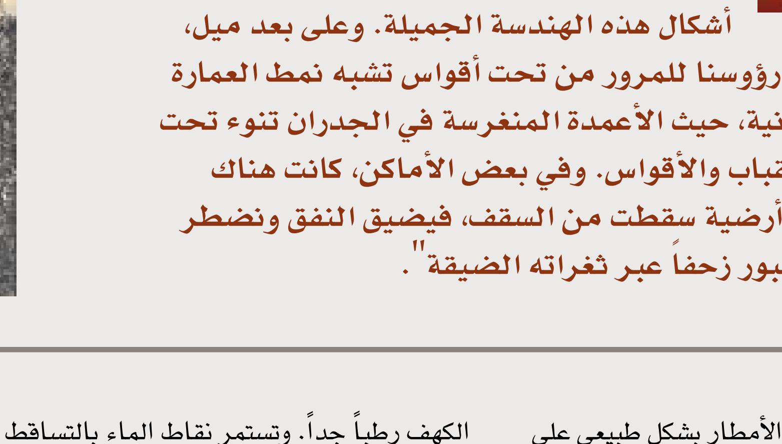
في الأيام الأربعة الأولى من شهر ديسمبر بدأت مسيرة تكدس المواد العضوية في قاع المحيطات لتشكّل بعض أنواع الوقود الأحفوري مثل الزيت والغاز.

وفي منتصف هذا الشهر أصبحت الديناصورات سائدة أينما كان، ولكنها انقرضت تماماً في السادس والعشرين منه.

أما الإنسان فقد ولد في وقت ما قرابة عصر يوم 31 ديسمبر. ويعود آخر عصر جليدي اكتسح الأرض إلى دقيقة و 15 ثانية قبل منتصف ليل 31 ديسمبر. وقامت الإمبراطورية الرومانية وسيطرت على العالم الغربي وحوض المتوسط لمدة خمس ثوان بدءاً من الساعة 11 والدقيقة 59 والثانية 45. واكتشف كولومبوس أمريكا قبيل منتصف الليل بنحو ثلاث ثوان، ووضع جيمس هاتون أسس علم الجيولوجيا قبل نحو ثانية واحدة من منتصف الليل، وتم توحيد المملكة العربية السعودية في الثلث الأخير من الثانية الأخيرة من هذه السنة الافتراضية.

إلى ذلك، فإن للحديث عن تاريخ الأرض مفردات خاصة لا يجوز الخلط بينها. وعلى سبيل المثال، كلنا سمعنا بالعصر الجوراسي أو العصر الطباشيري وما شابه.. والعصر هو في الواقع مرحلة محدودة وصغيرة، حتى ولو امتد إلى عشرات ملايين السنين. وكل مجموعة عصور تؤلف حقبة، فالعصر الترياسي مثلاً يؤلف مع الجوراسي والطباشيري حقبة واحدة امتدت منذ 248 مليون سنة ق.م. حتى 65 مليون سنة ق.م. ومجموع بعض الحقب يؤلف دهراً.

والتاريخ الذي طاله الإنسان بحثاً وتخميناً ينقسم إلى دهرين: دهر الحياة الظاهرة وهو الذي يمتد من يومنا الحاضر رجوعاً حتى 550 مليون سنة خلت، والدهر الفجري أو دهر ما قبل الكمبري أو الدهر العتيق، وهو الذي يشمل كل الزمن السابق ولا يزال مجهول الملامح عموماً ولم يقسّم إلى عصور وحقب.



قصور الطبيعة

"كان هذا الممر المظلم منحدراً قليلاً، وسعته تختلف كثيراً بين مكان وآخر. أحياناً كانت النوازل من السقف تتوالى أمامنا وكأنها عروق الأعمدة في المباني القوطية القديمة. كان يمكن لفناني القرون الوسطى أن يدرسوا هنا كل أشكال هذه الهندسة الجميلة. وعلى بعد ميل، أحنينا رؤوسنا للمرور من تحت أقواس تشبه نمط العمارة الرومانية، حيث الأعمدة المنغرسة في الجدران تنوء تحت ثقل القباب والأقواس. وفي بعض الأماكن، كانت هناك عوائق أرضية سقطت من السقف، فيضيق النفق ونضطر إلى العبور زحفاً عبر ثغراته الضيقة".



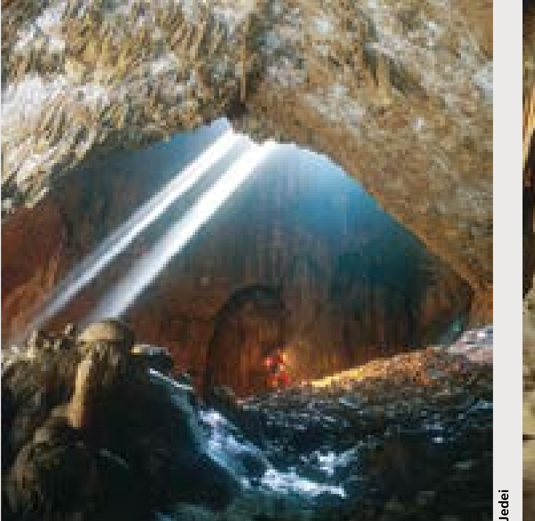
تحتوي مياه الأمطار بشكل طبيعي على حمض الكربونيك الذي تلتقطه من الهواء. وخلال تسرب هذا الماء إلى باطن الأرض عبر الصدوع والفوالق الصخرية، يذيب الحمض ببطء المعادن الموجودة في هذه الصخور. وبمرور آلاف وملايين السنين تتوسع هذه المسارب لتتحول إلى شبكة من المغاور والممرات التي تستحيل كهوفاً واسعة إذا انهارت سقوفها. ولأكثر من سبب مناخي وجيولوجي يمكن أن يجف السيل الذي حفر الكهف سابقاً. ولكن في مرحلة ما يبقى محيط الكهف رطباً جداً. وتستمر نقاط الماء بالتساقط من سقفه وعلى جوانبه. ولأن هذه النقاط تكون غنية بالأملاح والمعادن وتتساقط ببطء، يحصل في كثير من الأحيان أن تتبخر جزئياً أو كلياً قبل أن تسقط على الأرض، فتترسب منها بصمة صلبة من البلورات الدقيقة. وبتراكم هذه البلورات تصبح أشبه بأعمدة تتدلى من سقف الكهف نسميها "النوازل" أما الصواعد فهي التي تتشكل من النقاط المتساقطة على الأرض، والتي تنمو باتجاه الأعلى. وأحياناً يلتقي النازل بالصاعد ليتشكل "العمود" الذي يزداد قطره باستمرار طالما بقي يتلقى الماء ونقاطه التي تنساب على جوانبه.

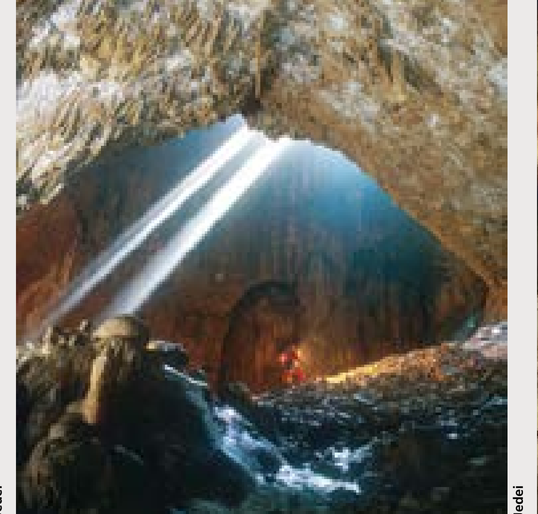
وتنتشر الكهوف أينما كان في العالم وتتركز بشكل خاص في المناطق المؤلفة من الحجر الجيري.

وفي المملكة العربية السعودية مجموعة كبيرة من الكهوف الصحراوية. بعضها كان معروفاً منذ القدم، وبعضها استكشف حديثاً. ويتجمع عدد منها بشكل لافت حول قرية المعاقلة على تخوم صحراء الدهناء، وأكبرها هو الكهف المعروف باسم دحل السلطان. وهناك أيضاً كهف "درب النجم" الذي يستمد اسمه من اعتقاد السكان القدامى أنه ناجم عن سقوط نجم على الأرض.

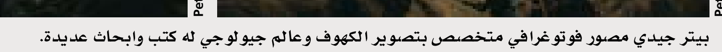
وفي دحل المربع المتميّز عن غيره من كهوف هضبة الصمّان بجفافه وبرودته (تستقر الحرارة داخله على 16 درجة مئوية)، عثر العلماء بدلاً عن الصواعد والنوازل والترسبات اللؤلؤية الشكل الشائعة في غيره، على عظام بشرية وحيوانية حملتها الضباع المفترسة إلى داخله قبل أكثر من ألف عام.

ومن أشهر الكهوف في البلاد العربية مغارة جعيتا في لبنان التي تحظى بشهرة سياحية عالمية، وكهوف سريجيس في الجبال الساحلية في سوريا. غير أن أكبر كهوف العالم هو "كهف الماموث" في ولاية كنتاكي بأمريكا، والذي يبلغ طول مجموع ممراته نحو 540 كيلومتراً، ويحتوي على أكبر "قاعة" معروفة تحت الأرض، تقارب مساحتها نحو 14 ملعب كرة قدم، ويرتفع سقفها بما يكفي لوضع مبنى الكابيتول بكامله في داخلها..!!

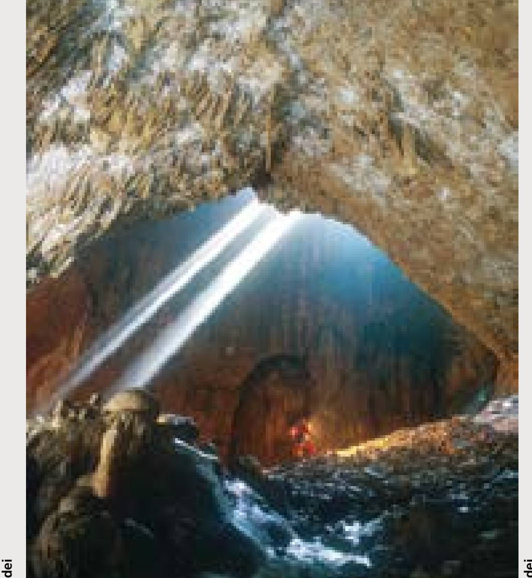




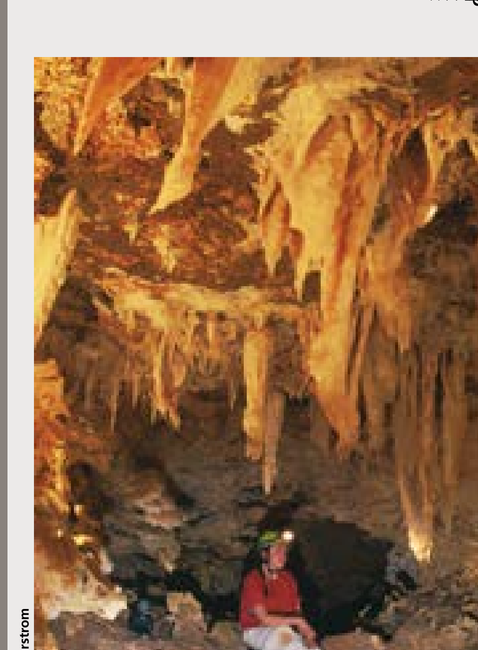




بيتر جيدي مصور فوتوغرافي متخصص بتصوير الكهوف وعالم جيولوجي له كتب وابحاث عديدة.



من الكهوف في المملكة العربية السعودية: الكهف الأنيس



وكهف المفاجأة شرق صحراء الدهناء

المسح الزلزالي

تعود معرفتنا بباطن الأرض إلى مصادر ووسائل عدة. منها الحفريات التي تطال مئات الأمتار الأولى، وما تحمله إلينا البراكين من غازات ومواد صلبة تنير بعد دراستها ظلمات الأعماق حتى 200 كيلومتر تقريباً. وأيضاً هناك النيازك التي تهبط من الفضاء وتشير بتركيبتها الكيميائية إلى مادة الأرض كما كانت في الدهر العتيق. غير أننا ندين بمعظم ما نعرفه عن باطن الأرض إلى المسح الزلزالي.

التعبير يبدو علمياً يصعب فهمه، ولكن مبدأه بسيط يعرف الجميع ما يشبهه. فعندما يقوم البعض بشراء ثمرة بطيخ، نراه يقرع قشرتها بعقدة إصبعه ليسمع الصدى الداخلي الذي يشير إلى ما إذا كان لبّ الثمرة صلباً، أم طرياً فيه ماء كثير نتيجة النضوج.

المسح الزلزالي يشبه ذلك تماماً. فهو يقوم على دراسة باطن الأرض من خلال الموجات الصوتية وارتداداتها. فالصوت ينتقل بسرعات مختلفة ما بين الهواء والأجسام الصلبة والسوائل. ومن خلال إطلاق موجة اهتزازات صوتية ورصد مسيرتها وارتداداتها بواسطة أجهزة لاقطة وحساسة، يمكن وضع تصور لنوعية المواد التي عبرتها هذه الموجات في الأعماق. ويمكن لأجهزة الكومبيوتر المعالجة أن تقدم صورة لهذه الأعماق تشبه تصوير ما في داخل جسم الإنسان بواسطة أشعة إكس. وهذه الموجات الصوتية يمكن إطلاقها بواسطة جهاز خاص هو عبارة عن شاحنة تحمل ثقلاً كبيراً تضرب به الأرض. ومع ذلك يقتصر مجال عمل هذه الأجهزة على نطاقات محلية وأعماق لا تتجاوز بضعة كيلومترات. أما لدراسة باطن الأرض وصولاً إلى اللب، فالاعتماد يقوم على رصد الموجات الصوتية للزلازل الطبيعية والتفجيرات النووية. والنتائج العلمية المحصودة من هذه "الكوارث" مدهشة في دقتها.

وعلى سبيل المثال، بعدما كانت النظريات تقدر شعاع اللب الصلب في باطن الأرض بما يزيد قليلاً على ألفي كيلومتر، استفاد العلماء من التحديد الدقيق للحظة تفجير نووي في صحراء نيفادا بأمريكا سنة 1960م، ورصدوا حركة الموجات الصوتية في باطن الأرض، وبعد تحليل معطياتها توصلوا إلى تحديد شعاع اللب الصلب بدقة مذهلة: 1,216 كيلومتراً فقط.



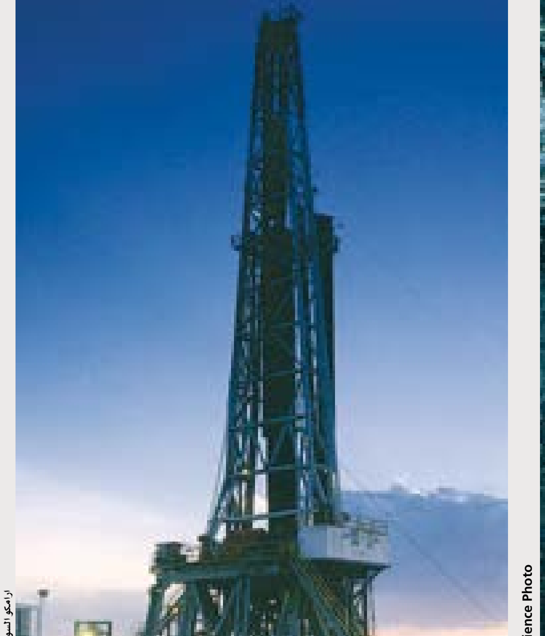
"بعد مسيرة عشر ساعات، اختفى بريق الضوء المنعكس على الجدران، واختفى الرخام الأبيض والحجر الجيري لتحل محلهما كسوة جدارية داكنة اللون. وعندما اضطررت إلى الإتكاء على الحافة اليسرى وتطلعت إلى يدي، رأيتها سوداء تماماً. فقد كنّا داخل منجم فحم.. منجم من دون عمّال، حفرته الطبيعة..وكنّا نمشي ونمشي.. وكنت الوحيد من بين رفاقي الذي شرد ذهنه بعيداً عن طول المسافة للتفكير بالاعتبارات الجيولوجية. بقيت الحرارة على ما كانت عليه خلال مرورنا بالطبقات البركانية ومن ثم الرسوبية. غير أن أنفي التقط رائحة حادة جداً منبعثة من بروتوكاربور الهيدروجين، أيقنت عندها أن هذا الممر يحتوي على كميات مهمة من هذا السائل الخطر الذي سمّاه عمال المناجم الزيت، والذي تسببت انفجاراته بكوارث مرعبة. ولحسن حظنا، كنا نعتمد في الإضاءة على "مصابيح رومكورف" هذا الابتكار العبقري. لأننا لو كنّا نتجول على ضوء المشاعل لحصل انفجار أنهى الرحلة وأطاح بالرحّالة".

عندما كتب جول فيرن روايته كان الفحم الوقود الأكثر شيوعاً في العالم ومصدر الطاقة الأول. ولذا أفرد له الروائي صفحات تزيد كثيراً على المقتطفات التي اخترناها. في حين أن الزيت الذي كان شبه مجهول آنذاك، لم يحظ من الكاتب بأكثر من هذه الأسطر المعدودة. أما اليوم، فالعكس أصبح صحيحاً. وبات الزيت المصدر الأول للطاقة في العالم، وها هو الغاز الطبيعي ينضم إليه كمصدر رئيسي آخر للطاقة. وما من مكان على سطح الأرض أو في باطنها يمكنه أن ينير الظلمات المحيطة بكمائن الزيت ويبسط المعلومات المتعلقة بها أفضل من المعرض الدائم الذي أنشأته أرامكو السعودية خصيصاً لهذه الغاية. نفهم من تجوالنا في هذا المعرض أن الزيت وقود أحفوري (مثل الفحم والغاز) تشكل أساساً من مواد عضوية كانت في غابر الأزمان حيوانات ونباتات حية.

ففي الماضي البعيد، قبل ملايين السنين كانت السيول غالباً ما تجرف النباتات والحيوانات الحية والميتة لتستقر بها في قاع المحيطات وتضمها هناك إلى ما كان يحيا تحت الماء. وبمرور الزمن، كانت هذه المواد تتكدس، وتتكدس فوقها الأتربة التي بفعل ترسبها كانت تتحول إلى صخور مسامية صلبة. وبفعل تكدس المزيد، والحركات التكتونية للقارات كان موقع بقايا هذه الكائنات العضوية يتعرض إلى ضغط متزايد وحرارة أعلى. الأمر الذي يؤدي إلى "اختمار" بطيء ينتج عنه فصل المواد المعدنية عن هذه البقايا وتشكل الزيت الذي غالباً ما يصحبه الغاز الطبيعي. ولأن المياه تتسرب باستمرار إلى هذه الصخور الرسوبية المشبعة بالزيت، ولأن هذا الأخير أخف وزناً من الماء، فإنه يتحرك عبر الصخور صوب الأعلى حتى يصطدم بطبقة كتيمة من الصخور لا يستطيع أن ينفذ منها إلى أي مكان آخر، فيستقر هناك في ما نسميه اصطلاحاً "المكمن"، تعلوه طبقة من الغاز تعرف باسم "الغاز المرافق". أما الغاز غير المرافق فيتشكل ويؤسر عادة على أعماق أكبر من أعماق مكامن الزيت.

في منجم للفحم

Science Photo



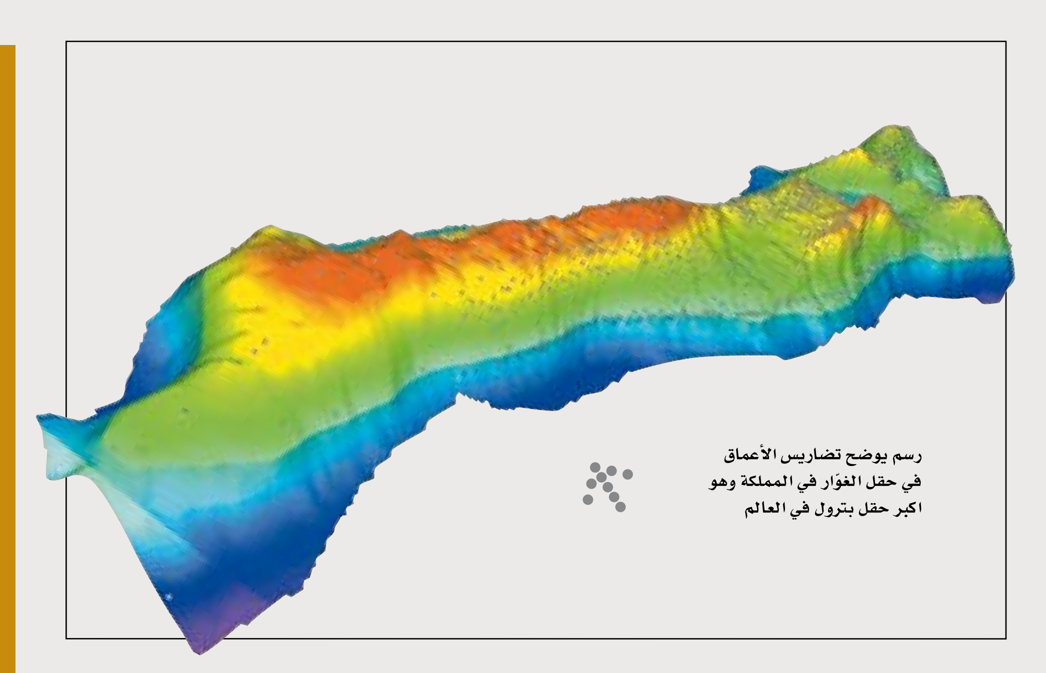

من هنا ينبع النفط

أرامكو السعودية

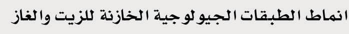
وأية أعماق؟

في المملكة العربية السعودية يقع التكوين الصخري غير المسامي الذي يأسر الزيت تحته، والذي يعرف باسم تكوين "هيت" على عمق ألفي متر تقريباً في المنطقة الوسطى من المملكة. ولذا فإن الزيت في الحوطة يوجد على هذا العمق تحديداً. ولكن، لأن الطبقات الجيولوجية تنحدر صوب الأسفل كلما اتجهنا شرقاً، فإن مكامن الزيت تصبح على أعماق أكبر. وتصل في حقل الغوار العملاق حتى تكوين حنيفة على عمق 2,750 متراً تحت سطح الأرض. واستطراداً نشير إلى أن حقل الغوار الأكبر في العالم يحتوي على عشرات بلايين البراميل من الزيت العربي الخفيف والخفيف جداً، تملأ "حفرة" يبلغ طولها نحو 260 كيلومتراً وعرضها نحو 40 كيلومتراً.

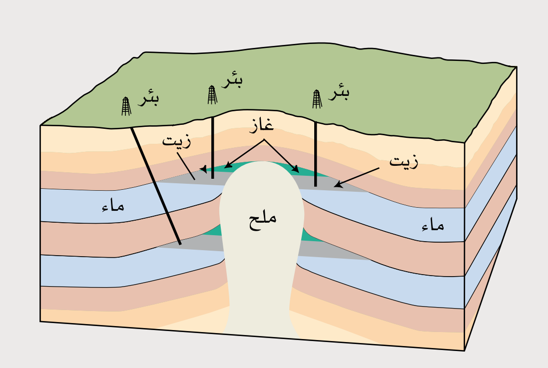
أما الفحم فهو أيضاً من أصول نباتية، ولكن مسيرة تشكله مختلفة. فالزيت يتشكل من المواد العضوية التي دفنت أولاً في قاع المحيطات. أما الفحم فتشكل أساساً من جذوع الأشجار وغيرها من المواد العضوية التي دفنت في المستنقعات والوحول فوق مستوى سطح البحر، فتحجرت واستقرت في مواضعها بسرعة نسبية.

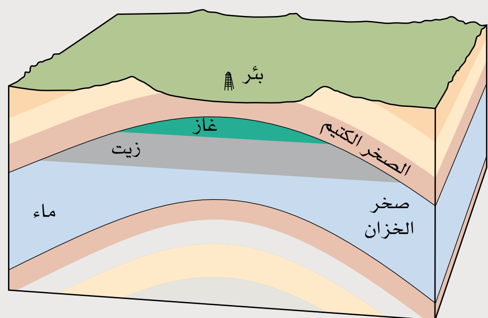


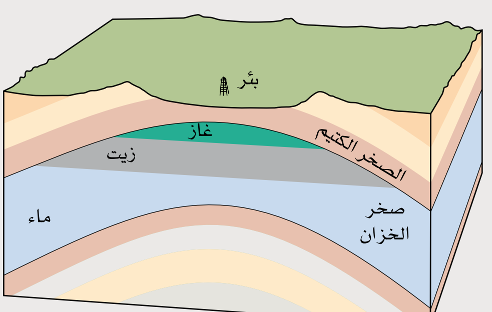
رسم يوضح تضاريس الأعماق في حقل الغوار في المملكة وهو اكبر حقل بترول في العالم



انماط الطبقات الجيولوجية الخازنة للزيت والغاز







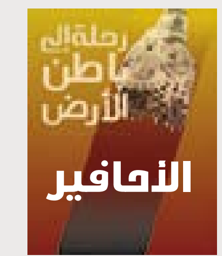
أرسطو وباطن الأرض

تعود أولى الكتابات التي وصلت إلينا حول باطن الأرض إلى الحضارة اليونانية، وتحديداً إلى ما قبل 2300 سنة.

ومن أشهر الروّاد في هذا المجال نذكر أرسطو الذي يعتبر واحداً من ألمع فلاسفة اليونان. غير أن كتابات هذا الفيلسوف التي تناولت باطن الأرض بقيت وليدة خيال مجنّح وتكهنات، ولم تكن نتيجة المراقبة والاختبار أو الدراسة العلمية.

يقول أرسطو إن الصخور تشكلت بفعل "تأثير" من النجوم! وإن الزلازل تحدث عندما ترتفع حرارة الهواء المضغوط في باطن الأرض بفعل الحرارة المركزية، فينفجر!! وعندما حمل إليه أحدهم سمكة متحجرة، فسّر غموض المسألة بقوله: "إن هناك أسماكاً كثيرة تعيش (كذا) في باطن الأرض من دون حركة، ويتم العثور عليها خلال الحفريات"!!

ومع أن هذه التفسيرات كانت "مهمة" في ذلك العصر لأنها تمثل بدايات سعي الإنسان إلى التفكير علمياً بباطن الأرض وظواهره، فإن مشكلتها تكمن في اعتمادها كحقائق علمية طوال قرون عديدة. وفي هذا المجال يقول فرانك أدامس في كتابه "نشوء الجيولوجيا وتطورها" إن أرسطو ظل طوال القرون الوسطى أهم فيلسوف من دون منازع، والشخص الذي يُعتبر رأيه حول أي شأن حقيقة نهائية لا تقبل النقاش!



"كانت كتل الرخام من حولنا تحمل بصمات حيوانية واضحة.. لاحظت من بينها بقايا فصائل متطورة وأسماك كانت تعج بها البحار القديمة وتقذفها صوب صخور الشواطئ ورمالها... ارتميت على هذه البقايا المصنوعة من مواد معدنية لا يمكن تحطيمها. ورحت أطلق أسماءً على هذه العظام العملاقة التي تشبه جذوع الأشجار اليابسة.. هذا هو الفك السفلي لحيوان الماستوندونت، وهذه الفقرات الظهرية للدينوتوريوم.. لا يمكن لهذه البقايا أن تكون قد وصلت إلى هنا نتيجة عامل طبيعي. لا بد وأن هذه الحيوانات عاشت قديماً هنا على شاطئ هذا البحر الدفين في ظلال هذه الأشجار المتحجرة.. خذوا هذا.. إنه هيكل عظمي كامل".



الأحافير هي الحيوانات والحشرات والنباتات المتحجرة والتي يعثر عليها في باطن الأرض داخل الصخور الرسوبية. الأسماك أكثرها شيوعاً، والديناصورات أشهرها. وإلى ذلك يمكننا أن نجد القشريات والزواحف والأصداف المختلفة، والعقارب ونجوم البحر وحتى أغصان النباتات وأوراقها.

إن معظم الكائنات الحية تتعفن وتتحلل بسرعة بعد موتها، أو قد تأكلها الحيوانات والحشرات. ولذا، فلكي تتم عملية الاستحجار (أي تكوّن الأحافير)، يجب أن يحصل دفن الكائن العضوي بسرعة بواسطة المواد الرسوبية كالرمال، أو الوحول التي يجب بدورها أن تجف بسرعة تحت تأثير العوامل المناخية. وهنا يمكن أن يتحول الكائن إلى أحفورة بواحدة من طريقتين.

الأولى، وفيها تتعفن المواد الطرية في جسم الكائن الميت بسرعة، غير أن بعض أجزائه الصلبة كالعظام والأسنان والأصداف يمكن أن تحفظ خلال تحوّل الطبقة الرسوبية الطرية إلى حجر قاس. وهنا تقوم المياه بنقل ذرات المعادن من الطبقة الرسوبية لتملأ بها الفراغات الدقيقة جداً الموجودة في هذه العظام فتزيدها صلابة، بمرور السنين.. ملايين السنين.

أما الطريقة الثانية فتحصل عندما يتحلل الكائن العضوي وكل ما فيه داخل مدفنه الرسوبي، ولا يبقى منه شيئاً غير الفراغ الذي تركه شكله، أي القالب. وهذا القالب الفارغ يبدأ بمرور الوقت بتخزين المعادن التي تنقلها إليه المياه. وعندما يمتلئ تماماً تكون عملية صبّ شكل الكائن الميت قد انتهت، ولكن من مواد لا تمت إلى حقيقته بصلة، ومقاومة لعوامل الزمن حتى بمقاييسه الجيولوجية.



كائنات متحللة على الصخور



جول فيرن الثاني

في المقاييس الجيولوجية تتحدى الأرقام ليس قدرات الإنسان فقط بل خياله أيضاً. ولأن الرحلة إلى باطن الأرض لا يمكن أن تنتهي في مكان محدد، نكتفي بهذا القدر، ونخرج مع رفاقنا إلى سطحها عبر فوهة بركان سترومبولي في إيطاليا.

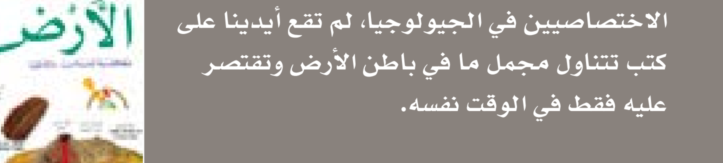
وعلى ضوء سطح الأرض نقرأ في مجلة علمية صدرت في أغسطس من العام الماضي، مقالاً حول حقيقة ما يحتويه لبّ الأرض. وأغرب ما جاء في المقال المذكور أن عالماً يدعى دايفيد ستيفنسون من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا وضع تصوراً لإرسال مسبار إلى منتصف لب الأرض.

يقوم التصور المدعوم "بالحسابات الدقيقة" على حفر صدع أرضي كبير، توضع فيه نقطة عملاقة من الحديد المنصهر لا يجب أن يقل وزنها عن مئة ألف طن، وبعد ذلك يُرمى في داخلها المسبار الذي لا يزيد حجمه على البرتقالة. وبفعل الجاذبية ستغور "نقطة" الحديد مفتتة الصخور في طريقها إلى باطن الأرض حاملة المسبار بعد أسبوع..

بعبارة أخرى.. ها هو جول فيرن آخر يضرب ضربته.. وبخيال أوسع من خيال الأول.



اقرأ عن باطن الأرض



إذا استثنينا الكتب الجامعية الموجهة إلى الاختصاصيين في الجيولوجيا، لم تقع أيدينا على كتب تتناول مجمل ما في باطن الأرض وتقتصر عليه فقط في الوقت نفسه.

ولكن المكتبات العربية والأجنبية غنية بطائفتين مختلفتين من كتب التثقيف العام في هذا المجال. الأولى، وتضم العناوين المتعلقة بكوكب الأرض ككل، بما في باطنه وما على سطحه وصولاً إلى الطبقات الجوية العليا. وغالباً ما تتخذ هذه الكتب شكلاً موسوعياً فتفرد لكل موضوع فصلاً صغيراً. ومن أفضلها كتاب "الأرض - مدخل إلى الجيولوجيا الفيزيائية" وهو باللغة الإنجليزية من تأليف ادوارد تاربوك وفردريك لوتجينز، صدرت طبعته الخامسة في العام 1996م عن دار "برنتيس هول" في أمريكا. الأمر نفسه ينطبق على "موسوعة الأرض"، وهو بالإنجليزية أيضاً أصدرته دار دورلينغ كيندرسلي في لندن سنة 1998م.

وفي المكتبة العربية يمكننا أن نجد عناوين عديدة مماثلة، من أشهرها كتاب "الأرض" الذي أصدرته مكتبة لبنان في بيروت في إطار سلسلتها العلمية "موسوعة المشاهدة العيانية"، وهو يتناول كل ما في باطن الأرض وما عليها من خلال الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الموضحة.



أما الطائفة الثانية من هذه الكتب فهي التي تتناول موضوعاً واحداً أو مادة واحدة من مواضيع باطن الأرض وموادها، وهي كثيرة إلى درجة يستحيل إحصاؤها: البراكين، الزلازل، الكهوف، الأحافير، المعادن، الحجارة الكريمة... فلكل من هذه المواضيع عدة كتب متوافرة في المكتبات العربية. ونشير على سبيل المثال وليس الحصر إلى واحد من أجملها، ألا وهو "الكهوف الصحراوية في المملكة العربية السعودية" الذي أعده المستكشف والمصور جون بنت، ونشرته هيئة المساحة الجيولوجية السعودية. ويتضمن هذا الكتاب الذي يقع في نحو 120 صفحة من القطع الكبير رحلات مصورة إلى نحو عشرة كهوف في المملكة، ذات جمال أخاذ ترغب القارئ في استكشاف المزيد، ومتابعة رحلته إلى الأعماق.

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مايو - يونيو 2004
المجلد 53 العدد 3

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

